دار الآداب

مابعد الخطيئة الأولى

وليد السابق

رواية

وليد السابق

ما بعد الخطيئة الأولى

رواية

دار الآداب

جميع الحقوق محفوظة©

على جميع القمم

هو الصمت.

على قمم جميع الأشجار

بالكاد تشعر

بنسمة.

العصافير الصغيرة صمتت في الغابة.

صبراً، فلن تلبث أنت أيضاً

أن ترتاح.

غوته

إننا غرباء حتى أمام أنفسنا.

غور فيدال

في البدء

أحبُّ أن أرى ما ستكون عليه الحياةُ عندما ستسكت اللُّغة، بعد أن تكون قد قالت كلَّ شيء.

جوزيه ساراماغو

المقاعدُ فارغةٌ والسكونُ مُطبقٌ. ينظر في الجهتين فلا يجد أحدًا. ما معنى هذا؟ كيف خلت القاعة فجأة من الجميع؟ ينظرُ خلفهُ فلا يرى أحدًا. القاعة فارغة تمامًا، ولا أثرَ لصوت أو حياة. كانت المصطبة الإسمنتيَّة التي زُرعت في مقدّمة القاعة صامتةً هي الأخرى. الطاولة والكرسي فارغان، والسبُّورة المعلَّقة في الجانب الأيمن تلمع خالية من أيّ كلمة كُتبت عليها. نظر إلى النافذة القريبة، حيث الشمسُ تقترب من المغيب في هذا اليوم الخريفي البارد، وفكّر في أنَّه ربّما رأى شيئًا شبيهًا بهذا من قبل.

يذكرُ أنَّه دخل القاعة برفقة الكثيرين ربّما. كانوا يتحدَّثون فيما بينهم، ويردِّدون عبارات يعرفها، سمعها من قبل وقرأها. يحملون في أياديهم كتبًا وأقلامًا. لا يمكن أن يكون ذلك وهمًا محضًا. لقد دخل قاعة الامتحان، فهذا امتحانُه الأخير في سنته الأخيرة.

هو ليس متأكّدًا بعدُ من شيء. الصمت الثقيل في القاعة جعل أفكاره تتضارب كأمواج في ليل بحريّ. القاعة فارغة. كان قد بدأ ينظرُ إلى ورقة الامتحان حين أحسَّ بالصَمت. جاء الصَمت ثقيلًا، كما يأتي البرد من نافذة شتاء مفتوحة. كيف دخل القاعة وحيدًا ولم ينتبه؟ ثمَّ، مَن أعطاه أسئلة الامتحان؟ ورقة الأسئلة أمامهُ دليلٌ على أنَّه لم يفقد عقله بعدُ. هي هنا. ينظرُ إلى ورقة الامتحان فيراها بيضاء.

لا يدري جابر ما يفعل. عليه أن يُبدي ردَّة فعل عن شيء يجري الآن؛ عليه أن يقول شيئًا؛ أن يصرخ ربَّما: لماذا تركتني وحيدًا. عليه أن يخرج من المكان. لا يمكنهُ أن يبقى هكذا، مصلوبًا في القاعة كأثر تركتهُ الطبيعة عبر ملايين السّنين.

يصيخ السَّمع لعلَّ أحدهم يجتاز الممر.

ـ عذرًا يا سيّدي.

ـ نعم.

ـ أليست هذه قاعة الامتحان الكبرى؟

ـ نعم، هذه هي.

ـ أليس اليوم هو موعد الامتحان الكبير.

ـ نعم، هو كذلك.

ـ فأين سائر الممتحنين والمراقبين وأوراق الأسئلة؟ أين هي الأشياء جميعها؟

ـ هي هناك أمامك: الطلبة والمراقبون والأوراق.

ـ لست أرى أحدًا يا رجل، حبًا باللّه هذا ليس وقت مزاح.

ـ هم، هناك. انظر جيّدًا تَرَهُم. الطلبة يملأون إجاباتِ الأوراق، والمراقبون ينظرون بأعين قلقة.

لا، هذا هراء بحت. لا أحد هنا. قام جابر وأزاح كرسيّه قليلًا. لا يريد أن يُصدر أيّ صوت وقد بدأ الخوف الغريزيّ يتسلّل إليه. طاف بين الطاولات ومرّر يديه فوقها. أزاح الكراسيّ بهدوء ونظر تحتها. لم يعد من مجال للشك: القاعة فارغة إلّا منهُ، وبعضُ ضوء خافت يأتي من النوافذ لحظةَ الغروب.

عليه أن يغادر القاعة. شيء في أعماقه يصرخ قائلًا: لقد تأخّرتَ، عليك مغادرة المكان. أنت هنا غريب، والمكانُ غريبٌ. كلُّ شيء هنا لاواقعيٌّ وغريب. شيء لا يمكن أن يتحقّق إلّا في الأحلام، وأنت ـ للأسف ـ لست تحلم. تقدّم جابر نحو البابِ، بالكاد كان يلامس الأرض. يمشي كلصّ في مكان جريمة. حين وصل إلى الباب بدأ يحسّ بالندم؛ شيء يشبه إحساسًا بالذّنب بعد خطيئة نرتكبها. يحسُّ بأنّه ارتكب جُرمًا، وأنّ مئاتِ الأعين تراقبهُ. القاعة الصامتة فعلتْ فعلتَها وسحبتْهُ معها في عالم لا يعرفهُ.

بدأت يداه ترتجفان حين أمسك بقبضة الباب ليُديرَها. يحسّ بأنّه سيفتح بابًا بين عالمين، ولا يدري ما سيطالعهُ هناك. كان هذا الممرّ محبّبًا إليه فيما مضى. تبدو المدينة، في ليالي الشتاء، من نوافذه العالية، مغسولةً بالمطر، والأبراجُ والسّاحات والأسواق القديمة، كلُّها تبدو من هنا قريبةً على الرّغم من بُعدها؛ قريبة حتى يُخيَّل إلى جابر أنّه يلامسها بيديه، إن هو فتح نافذة.

لا أصوات في الممرّ. فتح جابر الباب قليلًا ونظر. هدوء مُطلق كالفجر في مدينة مسبيّة. خرج من القاعة. لا يدري: أيّ الطُّرق يسلك؟ وأيُّ اتّجاه يمكنه أن يصادف فيه إنسانًا؛ إنسانًا يسألهُ:

ـ عذرًا، ماذا تُريد؟

ـ إنِّي في عجلة من أمري.

ـ أين ذهب الجميع، لا أرى أحدًا هنا.

ـ هل جُننت؟ الممرَّات تغصّ بالبشر، وأنت تسألني أين الجميع، أتسخر منِّي يا هذا؟

ـ معاذَ اللّه يا سيّدي، المعذرة.

لن يسأل أحدًا، هذا إن صادف أحدًا. سيسلك الطريق الأقصر خارج هذا المبنى، ويغادر. المكان الآن هو أشبه بالجحيم من أن يكون بناء جامعة المدينة.

مشى في الممرّ، حيث الأبوابُ مفتوحة على قاعات فارغة. لا أثر لحياة فيها أبدًا. ألواح الكتابة المعلّقة في القاعات كانت ممسوحةً ونظيفة. لا كلمة، ولا أثر لطبشور أو لوحات توضيحيّة. الممرّات والقاعات فارغة. نزل الدَّرج بهدوء. لا يريد أن يُصدر أيَّ صوت. يتمنّى جابر لو أنّه اختفى مع مَن اختفوا؛ لو أنّه ذهب معهم. لكن، إلى أين ذهبوا؟

السّاحة، التي كانت تتوسّط الأبنية، لا تزال على حالها. المقاعد والسّياج والأشجار الصّغيرة نفسها. لطالما جلس هنا وحدهُ، أو مع رفاقه ساعاتٍ طويلةً. تدور الأرض وهم جالسون؛ يتهامسون في كلّ شيء. كان جابر في عالم آخر.

أحسّ برغبة في التدخين، أخرج علبة السجائر، لكنّه غيّر رأيه وأعادها إلى جيب معطفه الشتويّ. لا يريد أن يُصدر أيَّ صوت؛ لا يريد أن يفعل أيَّ شيء. يريد فقط أن يغادر المكان.

اتّجه نحو الباب الرئيسيّ وتجاوزهُ. هو الآن خارج البناء. أحسّ ببعض الرّاحة، فأشعل سيجارة، واتّجه نحو موقف الحافلات العائدة إلى المدينة. وجد حافلة إلى جانب الطريق، وعرف أنّها عائدة نحو الحيّ الرّابع. سينزل هناك ويتابع طريقه ماشيًا إلى ذاك الحيّ الفقير عند أطراف المدينة، فالحافلة القادمة لن تقلع قبل نصف ساعة. صعد إلى الحافلة، وذهب ليجلس في أوّل مقعد يراه شاغرًا. المقاعد كلُّها شاغرة. أيّ جحيم هذا الذي يلتفّ حوله. السّائق غير موجود ومكانه فارغ. ربّما نزل ليشتري شيئًا من البقالة القريبة. جلس جابر ينتظر، لكنّ الانتظار طال، ثمّ انتبه إلى أنّ لا أصوات قادمة من الطريق العامّ، ولا سيّارات. ينظر من النّافذة لعلّه يرى أيَّ شيء يتحرّك. الشوارع خالية.

نزل من الحافلة، لكنَّه رأى عند نزوله كأسًا من الشاي وُضع قرب مقود السَّائق. عاد ونظر إلى الكأس. يفكِّر فيما إذا كان الشاي حلوَ المذاق، أمَ أنَّ السَّائق ربَّما مصابٌ بالسُّكريّ، وهو يشرب شايه من دون سكر. تناول الكأس فوجدها باردة، ثمَّ رشف رشفة فبصقها على الفور. طعم الشاي يشبهُ طعم الموت. شيء لا يمكن ابتلاعُهُ. كأنَّ السَّائل الأحمر الشفَّاف كان قد أُخذ من جثَّة. رمى الكأس ونزل.

عليه أن يمشي عائدًا إلى بيته. الزَّمن الذي كان ينتظرُ فيه الحافلةَ تمرّ به، قد ولّى. الطَّريق خالية تمامًا. كلُّ شيء صامت، حتَّى إنَّه أحسَّ بالهواء قد توقَّف عن الحركة، هو الآخر. لا، تلك مبالغة حقيقيَّة. لو أنَّ الهواء اختفى، هو الآخر، لكنتَ الآن ميّتًا، يا رجل. وما أدراك أنَّ زمنَ الهواء والماء، وهما الحياةُ، ما زال صالحًا في هذا الجحيم حولي. ربَّما الحياة أخذتْ شكلًا آخر، كحيوات ربَّما بعيدة في مجرّات بعيدة. لا، أنت تبالغ الآن، مبالغةَ ما قبل الما وراء؛ ما قبل فقدان العقل.

مشى جابر في الطَّريق العامّ، ذاك الذي يربط المدينة بجامعتها في الجنوب. بداية، كان يمشي على الرَّصيف، ثمَّ بدأ يمشي في منتصف الطَّريق. لا سيَّارات مسرعة، ولا شاحنات ثقيلة، فممَّ الخوف؟

أخذ يغني لحنًا بصوتٍ خافت، ثمَّ رفع طبقة صوته أكثر، فأكثر، حتى بات غناءُهُ صراخًا. يصرخ كمن فقد عقله. ينظر إلى السَّماء: أنا وحدي في المدينة؛ وحدي في المدينة. أنا كلُّ شيء في المدينة الآن: القانون والضمير والجسد والخطيئة. وحين أنهكهُ الصُّراخُ، جلس في منتصف الطَّريق السَّريع، وبدأ يبكي.

حين وصل إلى السُوق الكبيرة في المدينة، كانت الشمس قد غابت تمامًا وبقي منها ضوءٌ برتقاليٌ خافت، يَنعكس عبر واجهات متاجر الثياب الجاهزة. تنظرُ إليه المانيكاناتُ التي ألبسوها ثيابًا، من خلف الزُجاج الشَفاف. لم يكترث جابر لها بداية، لكنَّه بدأ يحس بأعينها تراقبهُ. وقف أمام واجهة زُرع فيها ثلاثةُ مانيكاناتِ رجال من البلاستيك أُلبست ثيابًا مختلفة. كان أحدها ينظرُ جانبيًا، تمامًا إلى الجهة التي وقف جابر فيها. يحدّق جابر في عينيه البلاستيكيَّتين، والدمية الرجل تنظر إلى عينَي جابر، بدورها. بدأ جابر يحسّ ببعض الرُعب، فالدُمية تحدّق في عينيه مباشرة كشخص وقح، وهو يريد تجنُّب النَظر إلى عينيها.

لو أنَّنا في زمن آخر. عشرون ألف سنة إلى الوراء، أو إلى الأمام. في زمن كنَّا فيه، أو سنكون فيه، قادرين على أن نفهم لغات الآخر المختلف؛ لغات الأشياء الجامدة حولنا؛ الجامدة أو التي تبدو لنا جامدة. لربَّما دار حديث بين الدُمية وجابر:

ـ مساء الخير، أيَّتها الدُمية البلاستيكيَّة.

ـ مساء الخير، أيُّها الإنسان.

ـ أين ذهب كلّ سكَّان المدينة، فهي خالية تمامًا.

ـ المدينة ليست خالية، عيناك هما الخاليتان. الحياة ما زالت تدور حولك، وأنت لا ترى.

عندها، سيلتفت جابر حوله فلا يرى أيَّ شيء؛ لا شيء سوى أبنية فارغة، وشوارع فارغة، في مدينة لا حياة فيها. ربَّما سيقول للدُمية إنَّها هي التي فقدت عقلها. لكنَّه سيستدرك بأنَّ الدُمى لا عقول لها.

بدأ جابر يشعر بالضِّيق من نظرات الدُمية. وما زاد إحساسَهُ بالضِّيق، هو طولُ الدُمية الفارغُ وسطوتُها في بذلة رسميَّة سوداء، تُشبه كثيرًا أبطال السينما والمرافقين الشخصيِّين للمشاهير والسياسيِّين. بدأ بداية، ينظرُ إلى قدمَي الدُمية متجنِّبًا عينيها، ثمَّ بدأ يخطو مبتعدًا عن الواجهة حتَّى اختبأ في زاوية الشَّارع الضيِّقة.

كان يرتجف رعبًا، وقد بدأ ليل المدينة يهبط سريعًا. لا مخلوق فيها. لماذا الخوف؟ لا يدري سببًا لخوفهِ. جعلته المدينةُ الخاليةُ، وعينا

الدُمية، واللَّيلُ، كطفلٍ يرى كابوسًا.

مشى بسرعة حتى ابتعد عن متاجر الثياب، وتابع متوغِّلًا في المدينة. حين مرّ بمتجرٍ للأسماك وقف يحدّق فيه. المتجر خالٍ من البشر، والأبوابُ مفتوحة. دخل المتجرَ ورأى على الطاولة بعضَ الخبز ووجبةً يبدو أنَّ صاحبها لم يُسعفه الوقتُ ليأكلها كلَّها. ينظرُ إلى جثث الأسماك التي صُفَّت فوق لوح من الجليد. تنظُر الأسماك، بأعينها الزجاجيَّة المفتوحة، إلى اللَّامكان. مدَّ يده وحمل سمكة وقرّبها إلى وجهه. كانت رائحة السَّمك مقزِّزة.

خرج جابر من المتجر وبدأ يفكّر أين سيمضي ليلتَهُ في هذه المدينة الخالية. أيعود إلى بيته، أم يخرج من المدينة إلى مكان ما زال فيه بشر. لكنْ، ربَّما خلت الأرض كلُّها من البشر.

كان يمشي إلى جهة مركز المدينة حين سمع صوتًا. تناهى إليه صوت شيء يتحرَّك ليس بعيدًا عنه. شلَّ خوفُه أطرافَه. لم يقوَ على فعل أيّ شيء سوى الالتصاق بالجدار، والانسحابِ بعيدًا عن أنوار الشوارع الصفراء، واللجوءِ إلى شارع فرعيّ صغير.

يقترب الصوت المتحرّك من جابر. ينظر ويرى ظلَّه على الجدار. كان الظلّ ضخمًا إلى درجة أنَّ جابر أغمض عينيه. لا ندري سببًا لتصرُّفه الغريب. عليه أن يفتح عينيه على اتِّساعهما ليرى؛ ليقدّرَ حجم الكائن القادمِ وماهيَّته. اختار جابر أن يموت ربَّما مغمضَ العينين. يُقال إنَّ كتيبة الإعدام تعصب أعين الأشخاص قبل موتهم، لأنَّ الموت أسهل بأعين مغمضة؛ أسهلُ للقاتل وللقتيل. إنَّ أكثر ما يؤرّق الجلَّاد، هو أعينُ الضحايا، المحكومين بالموت. وجابر قرَّر الموت بلا رؤية.

أحسّ بشيء يلامس الجزء الأسفل من قدميه. لم يقوَ على فتح عينيه. نغمض أعيننا أحيانًا لنؤثِّر في المشهد، كأنَّ عدم الرؤية سينفي الوجود؛ أو كأنَّه سينفي المشاركة الخلّاقة في رسم المشهد؛ في وجوده.

ما زال شيء يلامس قدميه بإصرار. استجمع ما بقي في نَفْسه من شجاعة وفتح عينيه. كلبٌ أسودُ متوسِّط الحجم يحتكّ بقدميه. يا آلهة السَّماء! كلبٌ أسودُ في هذه اللَّيلة! لم يجرؤ على الحركة وبقي ساكنًا. الكلبُ الذي تدلّ حركاتُه وهيئته على الوداعة ينظرُ إليه. ينظرُ بدوره إلى الكلب ولا يدري إن كان مخلوقًا حقيقيًا أم أنَّه وهم، هو

الآخر. انحنى جابر أخيرًا ومسح ظهر الكلب، ثمَّ عاد ووقف. ينظرُ الكلبُ إليه في قبول للملاطفة. انحنى مرّة أخرى واقترب منه يمسّد ظهره. الكلبُ الآن وادعٌ أليفٌ، يتمدَّد على الأرض ويغمض عينيه.

انتصب الكلبُ فجأة فأجفل جابر وابتعد عنه. اقترب منه ونبح نباحًا خفيفًا، ثمَّ التفت يمشي إلى جهة السوق. بقي جابر ساكنًا. التفت الكلب من جديد وعاد إلى مكان قريب منه. ثمَّ كرَّر رواحه وإيَّابه، وجابر ساكن. وأمسك بأسنانه، في النِّهاية، بسرواله وسحبه. فهم جابر الآن أنَّ الكلب يريد أن يأخذه معه إلى مكان بعينه.

سأتبعهُ، فكَّر جابرُ، وهو يقتفي أثر الكلب. خرج الكلب من السوق إلى جهة الطَّرف الجنوبيِّ للمدينة، «أين يأخذني»؟ توقَّف جابر عن السَّير، فأحسَّ الكلب السَّائرُ أمامه بذلك، فتوقَّف هو الآخر. في عينَي الكلب وميضٌ غريب، يحسّ بأنَّ هاتين العينين ليستا لكلب. فيهما شيءٌ غريب؛ فيهما عمقٌ مفكِّر.

يصلان إلى أطراف المدينة ويجتازانها. مشى جابر خلف الكلب ساعات ثلاثًا وهو يفكِّر: أين سيأخذني؟ هاجس في أعماقهِ يقول: اتبعهُ. وهاجس يقول: اهربْ.

هما الآن في مكان مفتوح، وباتت المدينة بأضوائها خلفهما. كان جابر ينظرُ إلى الخلف ليراها حين توقَّف الكلب فجأة. ووقف جابر أيضًا حين انتبه لوقوفه، وبدأ ينبح نباحًا خفيفًا ويشير برأسه إلى جهة بعينها. جال ببصره لعلَّه يرى شيئًا في هذا العرَّاء الساكن. لكنْ، لا شيء هنا سوى الرِّيح واللَّيل.

لم ينتبه للبوَّابة التي ظهرت خلف الكلب بأمتار. لم يرَها. وحين التفت الكلب إلى جهتها ونبح مرّة أخرى، أبصرها جابر. يا إلهي، لم يكن هناك شيء منذ لحظات قليلة، أو ربَّما لم يُسعفني الظلام كي أراها. ابتعد عن الكلب إلى جهة البوَّابة، بينما اقترب الكلب من قدميه مجدَّدًا، وتمسَّح بهما، وعاد إلى الطَّريق نفسه، جهة المدينة مغادرًا. شيَّع جابرُ الكلبَ حتى ابتعد وأصبح صغيرًا في البعيد المنظور.

اقترب من البوَّابة الخشبيَّة العملاقة. دفع الباب وخطا خطوة إلى الداخل. ظلامٌ يلفُّ المكان. لا يرى أيّ شيء. ربَّما البوَّابة معلَّقة في الفراغ بين اللَّيل... واللَّيل، لا تحجب شيئًا خلفها سوى السَّراب.

«لقد انتظرناك طويلًا، يا هذا».

صوت مجلجل يأتي من الداخل، ويُنارُ مصباحٌ من الأعلى يسقُطُ نورُهُ في بقعة صغيرة. يسمع جابرُ الصوت ويتجمَّد في مكانهِ. كان عميقًا؛ شيئًا يُشبه صلوات جنائزيَّة، أو كأنَّه أصواتُ الحرب تأتي من مسافات بعيدة. لا يدري جابر ما يفعل الآن. يمكنهُ الاستدارة والهرب. لقد وجد نفسَهُ في مكان لا تعلم إلَّا السَّماءُ ماهيَّتَه. يهمُّ بالاستدارة ليغادر، فيأتي الصَّوت العميق مرَّة أخرى:

ـ ادخلْ، وأغلق البوَّابة.

يرتجفُ جابر رعبًا من مجهول لا يراه. لا يرى الشخص المتكلِّم: أهو بشر مثلنا أم شيء آخر. يعودُ الصوت المجلجل نفسُهُ، ويبدو عليه ضِيقُ الصدر والغضبُ: ادخل يا هذا، وأغلقِ البوَّابة.

دخل جابر وأغلق البوَّابة خلفه. يرى الآن ما لم يرَه في البداية: مسرحًا عملاقًا درجيَّ الصُّفوف. تنحدر الصُّفوف حتَّى تصل إلى أدنى مستواها أمام الخشبة. ويضيء الضَّوءُ السَّاقط في مركز الكراسيّ الدرجيَّة دائرةً صغيرة، كان يقف فيها شخص ما.

«تعالَ من هنا»، يتابع الصَّوت العميق الصادر من دائرة الضوء. لم يعد لهُ أيُّ خيار الآن. يدخل جابر بين الصفوف. كانت الخشبة بعيدة جدًا. النظرُ من الأعلى إلى الصفِّ الأخير كالنَّظر إلى هاوية من قمَّة جبل عملاق. اجتاز صفوفًا كثيرة حتَّى بلغ النَّسقَ الذي سيقوده إلى مركز دائرة الضَّوء، حيث الصَّوتُ العميق.

يرتدي رجلٌ عجوز ما يشبهُ عباءة بيضاء تُخفي كامل جسده النَّحيل. الرجل أطول من جابر، بشعر أبيض، بلغ حتَّى أسفل كتفيه، وفي عينيه الرماديَّتين شيءٌ ساحرٌ غريب؛ شيءٌ جاذب ومسيطر.

«اجلس هنا»، يشير الرجل العجوز إلى مقعد ويجلس، ثمَّ يجلس جابرُ قربه ويحسّ بأنَّه يحلم. نعم، إنَّه يحلُم. هذا هو التَّفسير المنطقيّ الوحيد لهذا اللَّامعقول حوله.

«لقد تأخَّرتَ»، يتابع الرجل العجوز. «كاد يفوت دورُكَ». يريد أن يسألهُ: عمَّ تأخَّرتُ؟ وماذا سيفوتني؟ لكنَّه بقي صامتًا، وقد شلَّ الرُّعبُ أطرافَهُ.

«أين وصلت في الحياة، يا هذا»، يقول الصَّوت. يستجمع جابر صوتَهُ ويقول:

ـ أنا لا أفهم شيئًا ممَّا يحدث هنا.

ـ ستفهم فيما بعد. أين وصلت في الحياة الدُنيا؟

ـ صدِّقني، لا أفهم سؤالك. ماذا تعني؟

ـ لا عليك، ستفهم حين يحين الوقت.

حياتك قد انتهت.

يتقدَّم رجلان يلبسان بذلتين سوداوين في اتِّجاه جابر. يقول الرجل الكبير لهما:« ليس بعد»، فيغادران.

انتهت حياتك الآن. لكنِّي سأجعلك ترى حيواتك هناك على الخشبة الأزليَّة: ما مرَّ عليك وما قد يمرّ، إن أمهلَتْك الحياةُ وغيَّرت الصُدفُ مجراها.

لا يجرؤ جابر على النَّظر في اتِّجاه الرجل العجوز. لا يجرؤ حتَّى على أن يسترق نظرة حوله إلى المكان. أما زال المكان كما كان حين دخولهِ، أم تغيَّر. إن أغمض عينيهِ فهل سينفجر المكان متلاشيًا كفقاعة صابون.

يحسّ الرجل العجوز بما يفكِّر فيه جابر، فيقول: لا تفكِّر كثيرًا في الحقائق. اترك قلبك يَقُدك نحو الحقيقة. إنَّ أوَّل خطوة في فقدان الطَّريق هي العقلُ.

تُسحَبُ السّتارةُ جانبًا من الجهتين، ثمَّ تُضاءُ الخشبة العملاقة بعشرات الأضواء. تبدو خاليةً وساكنة للحظات، ثمَّ يبدأ يُخلَق فيها مكانٌ وزمنٌ وحياة. يرى جابر نفسه وقد اقترب الكلبُ منهُ مغمضًا عينيه ويمسّ قدميه. يقول جابر: هذا أنا، قبل أن آتي إلى هنا. أعلم هذا.

ـ سترى الآن كيف ستتغيَّر حياتُك كلُّها إن أنت غيَّرتَ، بإرادتك الحرَّة، حدثًا صغيرًا؛ حدثًا متناهيًا في الصِّغَر، في زاوية ما من الحياة.

لنفترضْ أنَّك لم تَتْبَع الكلب الأسود. إن أنت أفلتَّ منهُ؛ من قَدَرك الآنيّ، فكيف ستكون حياتُك.

ـ لكنِّي أحيا الآن هنا. كيف سأحيا حياتين، في مكانين وزمنين مختلفين.

ـ لستَ تدري الحقيقةَ بعدُ. الحقيقة تتغيَّر كلَّ لحظة، لكنَّك لا تراها.

حياةٌ أولى

أحلامُنا حياةٌ أخرى. اللَّحظاتُ الأولى من النوم تحمل صورةَ الموت.

جيرارد دي نيرفال

حاول الكلب أخذ جابر معه، لكنَّه أبعدهُ عنه. ثمَّ حاول الكلب ثانية فدفعه جابر بقدمهِ، كانت الدَّفعة كافية لتخويفه، لم يؤذِه، لكنَّ الكلب تراجع وانسحب.

بقي جابرٌ يرتجف ملتصقًا بجدار؛ يرتجفُ بردًا وخوفًا.

وحين فتح عينيه طالعهُ سقفٌ أبيض. لا بدَ من أنَّه الصَّباح. كانت أشعَّة الشَّمس تتسلَّل إلى عينيه من فتحات لم يدرك ماهيَئتها بعد. وبقي للَّحظات ينظرُ إلى السَّقف، ولا يدري كيف وصل إلى هنا.

يغمضُ جابر عينيه من جديد.

يأتي صوتٌ من مكان بعيد؛ من أعماقِهِ السَّحيقة ربَّما. صوت يقول:

ـ لقد تأخَّرتَ. سيفوتك الامتحان. ستمرّ بكَ الأشياء بعد زوالها.

يفتح جابر عينيه من جديد. ترسم أشعَّة الشَّمس في السَّقف الأبيض قوسًا برَّاقًا. يلتفت قليلًا، وطيفُ الكلب الأسود ما زال ماثلًا في خياله. يفتح عينيه قليلًا. كرسيّ قديم، وطاولة صغيرة في العمق البعيد للمكان. يفتح عينيه أكثر، ثمَّ يقفز كمن لسعتهُ أفعى.

يركض في اتِّجاه النَّافذة القريبة. كيف عاد إلى غرفته، في ذاك الحيّ المنعزل عند أطراف المدينة؟ كيف انتقل من مركز المدينة إلى هنا، والمسافةُ بعيدة؟ ينظر من النَّافذة. المارّة يملأون الشَّارع. لقد كان حُلمًا مزعجًا. يمتدّ نظره إلى الطُّرق البعيدة. السَّيَّارات والحافلات تملأ الطُّرقات. لقد كان حُلمًا. الحلم عينه يعود مرَّة أخرى. يتصبَّب جابر عرقًا، ويحسّ بأن لا طاقة في جسده ليبقى واقفًا. يتهاوى على الكرسيّ الخشبيّ. يتحسَّس جسده. يلامس وجهه بيديه. هو لا يحلم الآن. إنَّه صاحٍ.

أيُهما حلمٌ: المدينةُ الخالية أم وجودي هنا، وأيُهما حياة؟ ينظرُ في عينَيِ الرجل العجوز، فيحسّ بأنَّ خلفهما بحرًا يموج، وزمنًا سرمديًّا يسيلُ دفقًا. الحياة هي ما تحياه، ما تحسُّ بأنَّك تحياه، سواء أكانت حياةً أم حلمًا؛ حقيقةً أم خيالًا. لا فرق بين الحُلم والحقيقة إلَّا في الإحساس المُرافق للحظة.

ينظرُ إلى ساعتهِ. «لقد تأخَّرتَ». يأتي الصَّوت من جديد. يركض نحو المغسلة، يغسل وجههُ بماء بارد. يتناول ثيابه الملقاة على مشجب خشبيّ خلف الباب. لا وقت لكأس من الشاي السَّاخن، يفكِّر، ثمَّ يرتدي ثيابه على عجل، ويغادر.

عندما غادر جابر غرفتهُ الفقيرة، ومشى في الشَّارع المؤدِّي إلى مرأب الحافلات، بدأ يشعر بالامتنان لكلّ شيء. الشَّارعُ المزدحمُ بالعربات والمارَّةِ والسَّيَّارات، ذاك الذي كان يسبِّب لهُ ضِيقًا فيما مضى، بات الآن مصدرَ طمأنينة وسعادة. لطالما تأفَّف وخاطب نفسَهُ: لقد كرهت العيش هنا. نحن محشورون هنا كحجارة مكدَّسة في شاحنة قديمة.

يبتسم جابر للمارَّة ويحيِّي الجميع. حتَّى جارُه البقَّال، الذي كان جابر يتجنَّبهُ، ويصفهُ بالشيطان الصَّغير، اقترب منه وحيَّاهُ: كيف الحال يا عمّ؟ لكنَّ الرجل لم يردّ له التَّحية. لا بدَّ من أنَّه لم ينتبه.

كان مرأب الحافلات يغصّ بالبشر. ركب جابرُ حافلةً على وشك الانطلاق، وكانت ممتلئةً عن آخرها، وهو يحسّ بالسَّعادة كلَّما توقَّفت وصعد إليها مسافرون جدد. إنَّه سعيد بالحياة تعود إلى المدينة، بعد أن فارقَتْها اللَّيلةَ الماضية.

وصل جابر إلى الجامعة، واكتشف أنَّ أمامهُ عشرَ دقائق فقط ليكون في قاعة الامتحان. ركض نحو قوائم الأسماء ليجد القاعة المخصَّصة لهُ. لم ينتظر حتى يقرأ اسمهُ، بل استدلّ عليه من قائمة الحرف. ولو أنَّه تروَّى قليلًا، وبحث عنه بين الأسماء، لما وجدهُ، ولسرَّع الكارثةَ المقبلة نحوه؛ تلك التي لن تكون خلفًا مُزعجًا، وتلك التي لن يستيقظَ بعدها لتتلاشى كفقاعة صابون.

يرى جابرُ حياتَهُ مرسومةً تتحرَّكُ على الخشبة. لا يجرؤ على النَّظر خلسة في اتِّجاه الرجل العجوز. لا يجرؤ على النَّظر حوله أو الالتفات وهو يحسُّ بأنَّه والرجل العجوز ليسا وحيدين في هذا المدرج العملاق. تأتي أصوات تشبهُ الهمس من مسافات لا يدركها، ربَّما خلفَهُ تمامًا، وربَّما على بعد مئات الأمتار.

مرَّ مُسرعًا قرب عدد من زملائه. لم يقترب إليهم كعادته، بل سيحادثهم بعد انتهاء الامتحان، وربّما سيشربون الشاي في مقهى الجامعة. عليه الآن، أن يصل إلى القاعة بالسُرعة القصوى. يركضُ، وصوتٌ في أعماقه ينادي كجرس نحاسيٍ يقرع: لقد تأخَّرت.

كان آخر الواصلين إلى القاعة. لم يجد مكانًا لهُ. شغل الطُلّابُ كلَّ المقاعد والطاولات. كيف هذا؟ كيف سيقدّم امتحانهُ والطّاولات كلُّها مشغولة. وحين نظر إلى القاعة عن كثب، بدأ العرق البارد يتصبّب عن جبينهِ. هي القاعةُ نفسُها في الحُلم؛ القاعةُ الخاليةُ من البشر.

التفت جابر حوله، فوجد كرسيًا قرب المنصّة الإسمنتية، ثمّ رأى طاولة في الممرّ. حملهما ووضعهما قرب المصطبة الإسمنتيّة. وحين مرّ قرب المراقب لم يَفُه الأخيرُ بكلمة. فهمَ جابر تصرُّفه خجلًا من سوء تقدير الجامعة لعدد الطُلّاب. لا بأس. هو ليس غاضبًا، ولا مشكلة لديه الآن. إنّه سعيد بحياة المدينة؛ حياتِها الجديدة.

ينظرُ جابر من النافذة المطلّة على الحدائق الخلفيّة، ويرى شخصين متعانقين. كان الرجل والمرأة مختبئين عن الأنظار في ظلّ شجرة كبيرة. عاملُ النّظافة يحتضن زميلتهُ، وينظر حولهُ بقلق. تمتدّ يدهُ أسفل خصرها، ثمَّ يغوصان فوق العشب، هناك عند أطراف المنطقة الجرداء التي تجتمع فيها القمامة. لا بدَّ من أنّهما يدركان أنَّ الجميع مشغول بامتحاناته، والفرصة ذهبيّة.

مَرَّ المراقب يوزّع الأوراق على الطُلّاب. كان نحيلًا وله ظهرٌ مقوّسٌ إلى الأمام. يراه جابر ويفكّر: لا بدّ من أنّنا كنّا نمشي على أربع في زمن مضى.

أعطى المراقبُ الطالبَ الجالس أمام جابر ورقةً، ثمّ تجاوزه من دون أن يترك له واحدة، وتابع بعدها توزيع الأوراق. استغرب جابر تصرُّفهُ هذا. «لا بأس. لا شك في أنّه سها عنّي». فنهض واتّجه نحو طاولة المراقبين. أخذ ورقة بيضاء وعاد يجلس على كرسيه. توقّع جابر أن يسألهُ أحدهم شيئًا، لكنَّ المراقبين تصرّفوا كأنّ شيئًا لم يحدث. فكّر جابر. لقد أحسَّ مرّة أخرى بالخجل لعدم إعطائه ورقة.

«ستوزّع أوراق الامتحان»، يقول ذاك المراقب ذو الظهر

المنحني.

لا تنظروا إلى أوراقكم حتَّى نعطيَكم الإشارة. وأيُّ التفاتة نحو ورقة زميلك ستكلِّفك خسارة الامتحان، انظز إلى ورقتك فقط ولا تلتفت.

إنَّها تعليمات الامتحان التي سمعها جابر مئات المرَّات. ما فائدة الامتحان، بل ما فائدة الدراسة جُلِّها، إن كان معظم من غيَّروا وجه البشريَّة، بآرائهم أو بأفكارهم، بشرُّهم أو بخيرهم، هم من الفاشلين دراسيًا، وبجدارة.

عاد المراقب، ذو الظهر المنحني، يوزِّع أوراق أسئلة الامتحان. وكما في المرَّة السَّابقة، يتجاوزه من دون أن يعطيه ورقة. بدأ جابر يحسّ بالضِّيق: ما معنى هذا؟ كيف يكرِّر ذو الظهر المنحني خطأه مرَّتين؟ وقال في نفسه: «يجب أن أتمالك أعصابي. إنَّه امتحاني الأخير». وكرَّر جابر الشَّيء نفسه، فذهب إلى طاولة المراقبين وأخذ منها ورقة، وعاد يجلس منتظرًا ـ كما الجميعُ ـ إشارةَ البدء. لم يلتفت المراقبون إليه أبدًا. كان يتحرَّق ليرى الأسئلة. لقد حضَّر جيِّدًا لامتحانه؛ امتحانِه الأخير.

كان قد خطَّط لامتحانه بدقَّة. سيبدأ بالمسألة الرئيسة. إنَّها الأصعب، كما أنَّها ستأخذ معظم الوقت وجلَّ الدرجات. فإن عالجها جيِّدًا، ضمن النجاح بعلامة جيِّدة، ثمَّ يتابع الإجابات عن الأسئلة الصَّغيرة. «ابتدأ الامتحان»، يقول ذو الظهر المنحني. وينظر الجميع إلى أوراقهم.

لا يصدِّق جابر عينيه. هذا مستحيل. يقلب الورقة على الجهتين. الورقة بيضاء. يجمد في مكانه ولا يتحرَّك. يعود كابوس اللَّيلة الماضية يصفعهُ كريح جليديَّة. يتأمَّل الورقة البيضاء لعلَّ معجزة تحدث وتعود الحروف السَّوداء لتجتمع من جديد، وترسمَ كلمات وجملًا وفواصل. سيقول حرف النون الذي سيكون قائد المجموعة ربَّما: هيَّا يا أصدقائي نجتمع من جديد. هذا ليس عدلًا، سيفقد الرجل عقله إن تابعنا لعبتنا.

وسيصرخ في حرفَي الواو والياء ليتبعاه. لكن، ماذا لو أنَّ الحروف قرَّرت أن تتابع لعبتها، وتجتمع بطريقة مختلفة؟ ماذا لو قرَّرت مثلًا أن تكون مقطعًا من آخر نشيد في «الأوديسة»؛ ذاك الذي يصف فيه يوليسيس سريرَ الزوجيَّة لزوجتهِ بينلوب، ليثبت لها هويَّته. لا بدَ

من أنَّ جابرًا سيقرأ النشيد ويفقد عقله.

لكنَّ الحروف لا تجتمعُ: لا في «الأوديسة»، ولا في مسألة رئيسة. الحروف غائبة تمامًا. الحروف بيضاء، ميْتة!

بدأ جابر يستشيط غضبًا. يحسّ بأنَّ يديه ترتعشان، وجسدَهُ كلَّه يرتعش. ومرَّة أخرى، يفكّر في أنَّ عليه ضبطَ أعصابه، كي لا يخسر امتحانه.

يلتفت قليلًا، ليرى إن كانت أوراق زملائه بيضاء هي الأخرى. الطُّلَّاب جميعهم يكتبون في أوراق إجاباتهم. أوراق أسئلتهم ليست بيضاء.

لم يستطع جابر أن يلجم غضبه أكثر. رفع يده ليسأل المراقب ذا الظهر المنحني، لكنَّه تجاهلهُ تمامًا.

بدأ يغلي كمرجل. يقاوم الرَّغبة في التَّوجُّه إلى هذا المتغطرس وصفعه.

دفع كرسيَّه، واتَّجه نحو المراقب ذي الظهر المنحني. كان الأخير يقرأ في جريدة، جالسًا خلف طاولته، فوق المصطبة الإسمنتيَّة. بدأ كلامهُ هامسًا كي لا يزعج زملاءه:

ـ ورقة الأسئلة بيضاء. ما معنى هذا. هل تتكرَّم بإعطائي ورقةَ أسئلة أخرى؟ فالوقت يمرّ كالسَّيف.

لم يَفُه المراقب الأحدب بكلمة، بل لم يُعِر جابرًا أيَّ التفاتة. لم يسمعه جيِّدًا. رفع جابر صوتهُ قليلًا، وكرَّر السُّؤال. لكنَّ المراقب لم يلتفت نحوه، ولم يعتبرهُ حتَّى موجودًا. فذهب نحو المراقب الثاني؛ ذاك القصير المكتنز. كان المراقب الثاني ينظر إلى جابر، الذي كرَّر السُّؤال محدِّقًا في عينيه تمامًا. لكنَّ المراقب المكتنز لم يحرِّك ساكنًا أيضًا.

تحوَّل غضب جابر الآن إلى سيل جارف. اقترب من المراقب الأحدب، مرَّة أخرى، وصرخ بأعلى صوته: إن لم تلتفت نحوي، قلبت طاولتك العفنة على وجهك. وظلَّ المراقب الصامت يتصرَّف كأنَّ جابرًا غير موجود.

ذهب نحو أوَّل طاولة أمامه، وخاطب الطالب الجالس إليها: عذرًا يا أخي، هل لي بسؤال. لكنَّ الطالب لم يرفع رأسهُ، بقي صامتًا ولم

يلتفت، كأنَّ جابرًا غير موجود.

وقف جابرٌ في وسط القاعة، وصرخ. ما زلتُ موجودًا. ما زلت كيانًا يتنفَّس ويتألَّم ويجوع. لا تبقوا صامتين هكذا حُبًّا بالسَّماء. فليشتفني أحدُكم. فليفعل أحدكم ما يشاء، فقط لأحسَّ بأنِّي موجود.

بدأ صوت جابر يخفت فجأة. يحاول أن يرفعهُ من جديد، ويفشل. تتساقطُ الكلمات من فمه غير مفهومة. شيء يشبهُ مواء قطَّة في شارع خالٍ. يحاول التَّركيز في مخارج الحروف، لكنَّها تخذلهُ. يتحوَّل الصَّوت تدريجيًا إلى غمغمة لا معنى لها. يخبو صوت جابر حتَّى يختفي، فهو غير موجود، وهو بلا صوت.

ما معنى هذا؟ كيف اختفيتُ ولم أعد مرئيًا؟ أهو الموت. يسأل جابرٌ نفسه ويلتفت ناحية الرجل العجوز، ويقول له:

حبًّا بهذا اللامعقول أجِبني، ما هذا؟

أجابه العجوز: ليس موتًا وليس حياة. أنت لم تعد موجودًا، في عقل الجماعة. أصبحت وجودًا آخر.

ركض جابر في ممرَّات البناء الجامعيّ. إن رآهُ أحدهم فسيعتقد أنَّه فقد عقله، أو إنَّ أحدهم يطاردهُ ليقتلهُ، لكن لا أحد يراه.

التفت في نهاية الممرّ ودخل دورة المياه. يقترب جابر، وينظرُ إلى المرآة التي فقدت أكثر من جزء من طلائها، وغدت شاحبة. يرى صورتهُ مشوَّهة قليلًا بسبب المرآة القديمة. صورتُهُ مشوَّهة لكنَّها موجودة. إنَّه موجود في المرآة. يتحسَّس معالم وجهه. فمهُ موجود في مكانه، وفيه أسنان. وأثر الجرح القديم موجود أسفل ذقنِهِ؛ ذاك الجرح الذي نتج من سقوطه صغيرًا في الحديقة العامَّة. كلّ شيء في وجهه موجود. إذن، لماذا لا يراه الآخرون. لماذا تلاشى وأصبح صفرًا، لا قيمة لهُ في حياة المدينة.

ذهب في اتِّجاه السَّاحة العامَّة. كان بعض الطُّلَّاب قد جلسوا على المقاعد الخشبيَّة، ذاتِ اللَّون الأخضر. رأى أحدَ أصدقائه يعبر السَّاحة نحو البناء المقابل. ركض جابر نحوه، قال له: صباح الخير، كيف حالك؟

لكنَّ الرجل يتابع طريقهُ، كأنَّ شيئًا لم يكن. وظلَّ جابر يمشي في محاذاته ويقول: يا صديقي، انظر إلى وجهي، حبًّا باللّـه. انظر مرَّة

واحدة فقط، لأحسّ بأنّي ما زلت موجودًا، وما زلت أشغل حيّزًا صغيرًا في الحياة.

يقف جابرْ وحيدًا عاريًا في السّاحة. يقفُ على حدود عالمين: الوجودِ والعدمِ؛ الشيءِ واللّاشيءِ؛ الإنسانِ والرّقمِ الصفريّ.

يستلقي في السّاحة. يفترش الإسمنت، ويحدّق في السّماء. لا همَّ إن داستهُ الأقدام. هو لاشيء الآن. لا وجود له، ولا أثر، ولا بصمة. فليدع الأقدامَ تدوسهُ. ربّما يأخذه الألم إلى عوالم أخرى غير تلك التي نعرفها، أو لعلّه يلتصقُ بالإسمنت، كتعويذة، كقربان بشريّ.

سار جابر نحو البناء الخلفيّ بلا هدف. لا يلتفت إليه أحد من أصدقائه، ولا يثير أيّ فضول بشأنه. دخل البناء ومشى في البهو. كان مسؤول الامتحانات يعلّق نتائج الطلبة. اقترب ليرى. كانت علامات الامتحان ما قبل الأخير من الأسبوع الماضي. اقترب وقلبه ينبض بشدّة. كان العرق يتصبّب من جبينهِ باردًا. مرت عيناهُ مسرعتين فوق الأسماء. لا يجد اسمه. يرى الاسمَ الذي قبله، والاسم الذي بعده. أمّا خانة اسمه، فبيضاء. اختفى جابر من سجلّات الجامعة. اقترب من المسؤول يخاطبه. لكنّ جابرًا الآن بلا صوت. تخرج من فمه غمغمةً كتلك التي تلفّظ بها الإنسان قبل اختراع الحرف. أصوات لا رابط بينها. أصوات تخبو، حتّى الصمت.

أخرج جابرْ قلمًا من جيبهِ. «سأضيف اسمي إلى الخانة البيضاء، ولتذهبِ الحكمةُ والصّبر إلى الجحيم». يمرّر القلم في الخانة البيضاء، لكنّها تبقى بيضاء. لا يستطيع الكتابة. حتّى قلمهُ بات أخرسَ.

خرج من الجامعة، قاصدًا مرأبَ الحافلات. كان يكرّر، غيرَ مدرك أحداثَ اللّيلة الماضية. وسيدرك فيما بعد أنَّ الفوارق بين الحلم والحقيقة واهيةٌ، وغيرُ حقيقيّة، بل إنَّها غيرُ موجودة، وأنَّنا نحن ـ البشرَ ـ مَن صنعها.

كانت إحدى الحافلات ممتلئة، وعلى وشك الانطلاق. صاح السّائق: سننطلق خلال خمس دقائق. ينظرُ جابر إلى زجاج الحافلة، فيرى أنَّ الرُّكاب يكادون يخرجون من الأبواب والنوافذ. لا مكان لوافد جديد. «سأنتظر الحافلة التي تليها، ولن أحشر نفسي هنا حشرًا»، يفكّر. لكنَّ الحافلة المعدنيّة تقول، وهي تهتزّ، بعد أن شغّل السائق المحرّك: «اصعد يا رجل وكفاك حماقة. أما زلت تعتقد أنَّك موجود. سوف لن تشغل من الحيّز المادّيّ شيئًا إن صعدت، ولن تضيف شيئًا، أو تُنقص شيئًا إن بقيت. فوجودك وعدمه سيّان. أنت غير موجود». «ما زلتُ موجودًا، أتنفّس وأرى وأتألّم»، يقول جابر، وتخرج من فمهِ غمغماتٌ بدائيّة. لكنَّ الحافلة تجيبه: «إذن، ابقَ في مكانك يا أحمق»، وتقهقه نافثة دخّانًا أسودَ وهي تنطلق نحو الطّريق العامّ.

يمشي جابر على الرّصيف متّجهًا نحو مركز المدينة. يمشي لساعات ويصل إلى السّوق التّجاريّة. المانيكانات البلاستيكيّة عينُها خلف واجهات الزجاج، لكنَّها محايدة في ازدحام الظهيرة. السّوق مزدحمة بشدّة. يتجنّب جابر ارتطام المارّة به، وخصوصًا أنَّهم لا يرونه الآن. مرَّ بمطعم يبيع الكفتة المشويّة. لم يأكل شيئًا منذ ظهيرة يوم أمس، وأمعاؤه تُصدر أصواتًا؛ تشتكي من الجوع. توقّف ليشتري شطيرة صغيرة. بعض اللّحم وبصل في رغيف صغير. «شطيرة من الحجم الصّغير، من فضلك»، يفتح جابرًا فمه. لم يعد يميّز إن كان هذا صوتَهُ، أم أصواتًا غير مفهومة. كان يحاول الكلام كمن يقلّد لغة غريبة سمعها لمرّة واحدة، لكنَّ البائع الذي لفَّ حول خصره قماشةً بيضاء عليها بقعٌ هائلة من الزيت، لم يلتفت. تذكّر جابر أنَّه غير موجود في عين الآخر؛ الآخر الذي كان يرى جابرًا فيما مضى كيانًا حقيقيًا.

ما العمل الآن؟ إن استمرّت الحال هكذا فسيموت جوعًا. فَقَدَ الوسيلة التي تمكّنه من مخاطبة الناس، والتي يستطيع من خلالها الصّراخ في وجه الآخر: «اسمع يا هذا، أنا موجود. ويحقّ لي من

الحياة، بقدر ما يحق لك». يعذّبه منظر الشُواء أنّى ذهب. هو يتضوّر جوعًا، والبائع ينتظر زبونًا جديدًا، ويطرد الذباب بلوح صغير من الخشب. «إن أخذتُ قطعة من اللّحم، فلن يراني أحد، لكنّي سأصبح سارقًا؛ سارقًا شفّافًا. حسنًا، سأدفع ثمن الشطيرة، وأحضّرها بنفسي». قرأ التسعيرة، وأخرج من جيب معطفه نقودًا معدنيّة. وضع النقود في وعاءٍ يشبه كأسًا بلاستيكيّة، اتّخذه البائع لجمع النقود. ولفّ رغيفًا صغيرًا ببعض اللّحم والبصل، وبدأ يأكل.

«لم تسرق هنا»، يقول الرجل العجوز، «لكنّك سترتكب فيما بعد أخطاءً بشعة». يلتفتُ جابر ناحيته، ويقول: كيف تعلمُ بأنّي سأرتكبُ خطأً. وإن كنتَ تعرف حقًّا فلماذا لا توقّف أخطائي، لماذا لا تجنّبني وتجنّب غيري هذا الألم.

ـ هي حياتك أنت، تقودها الصُدف والمشيئة أحيانًا؛ مشيئتُك أنت يا جابر، وليست مشيئتي!

كان طعم اللّحم غريبًا. وإن كنّا نريد وصف الحالة بدقّة لقلنا: كان اللّحم بلا طعم. ربّما ينقصهُ قليل من الملح. ذهب خلف طاولة البائع وأضاف الملح. «قليل من الملح فقط لا يكلّف نقودًا»، يخاطب البائعَ بلغته الجديدة، والبائع لا يلتفت طبعًا.

لم يتغيّر شيء. بقي اللّحم عديم الطّعم. تناول ورقتين من النعناع الأخضر الطازج، قرب البائع، وأكلهما. تحوّل النعناع القويّ الطعم في فم جابر إلى تراب. فَقَدَ القدرة على تذوُّق الأشياء. أصبحَ بلا ذاكرة حسّيّة، تمامًا كالإنسان الأوّل حين أكل أوراق النباتات، أو ربّما أوراق الأشجار.

أكل الشطيرة عديمة الطعم، فأحسّ ببعض الرّاحة. لا همّ إن كانت بطعم أو من دونه، المهمّ أن يبقى حيًّا. ولو أنّ الأشياء تتكلّم، أو لو أنّنا نفهم لغات تتخاطب بها فيما بينها، لسمعنا الطاولة الخشبيّة تقول: «وما فائدة أن تبقى حيًّا! ما فائدة الحياة وأنت مرئيّ! فكيف وأنت الآن خيالٌ كان فيما مضى إنسانًا». ولقال لها جابر بصوته المبغوم: «أنتِ على حقّ يا طاولة، لكنّ غريزة الحياة تدفع الإنسان إلى أن يحاول النجاة، وهو سائرٌ نحو موته الأكيد».

يمشي في السُوق على غير هُدى. يتوقّف بين الحين والآخر أمام واجهات المحالّ. ألبسة جاهزة وأحذية: يمكنني الآن أن أفعل ما أريد؛

أن آخذ أيّ شيء؛ أن أذهب أنّى شئت؛ أن أستقلّ طائرة نحو أيّ مكان في العالم، من دون جواز سفر أو حتّى تذكرة. يمكنني أن أفعل أيّ شيء إلّا أن أكون موجودًا.

دخل حديقة عامة وجلس على كرسيّ خشبيّ فيها. كان قد مشى ساعاتٍ طويلةً، وأخذ منه التعبُ كلَّ مأخذ. «سأعود إلى غرفتي»، يفكّر. «لا يمكنني أن أبقى متسكّعًا هكذا إلى الأبد». كانت الشمس قد خفتَ حدّتُها، ومالت خلف الجبال في الغرب. لا بدّ من أنّ السّاعة قد تجاوزت الخامسة.

بدأت الحركة في السُوق تخفّ تدريجيًا. سيعود الآن الجميعُ إلى بيوتهم، وسيمرّون في طريق عودتهم بالمتاجر. يشترون خضارًا ولحومًا من أجل تحضير وجبة ما بعد العمل. يمضغون طعامهم على مهل وهم يتابعون التلفاز. «لا مزيد من الأخبار، أرجوك»، تقول إحدى الزوجات، وهي جالسة على الأريكة بفستان أصفر فُتِحَ حتّى منتصفه، وتألّقت ركبتاها العاجيتان. «لنتابغ برنامجًا مَرِحًا. مناظر الموت والقتل شوّهتنا». «لكن هذا ما تريدهُ «اليد البيضاء» في الكون»، يقول الزوج، ويضيف: أن يصبح القتل والموت وجبة يوميّة نجتزها صامتين؛ أن تصبح بسيطة وسهلة، كشربة ماء».

ما زال جابر يراقب الشوارع. أُضيئت الأنوار الصفراء؛ الأنوارُ الصفراء عينُها التي رآها في الحلم. بدأت بعض المتاجر تغلق أبوابها. يتابع المشهد، كأنّه يراهُ في شاشة عرض كبيرة. لكنّ الممثّلين هنا يؤدّون أدوارهم مرّة واحدة، فلا كلاكيت، ولا إعادة لمشهد.

قرَّرت اللَّجنة الفرعيَّة، قسمُ السكن الجامعي في الإدارة الجامعيَّة العليا، تعليقَ عضويَّة المدعوّ جابر، وعليه يترتَّب:

أوَّلًا: حرمانُهُ المنحةَ الجامعيَّة الشهريَّة المخصَّصة لأبناء المناطق النائيَة. «تلك المنحة لا تكفي ثمن خبز لأيّام»، يفكّر جابر.

ثانيًا: حرمانُه حقَّه في السّكن الجامعيّ لستَّة أشهر، يُدرَس بعدها طلبُ إعادته، إن هو تقدَّم به. تدرك اللَّجنة الفرعيَّة أنَّ المدعوّ سيتخرَّج من الجامعة بعد ثلاثة أشهر فقط، موعد الامتحان الكبير في سنته الأخيرة. لكنَّها ملتزمة باللَّوائح والقوانين التي لا يمكن، في أيّ حال من الأحوال، تجاوزُها. «هذه كارثة»، يفكّر جابر. عليه أن يعمل أكثر ليدفع إيجار شقَّة صغيرة، أو غرفة يستأجرها. إنَّها كارثة حقًّا.

يتلو الرجل ذو البذلة السّوداء تقريرَه، يختلس بين الفينة والفينة النَّظر إلى جابر من خلف نظارته. وجابر صامت. لا مؤشّر على أنَّه سيتفوَّه بأيّ حرف.

ثالثًا، تُدوَّن هذه العقوبةُ المسلكيَّة في ملفّه في الجامعة، وتؤخذ في الاعتبار عند إقرار أيّ شيء بحقّه.

رابعًا، اتُّخذت اللُّجنة الفرعيَّة بحقّ المدعوّ تلك العقوبةَ، بناءً على تقارير موثوقة وردتها، تشير إلى تأخُّره وتغيُّبه المستمرَّين عن نشاطات الجامعة بشكل عامّ، وعن اجتماعات الطُّلّاب وندواتهم، العلميَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة، بشكل خاصّ.

يريد جابر أن يقول إنَّه يتغيَّب لأنَّه يعمل في عطل نهاية الأسبوع، وفي الأماسي كلَّها، لكنَّهُ يبقى صامتًا.

خامسًا، يُطبَّق القرار في يومه وساعته.

لكنَّ الزَّمن هنا يعود إلى الوراء. «هذا حدث في حياتي السّابقة»، يقول جابر. يلتفتُ الرجل العجوز نحوهُ ويقول: إنَّ خطيئة الزَّمن، يا جابر، هي الخدعةُ الأكبر التي عرفتها البشريَّة. عرفتها حين سجنت نفسها في سجن العقل، وبات تَوالد البشريَّة بعدها نسخًا متطابقةً تزداد تشوُّهًا.

«هل تودّ قول أيّ شيء، أيُّها المدعو جابر»، يقول ذو البذلة

السَّوداء. ينظر جابر إلى تسريحة شعر الرجل المدهون بمثبّت الشَّعر، ينتبهُ إلى أنَّ خصلة منه قد خرجت عن النَّسق. ماذا لو قال جابر: نعم، أريد أن أقول شيئًا. أريد أن أقول: إنَّ جزءًا من شعرك اللَّامع المدهون قد خرَّبتهُ هذه الجلسة. فربَّما كان مثبّت الشَّعر الذي تستخدمهُ منتهي الصلاحيَّة؛ أو ربَّما كان من النَّوع الرَّخيص. عندها سينظر الرجل ذو البذلة السَّوداء إليه مذهولًا، ويقول: «لا بدَّ من أنَّك فقدت عقلك، يا هذا». ويهرول هو وصحبه خارج القاعة هربًا من مجنون، ربَّما يؤذيهم.

جابر صامت، لا يتفوَّه بكلمة. أزعج صمتُه الحجريُّ رئيسَ الجلسة، وجعلهُ يشعر بالضِّيق. يتمنَّى ذو البذلة السَّوداء أن يصرخ في وجهه: «انطق، أيُّها الوغد الصَّغير. مَن تعتقد نفسك لتلتزم الصمت في اجتماع لجنة فرعيَّة»؟ لكنَّ القوانين تمنع شتم الأعضاء؛ القوانين عينها، التي يمكنها أن تقضي عليهم ببساطة.

أزاح رئيس الجلسة كرسيَّه وغادر مع الأعضاء الأربعة. بقي جابر وحيدًا في القاعة، ينظرُ إلى الجدران وقد زُيِّنت بمقاطع من شرعة حقوق الإنسان، وبصور لمناظر طبيعيَّة، التُقطت في معالم مختلفة من الوطن. تظهر المدينة في أنوار المساء الأولى من النافذة الجانبيَّة، كحسناء غسلها المطر قبل أن تنام.

حين غادر غرفة الاجتماع، ذهب مباشرة ليقابل الرئيسة الأعلى للجامعة، لعلَّها لم تغادر مكتبها بعد.

ـ مساء الخير، سيِّدي السكرتير.

ـ مساء الخير، أيُّها الطالب.

ـ هل يمكنني مقابلة السيِّدة الرئيسة الأعلى للجامعة.

ـ ألديك موعد معها.

ـ لا، لكن الأمر ضروريّ ومستعجل.

ـ حسنًا، سأسألها إن كانت تستطيع مقابلتك الآن، أو ربَّما يتوجَّب عليك أن تحصل على موعد لاحق معها.

دخل السكرتير، وبقي خمس دقائق في الداخل. يفكِّر جابر كيف سيتكلَّم معها؟ لعلَّه يقنعها بتغيير القرار؛ القرار الكارثيّ، وخصوصًا شقَّه المتعلِّقَ بطرده من السكن الجامعيّ. لا همَّ إن أوقفوا المنحة الماليَّة؛ تلك التي لا تكفي خبزًا لبضعة أيَّام.

كان قد سمع الكثير من القصص عن المسؤولة، وعن جمالها وفتنتها وسطوتها وقسوتها.

مسَّد جابر شعرهُ بشكل لاإرادي، وحاول أن يرتِّب هندامهُ في صورته المنعكسة من زجاج النافذة القريبة. لا ندري كيف أنَّ حضور الأنثى في المشهد يعطيه بُعدًا فروسيًا وبطوليًا، حتى وإن كنَّا على حافَّة الانهيار، وعلى شفير الكارثة.

«يمكنك رؤيتُها لعشر دقائق فقط»، قال له السكرتير وهو خارج من غرفة مكتبها، وأضاف: «ستغادر بعد قليل».

دخل الغرفة بعد أن نبَّهه السكرتير وذكَّره مرَّة أخرى: «عشر دقائق فقط». كان مكتبها إلى الجهة اليمنى، غير مواجه للباب، ما يُعطيها أفضليَّة رؤية زائرها قبل أن يراها. وحين التفت جابر نحو المكتب الجالسة خلفه، كانت المرأة تمسك بسماعة الهاتف، تحادث أحدهم في الجهة الأخرى. سمعها تقول:

ـ ما اسم الطالب. حسنًا، لا تهتمّ. سنسوِّي الأمر كما ترغبون. لا، لا داعي، أنا سأتكلَّم مع الأستاذ المسؤول. لا تشغلوا بالكم أبدًا. اعتبروا القضيَّة منتهيةً من اللَّحظة يا سيِّدي، وعذرًا إن كان هناك أيُّ خطأ من إدارة الجامعة. شكرًا لسعة صدركم، يا سيِّدي. مع السَّلامة.

تركت السَّماعة وقسماتُها تدلّ على الغضب. كانت عيناها تتَّقدان نارًا للحظات، ثمَّ عادت تتصرَّف بطبيعيَّة. ربَّما أجبرت نفسها على ذلك بحضور هذا الطالب أمامها.

كان حضور المرأة طاغيًا في الفراغ المحيط بجابر. كلّ ما في الغرفة ينتمي إليها: السجادُ ومقاعد الجلد، تلك التي بلون القهوة. حتَّى الجدرانُ كانت ثملةً بحضورها الأنثويّ الكثيف. لم تتجاوز، في أبعد تقدير، بدايات الثلاثين من عمرها. تنظر إلى عينَي جابر. تنتظره أن يبدأ كلامهُ. وجابر مأخوذ بجمالها الصارخ وأنوثتها الجامحة. أحسَّت المرأة بالضِّيق من صمته وعينيه اللَّتين تتفحَّصانها. «ماذا تريد، أيُّها الطالب»، تقول بغضب، وقد أزعجها هذا الصمت الكثيف. تلعثم جابر بداية، ثمَّ قال:

لقد فصلتني اللَّجنة الفرعيَّة من عضويَّتها. ستوقف المنحة الشهريَّة المخصَّصة لأبناء المناطق النائيَة. تلك مشكلة، لكنَّها ليست الأعظم، يمكنني تدبُّر أمري من عملي. الكارثة الأعظم أنَّه سيتمّ طردي

من السَّكن الجامعيّ شبه المجانيّ؛ أيّ عليّ أن أستأجر شقَّة صغيرة، وفي أحسن الأحوال، غرفةً صغيرة. وهذا يعني أنَّه يتوجَّب عليّ العمل بدوام شبه كامل، لأتمكّن من دفع الإيجار، وبالتالي يصبح الجمعُ بين العمل والدراسة شبهَ مستحيل.

يريد جابر أن يتابع حديثه؛ أن يقول لها إنَّ سبب الطرد هو التأخيرُ والغياب أحيانًا عن نشاطات الطلبة. يريد أن يشرح لها أنَّ تأخيره وغيابه ليسا متعمَّدين، بل بسبب أنَّه يعمل كلّ أيّام عطلة الأسبوع وبعض الأماسي. أراد القول لها إنَّ الطُّلَّاب الآخرين لا يتأخَّرون لأنَّ لا حاجة لهم إلى العمل، فهناك من يُعيلهم، أمَّا هو فلا. كان يريد أن يقول أموراً كثيرة، لكنَّ المرأة نطقت جملتها ببرود، وحياديَّة:

ـ قرارات اللَّجنة الفرعيَّة نهائيَّة، وغيرُ قابلة للنقاش.

ثمَّ تابعت حديثها، وهي تنظر إلى عينَي جابر مباشرة:

ـ انتهى اللقاء.

وقرعت جرسًا، لا بدَّ من أنَّه لاستدعاء سائقها، أو ربَّما مرافقها، أو ربَّما أيّ شخص لم تصطفِه الطبيعة ولم تمنحه بركتها، فعاش تابعًا.

«إنَّ عدم لحاقك بالكلب الأسود كان خيارَك أنتَ؛ خيارك الذي غيَّر حياتك. لكن، لنفترض أنَّ الرئيسة الأعلى للجامعة قبلت، في هذه اللَّحظة، تظلّمَك. هنا تكمنُ المفارقة السَّوداء. لو أنَّها قالت: نعم، سألغي قرار الطرد، لاختلفت حياتك إلى الأبد». يسألهُ جابر: ماذا كان سيحدث؟ «سترى فيما بعد»، يقول الرجل العجوز.

ينظرُ جابر إلى المرأة للحظات قبل أن يستدير صامتًا، ليغادر. ماذا لو أنَّه قامر بكلّ شيء، وقال لها: إنَّ قسوتك وجبروتك أمران لا يتناسبان أبدًا مع صدرك الصارخ أنوثةً وحنانًا، ومع يديك البيضاوين تتمدَّدان تحت قماش الفستان المشمشيّ كفرعَي شجرة مثمرة. ولا يتناسبان مع شعرك الأسود ينساب كشلال أسود فوق منحوتة بازلت. ماذا لو قال لها إنَّها أجمل كأميرة في لوحة زيتيَّة من كونها رئيسةَ جامعة. ماذا لو قال لها إنَّه هو الآخر إنسان، يتألَّم، ويرى، ويجوع.

لكنَّه غادر الغرفة صامتًا. كان السَّائق يتأهَّب للدُّخول، حتَّى إنَّه كان سيصطدم به عند الباب، فأخلىجابر الطَّريق لهُ، وابتعد ناحية الباب الرَّئيس، ومضى.

أغلقت معظم المتاجر أبوابها. لم يبقَ في السُوق سوى الباعة الجوَّالين. ما زال جابر جالسًا على المقعد نفسه في الحديقة. لا رغبة لديه في الذهاب إلى أيّ مكان، أو رؤيةِ أيّ شخص.

ربَّما ينام هنا ليلتَهُ. سيختبئ في مكان ما، وينام. هي ليست المرَّة الأولى التي يفترش فيها الأرض، ويلتحف السَّماء. لقد نام ليالي كثيرة في العراء، بعد أن طُردَ من السَّكن الجامعيّ.

«نحن هنا لننفِّذ أمر اللَّجنة الفرعيَّة بطردِ المدعوّ جابر من السَّكن الجامعيّ المخصَّص للطُلَّاب»، يقول أحد الرِّجال الثلاثة، الَّذين دخلوا الغرفة كعاصفة، بينما يقف جابر في زاويتها قرب النافذة التي تطلّ على منطقة البساتين. يقف عاريًا أعزلَ في مواجهة القوَّة والسُلطة.

ـ لكنْ، أين سأذهب في هذا اللَّيل البهيم؟ أين سأنام؟

ـ هذا ليس شأننا. نحن هنا لننفِّذ قرارًا فحسب.

ـ أمهلوني حتَّى الصَّباح، وسأخرج. في الصَّباح يمكنني أن أجد مأوًى.

ـ بل الآن. اجمعْ أغراضك على عَجَل، وإلَّا قذفناكَ بعيدًا، بما عليك من ملابس.

«أرجوك، لا أريد أن أرى هذا مرَّةً أخرى». «هي الحياة يا جابر، لا يمكن حذف أيّ جزء منها. لا يمكنك، في منتصف الطَّريق، التوقُّفُ والاستدارة، لتعودَ وتختارَ حياة أخرى. هذه هي القوانين التي اخترعتها البشريَّةُ فالتفَّت حول عنقها، قتلتها»، يقول الرجل الكبير.

لن ينسى جابر كيف اقتادوه كمجرم خطير. أوصلوه إلى جهة الباب الرَّئيس، وأغلقوه: «اسمع يا هذا. إن شُوهِدت هنا، أو في أيّ مكان قريب من هنا، فستتطوَّر العقوبة. ستصبح تهمتك مدنيَّة. هل هذا مفهوم؟» جابر صامت. ينظرُ من خلال القضبان الصدئة للباب الحديديّ الكبير في اتِّجاه مبنى السَّكن الجامعيّ العملاق. تنحدر دمعة باردة لتسقط فوق آجرة مكسورة.

ـ هيا اذهب من هنا حالًا، وإلَّا اعتقلناك بتهمة عصيان قرار اللَّجنة.

مشى جابر في الجهة اليسرى للسَّكن الجامعيّ، جهة البساتين.

نام ليلتهُ في العراء وحيدًا تحت شجرة.

ها هو، مرَّةً أخرى، سينام ليلته في العراء وحيدًا؛ هذه المرَّة في الحديقة العامَّة في السُّوق الكبيرة، بعد أن خلت من المارة، وانتشرت الأنوار الصَّفراء في الشوارع. ذهب الجميع إلى دفء منازلهم، وبقي هنا: جزءًا لامتناهيَ الصِّغَر، لا يُضيف شيئًا بوجوده. ولا يُنقصُ شيئًا إن هو غاب.

حين استيقظ في الصَّباح، كانت السُّوق ما زالت نائمة، وحده بائع الشاي كان يمزّ بعربته. لو أنَّه يحصل على كأس شاي ساخن، مع كعكة. لكنَّهُ طرد الفكرة بسرعة. عليه أن يعود إلى شقَّته الصَّغيرة في أطراف المدينة.

لم ينتظر ليرى إن كانت الحافلة مكتظَّة، بل صعد مباشرة. وقف في آخرها. المرأة الجالسة في المقعد أمامه، تضع نظارة طبِّيَّة. يفكِّر جابر في أنَّها تشبه الطبيبةَ المختصَّة؛ تلك السَّمراءَ التي عالجتهُ ذات مرَّة، في المشفى العامّ. يتذكَّر ما حدث يومها:

ـ ممَّ تشكو؟

ـ صداع في النصف الأيمن من رأسي، يأتي قاسيًا كسيل في الرَّبيع.

ـ هل يتكرَّر كثيرًا؟

ـ لا، فقط عندما أكون في قاعة امتحان.

ـ سأكتب لك بعض المسكّنات. في عينيك حزنٌ دفين.

لا يدري جابر بما يجيب.

ـ سأحوِّلك إلى طبيب نفسانيّ، لعلَّ المشكلة في روحك.

«المشكلة هي روحي»، يودّ أن يُجيبها، لكنَّهُ يصمت. وحين انحنت على طاولتها، لتكتب الوصفة الطبِّيَّة، بان جزءٌ من صدرها الأسمر خلف المريلة البيضاء. لون بشرتها يشبه لون المصارعين الرُّومان في ملصقات كتب الفنّ. تُمسك القلم بين أصابعها، فيثور الحبر ويغلي. ينطلق في صخب، ليرسم الكلمات. يسمع جابر صوتَهُ يتدفَّق من نهاية القلم الحرَّة.

ـ هذه الوصفة يجب أن تتقيَّد بمواعيدها.

وتنظر إليه بعينيها الشهلاوين، وتبتسم. قبل أن يغادر، يرى في إصبع يدها اليسرى خاتمًا ذهبيًا. ينظرُ إلى الخزائن الحديديَّة رماديَّة اللَّون، ويقول:

ـ شكرًا لك.

ـ لا تنسَ أن تراجع المختصَ النَّفساني.

ـ حسنًا، مع السَّلامة.

ـ مع السَّلامة.

لعلَّ المرأة الجالسة هنا في الحافلة هي عينُها طبيبةُ المشفى. ربَّما استيقظت باكرًا هذا الصَّباح في دفء شقَّتها، عندما كان هو ينام في عراء الحديقة الخريفي. حضَّرت القهوة، وجلست إلى الطاولة الصَّغيرة في المطبخ، تنظر من المساحة المفتوحة بين المطبخ وغرفة الجلوس. تنادي زوجها ليشاركها في قهوتها. سيأتي الزَّوج بمنامة رماديَّة اللَّون، وهو يتثاءب.

لا. يغيِّر جابر رأيه. لن يأتي زوجها. سيصرخ من غرفة النوم: دعيني وشأني يا امرأة. اشربي قهوتك بهدوء، واتركيني في سلام. بئس الحياة معكِ. لا أدري أيَّ مُصيبة قذفتني إليكِ.

لكن، لماذا يغيِّر جابر رأيهُ. في المرَّة الأولى كان الزَّوج مثاليًا، يستجيب لنداء زوجته، بل ربَّما يبتسم حين يراها تعدّ قهوة الصَّباح. ثمَّ يجعله جابر نزقًا، سيِّئَ الخُلق. هو هكذا، يغمغم جابر بلغته. زوجها وغد صغير، يعاقر الخمر والميسر. يعود إلى بيته في الفجر مخمورًا، ليقلب المكان إلى جحيم، بصراخه ورائحة فمه التي لا تُطاق. «ألن تكفَّ عن هذا يا رجل»، تقول طبيبة المشفى، وهي تبكي. «لا تتفوَّهي بكلمة يا عاهرة، وعودي إلى نومك كالمومياء». وربَّما في ليال كثيرة، يضربها؛ يصرخ في وجهها؛ يشتمها. نعم، هذا صحيح، يفكِّر جابر: زوجكِ أيَّتها الطبيبة وغد، سافل، وحقير. هذا ما تستحقين.

نحن نعلم بالسَّبب الذي دفع جابرًا إلى أن يجعل زوج الطبيبة وغدًا، وحقيرًا. نعرفه حين نغوصُ قليلًا تحت السطح؛ حين نغوص في أوحال النَّفس البشريَّة. جابر أيضًا يعرفه، لكنَّه يكذب على نفسه مدَّعيًا الجهل. لتستمرّ الحياة. فقط لتستمرّ الحياة.

لو أنَّه جعل حياة الطبيبة مثاليَّة، وسعيدة، لأحسَّ بالهوَّة العميقة

التي تفصله عن الآخر. لأحسَّ بخساراته، وانكساراته، في مواجهة نجاحات الآخر. بكلمة أخرى، لأحسَّ بقانون الاصطفاء الطبيعيّ الظالم، حيًا في أحزانه.

يدافعُ جابر عن نفسه. شيء في لاوعيه يدفعه ليجعل حياة الطبيبة جحيمًا مُطلقًا. حتَّى وإن كانت الحقيقة مختلفة تمامًا، فهذا ليس مهمًّا. المهمّ هو ما نفكّر فيه، ونقنِعُ أنفسنا بهِ؛ نتبنَّاه كدِين أو عقيدة. وللمفارقة، يصبحُ الخيال حقيقة، ووجودًا. يصبحُ واقعًا كليًّا. تمامًا كما الأحلام، تُخلَقُ الأحداث والمشاعر والأشخاص فجأة، وتغدو في أحلامنا حياة. تطفو من العقل الباطن بقوانين ما زلنا ـ للأسف ـ نجهلها، وتعبثُ بنا، كما يعبثُ طفل برمل الشاطئ.

جعل حياتها جحيمًا، ليجلب بعض التوازن إلى تركيبته النَّفسيَّة، وليُلغي الفارق الهائل بين حياتيهما، حياة جابر الحزين، وحياة الطبيبة المتزوجة السَّعيدة، والتي وهبتها الحياة كلَّ شيء. ببساطة، ليستطيع متابعة عبث الحياة، بعد أن تتساوى ـ وهميًّا ـ مع الآخر.

ينظرُ جابر إلى المرأة، ويبدأ يحسّ بالشَّفقة تجاهها؛ تجاه حياتها التي لا تُطاق. يتماهى مع المشهد، ويشعر بالحزن: مسكينة أيَّتها الطبيبة، لا تستحقين كلّ هذا العذاب. مسكينٌ يا أنتِ، لا تستحقّ كلّ هذا العذاب.

لن يدري أبدًا أنَّ المرأة في مقعد الحافلة ليست طبيبة المشفى، وليست طبيبة البتَّة، بل إنَّها تعمل في محلّ بقالة كبير. تقف خلف الصندوق ساعاتٍ طويلةً، لتجني أجرًا قليلًا. وتعودُ في المساء إلى بيتها الصَّغير. هي وأمها وإخوتها الصِّغار يعيشون من جَنْي تعبها؛ من خلال عملها، بعد أن رحل الأب مبكرًا.

لو لم ينتبه في اللَّحظة الأخيرة، لسحبتهُ الحافلة بعيدًا. نزل عند التفاف الشَّارع من الخلف وسار في اتِّجاه شقَّته الصَّغيرة، على سطح أحد الأبنية القديمة. مرّ بهِ شحاذ الحيّ؛ ذاك الذي يجر خلفهُ كيسًا هائلًا من سَقط المتاع، ومن أشياء يجمعها من كلّ مكان. إن فتحت الكيس فستجد كلّ شيء، ولن تجد شيئًا صالحًا للاستعمال. يعلّق في صدره ما يشبه السَّاعات القديمة؛ تلك التي لها غطاءٌ دائريّ. يقول أبناء الحيّ إنَّه يحتفظُ بصورة ابنته فيها، ابنتهُ الوحيدة التي هربت ليلة العيد واختفت إلى الأبد. قال أحدهم إنَّه رآها في مدينة بعيدة برفقة رجل، لكنْ، لا شيء مؤكّدًا. الشَّيء المؤكّد أنَّ أباها بحث عنها لسنوات، حتَّى

فَقَدَ أيّ أمل في العثور عليها حيَّةً، أو ميْتة. يقول سكّان الحيّ المسنّون إنَّه بقي متوازنًا حتَّى اللَّحظة الأخيرة، ثمَّ فَقَدَ عقلهُ فجأة، دفعةً واحدة. نام ليلتهُ كمليارات البشر، وفي الصَّباح فَقَدَ عقله. رآه سكّان الحيّ ذاك الصَّباح يمشي متَّجهًا إلى خارج الحيّ، يجرُّ خلفهُ ما يشبه الكيسَ الكبير، يلتقطُ كلّ ما تراه عيناهُ مرميًا على الطُّرقات. فيه خليطٌ عجيبٌ من الأشياء الغريبة، عديمة الفائدة.

عندما سألهُ أحد جيرانه ممازحًا: «هل أنت بخير، أراك تجمعُ القمامة، فهل بدأت تعمل لمصلحة البلديَّة؟». التزم الرجل الصَّمت، ولم يفتح فاهُ بعدها. بقي أمينًا على صمتهِ، وربما سيبقى كذلك حتَّى يموت.

لعلَّ ذاك الشحَّاذ يراني. ربَّما أعطتهُ مأساتُهُ شفافيَّة، يرى بها المعدومين. ربَّما. «صباح الخير يا عمّ». يمرّ جابر قربه. يحذو الشحَّاذُ حذوَ الجميع، ويتجاهلُه، أو ربَّما لا يراه.

دخل جابر البناء وبدأ يصعد الدَّرج. رأى عند دخوله سيَّارة مالك البناء مركونةً إلى جانب الرَّصيف. إنَّه هنا، ذاك الرجل الجشع، ذو البطن الكبير. كان جابر دائمًا يتجنَّبهُ. كان صاحب البناء ينشر حولهُ شيئًا من عدم الراحة؛ شيئًا من اللَّامنطق في تتابع الأحداث والكلمات، والرَّوابط بينها. تمامًا كمن يسمع قهقهة عالية، أو يشاهد رقصًا خلاعيًا في جنازة. حين يلتقيه في بداية كلّ شهر، لدفع الأجرة، كان جابر يتذرَّع بأيّ شيء ليغادر مسرعًا. ولم يختلف سكّان البناء عنه كثيرًا، في تجنُّبهم الرجلَ الضَّخم.

سمع صوتًا نسائيًا يغنّي قبل أن يصل إلى الطابق الثالث. يعرف هذا الصَّوت جيّدًا؛ صاحبته تلك الجارة في الطَّابق الثالث؛ المرأةُ التي سمع عنها قصصًا كثيرة. يعمل زوجها سائقًا في شركة كبيرة، ويبقى أيَّامًا كثيرة خارج المنزل. يسافر إلى مدن بعيدة، ويعبر الحدود كثيرًا. ويقول سكّان الحيّ إنَّ البقّال يحلّ محلّ زوجها عند سفر الأخير. لم يصدِّق جابر حرفًا. المرأة كانت لطيفة جدًا، ومؤدَّبة.

تمسح المرأة أرضيَّة البلاط أمام منزلها، وقد سدَّت قمَّةَ الدَّرج بجسدها البضّ. حين رأى جابر المشهد تجمَّد في مكانه. تنحني المرأة بكامل جذعها إلى الأمام لتنظف، وقد أدارت ظهرها للدرج. الفستان القطنيّ المبتلّ التصق بجسدها وجعلها أكثر شهوانيَّة. يرى جابر منبت ساقيها عاريًا، بل يرى ثيابها الداخليَّة. يبتعد بنظره خَجِلًا، ثمَّ يعود ينظر إلى الجسد الرَّطب أمامه. تستدير المرأة جزئيًا فيظهر صدرها

الأبيض كاملًا. جابر لا يستطيع المرور الآن، وقد سدَّت بجسدها كاملَ الفسحة الأفقيَّة للدَّرج. يحاول أن يُصدر صوتًا، لعلَّها تسمع، فتعتدل في وقفتها. لا تسمع المرأة غمغمتَه، وتتابع عملها وهي تغنِّي. ينظر إلى جسدها من جديد، ولا يقوى على فكّ التصاق عينيه بصدرها، وبعجيزتها البيضاء.

«ما هذا السرّ في جسد المرأة؟» يفكِّر جابر. ما سرّ الهَوَس البشريّ بتلك الدَّوائر والانحناءات؟ لا يمكن أن يكون المصدر إيروتيكيًا جنسيًا بحتًا. يقول البعض إنَّ هوس الرِّجال عمومًا بجسد المرأة، سببُه غريزةُ البقاء، وحفظُ النَّسل البشريّ من الانقراض. هذا ليس دقيقًا، أو لنقل ليس السَّبب كاملًا. لعلَّ الجنس وغريزة البقاء سببان صغيران، لكنَّهما ليسا الجوهر. الهَوَس فكريّ أكثر من كونه جسديًا. لعلّ ذلك مردُّهُ إلى الإحساس البطريركيّ الذكوريّ بالذَّنب، بعد الانقلاب على العصر الأموميّ؛ أو ربَّما كانت الآلهة في أزمنة قديمة جدًا، إناثًا بأجساد كاملة، جميلة لا عيب فيها. هذا الهَوَس الآن، ربَّما كان تعبُّدًا فيما مضى؛ شيئًا يشبه الصلاة، أو تقديم البخور في المعابد؛ أو ربَّما هو الحنين البشريّ إلى لحظة البدء؛ إلى لحظة الولادة؛ إلى دفء الأمنيوس الأوَّل. حنين إلى الأنثى، الأرض. حنين إلى الحياة، مصدرها.

«هنا ارتكبتُ خطأً بشعًا»، يقول الرجل الكبير، «سببه التصاقُ عينيك بجسد المرأة، وتلك خطيئة». «لكن، كيف لي ألا أنظر. كيف يمكن جمعُ متضادات ثلاثة في فعل إنسانيّ واحد: المتعة والبقاء والإحساس بالذَّنب؟ كيف تُخلَقُ المتعةُ وتُحرَّم؟» «هذه قوانين أنت من اخترعتها يا جابر، أنت من تحاسب نفسك الآن. أنا الصوتُ فقط».

عندما استقامت المرأة بعد انتهائها من التنظيف، التصق الفستان المبتلّ بكامل جسدها. «لو أنَّها عارية تمامًا، لما كانت جميلة هكذا»، يفكِّر جابر، وعيناه تمسحان جسدها الرَّطب. يراقب خطواتها تبتعد قليلًا حتَّى تصل إلى أمام باب شقَّتها، فتدخل وتغلق الباب. يمزّ جابر أمام الباب، والمرأة ما زالت تغنِّي. وحين وصل إلى شقَّته، كان الباب لا يزال مفتوحًا.

يذكر جابرٌ أنَّه أغلق باب شقَّته بالمفتاح صباح الأمس، حين غادر إلى الجامعة. وقف أمام الباب لدقائق، وبدأ يسمع صوتًا قادمًا من الداخل. شعر بالخوف. لعلَّهُ لصٌّ قد كسر الباب ودخل. ماذا سيسرق اللِّصُّ، يفكِّر جابر مبتسمًا. لعلَّهُ سيسرق بعضًا من شقائي وبؤسي. ينتبهُ إلى أنَّهما صوتان، وليس صوتًا واحدًا. شيء يشبه حوارًا هامسًا بين شخصين.

حين دخل شقَّتهُ بهدوء خائفًا، تعرَّف إلى صوت صاحب البناء مباشرة. يقف الرجلان قرب الكنبة الوحيدة. يتحادثان بصوت منخفض. يبدو الرجل الآخر أنَّه يوافق على ما يُقال لهُ، فيهزُّ رأسهُ تباعًا. منظر الرجلين كان مثيرًا للضحك. لو أنَّ جابرًا كان في وضع آخر، لضحكَ بصوت عالٍ. صاحب البناء قصير القامة، ويلبس قميصًا أزرق، وقد شُدَّت أزرارَه بفعل ثقل بطنه الكبير. حتَّى إنَّ المرء يتساءل: كيف لهاتين القدمين أن تحملا بطنًا بهذا الحجم. والرجل الآخر طويل، نحيل وقد التصق بطنُهُ بعموده الفقريّ، يرتدي قميصًا أصفرَ مشجرًا. الرجلان، في منظرهما المتناقض، يرسمان لوحة من لوحات المتضادات في الحياة.

ما زال النقاش ساخنًا بينهما. «ماذا يريد صاحب البناء من الرجل الطويل»، يفكِّر جابر. يحرِّك يديه بشكل مستمرّ كأنَّه يقنعُه بشيء ما. فجأة، يمدّ الرجل الطويل يده إلى جيب قميصه، ويُخرِج مالًا يعطيه لصاحب البناء.

يسير الرجلان نحو الباب. أخيرًا سيخرجان، يفكِّر جابر. سأنعم بالرَّاحة الآن. يقفان قرب الباب ويصبح حديثهما مسموعًا:

- إن احتجتَ إلى أيّ شيء فلا تتردَّد في الاتِّصال بي.

- حسنًا، سأفعل.

- لا تنسَ اتِّفاقنا، الأجرة بداية كلّ شهر لنبقى متحابَّين.

- لا تقلق، بداية الشهر القادم ستصلك الأجرة.

يغادر صاحب البناء ويبقى الطويل في الداخل. يعود ويجلس على الكنبة، ويمدُّ ساقيه. جابر صامت، وقد بدأ يفهم ما فعله صاحب البناء.

دخل الرجل الطَّويل غرفة النوم وأغلق الباب خلفه، بقي لدقائق ثمَّ خرج، وقد ارتدى منامة جابر الزرقاء؛ تلك التي اشتراها قبل أقلّ من أسبوعين، ولبسها مرَّة واحدة ربَّما، أو مرَّتين. يقف جابر في الزَّاوية البعيدة المظلمة، قرب الباب، ويرى الآخر يأخذ مكانه. يحتلّ شقَّتهُ الصَّغيرة، ويرتدي منامتهُ. يحسّ بأنَّه خارج هذا المشهد، غريبٌ عنهُ. يحسّ بأنَّه رأى شيئًا شبيهًا في أحلامه. لم يُحسن التصرُّف في الحلم، والآن أمام الحقيقة يغدو عاجزًا. الرجل الطَّويل مسترخٍ على كرسيّ جابر، وقد بدأ يتابع التلفاز. يفكّر جابر في أن يخبرهُ بأنه قد نسي في جيب منامتهِ قطعةً من الكراميلا الطرِيَّة، ويرجوه أن يعيدها إليهِ. يبتسم جابر حين يرى أنَّ ساقَي الرجل الطَّويل قد انكشفتا من الأسفل لقصر البنطلون. يبدو في المنامة كممثِّل هزليّ مُضحك.

يتململ الطويل في جلستِهِ، وقد بدا أنَّه لم يعد يستمتع بمشاهدة التلفاز. جعلهُ برنامج الظهيرة الممِلُّ يُطفئ التلفاز ويتجوَّل في أنحاء الشَّقَّة الصَّغيرة. وصل إلى أمام المكتبة الصغيرة، التي اشتراها جابر من سوق الأدوات المستعمَلة. يقلّب الآن في كتب جابر الجامعيَّة وفي بعض الكتب التي اشتراها من باعة الأرصفة.

يسحب كرّاسًا بنيَّ اللَّون من نسق المكتبة. يتوقَّف قلب جابر للحظات، وقد عرف الدفتر. سيعبث الطويل الآن بحياة جابر كلّها. سيعبث بأحاسيسه القديمة. سيعبثُ بأشياء كان جابر يُخفيها لسنوات.

يفتح الطويل الكرّاس ويبدأ يقرأ ما يشبه الشعر. هذا دفتر جابر الذي يكتب فيه أحاسيسه؛ يكتب فيه عن الحياة حين لا يلمسها؛ عن الشمس وهي غائبة في نهاراتِهِ. يكتب فيه عن أحلامهِ.

يقرأ الطويل ويضحك. يهتزّ كيانه كلُّه على وقع الضحك. يقرأ:

«وحين تخوض في النهر يبتلّ الزعتر البريّ،

وتذوب عطور المايا».

يعود يقلّب الصَّفحات، ويقرأ:

«يغفو النهر قليلًا خلف الطَّريق القديم.

يغفو، فتتسع الرؤيا.

في الكون عينٌ ثالثة».

يصرخ الطَّويل: «ما هذا الهراء». ويدخل في نوبة ضحك

جديدة، ثمَّ يبدأ بتمزيق الصَّفحات، ويمسح بها طاولة الطعام المتَّسخة. يقول: هذه الأوراق مفيدة هنا، وفي الحمام.

ينكمش جابرٌ على نفسه في الزاوية المظلمة. يحسّ بأنَّ ظلَّهُ على الجدار القريب قد بدأ يتلاشى. يضحك قليلًا، ثمَّ يبدأ بالبكاء.

يعودُ الطَّويل يلتقط الكتاب بعد أن مزَّق عددًا من صفحاتِه. يفتحهُ ويقرأ من جديد:

«زجاجٌ شفيف،

يفصلني عن نهاية الكون.

يُقال: إنَّ زرقاء اليمامة،

مزَّت من هنا.

تبحثُ عن عينيها، في أنقاضِ المدينة

تبحثُ في زجاج عينيها،

عن مَراثٍ للرَّجل الأخير.

◆

الفجر يعرّي ظهر المدينة،

يخلقُ المرتفع للظلّ، ظلًا طويلًا.

فينساب شعرها،

صَدِئًا في المدار السَّابع للبحر.

صَدِئًا ينسابُ عن لافتة تقول:

المدينة شرقًا».

«ما هذا الهراء؟» يصرخُ الرجل الطَّويل كأنَّه يخاطب أحدهم. يضحك بصوت مجلجل مرَّةً أخرى، ويمسك معدته الضامرة من شدَّة الضحك. «صدئًا في المدار السَّابع للبحر». ما هذا التخريف. يمزق الدفتر كاملًا وينثرهُ قصاصاتٍ صغيرةً في كلّ جزء من المكان.

ما زال جابرٌ ملتصقًا بالجدار. يحسّ بأنَّه الآن قد اختفى حقًّا. تلاشى مع كلّ مملكته البائسة. لم يعد لهُ وجود في أيّ مكان. لم يعد ضروريًا لأيّ شيء فوق سطح الكوكب.

يجلسُ صامتًا قرب الرجل الكبير، ينساب الدَّمع من عينيهِ بهدوء.

خرج جابر من شقَّته، أو لِنَقُلْ ممَّا كانت يومًا شقَّتهُ. وقف قليلًا عند حافَّة السَّطح يُطِلّ على المدينة، التي تعجُّ عند الظهيرة بالحركة. بعض الثياب المغسولة معلَّقٌ على حبال الغسيل. ذاك الفستان القطنيّ هو فستانُ الجارة الساكنة في الطَّابق الثالث. لا بدَ من أنَّها غسلتهُ بعد أن نظَّفت الدَّرَج. اقترب جابر من الفستان فاشتمَّ رائحة مسحوق الغسيل الرَّخيص. مدَّ يدهُ ولامسه عند الحافَّة العلويَّة للصدر. يفكّر: كيف فارقتهُ الحياة هنا، بعد أن كان حيًّا فوق جسدها. التفتَ وعاد يهبط الدَّرج، ثمَّ غادر البناء.

عند زاوية الشارع، عاد ليرى ذاك المتسوِّلَ. شحَّاذُ الحيّ كان قد أخرج أغراضَهُ من الكيس، وبدأ فيما يبدو يُحصيها. كان يقسّمها على حافَّة الرَّصيف إلى قسمين. ينظرُ جابرٌ، ويحاول أن يفهم قانون القسمة، وما هو الرَّابط بين الأشياء في كلّ قسم، ولا ينجح. لا يوجد أيّ رابط بينها، عدا أنَّها تصلحُ لأن تُرمى في أقرب حاوية قمامة. الشَّحَّاذ مستغرق في عمليَّة الفصل، ينظرُ إلى الشَّيء مُطوَّلًا قبل أن يحدِّد الجهة التي يجب أن يذهب إليها، ثمَّ يضعهُ، في رفق، كأنَّه يتعامل مع قطعة من الكريستال النادر. وقف يتأمَّل الشَّحَّاذ قليلًا، ثمَّ تابع سيره إلى جهة زاوية الشَّارع.

وفي طريقه عائدًا نحو مركز المدينة، مرَّ بالمخبز الآليّ، الذي عمل فيه أشهرًا ثلاثة.

وجد نفسهُ فجأة بلا مأوى بعد أن طردوه من السَّكن الجامعيّ. نام ليلته الأولى تحت شجرة في بستان قريب.

وحين صحا، عادت ذكرى الأمس ثقيلة. اقتادوه كمجرم ورموهُ خارج السَّكن. لا بدَّ من أن يجد عملًا بسرعة، ليس في الأماسي كما اعتاد قبلًا. عليه أن يعمل بدوام كامل ليستطيع دفع أجرة غرفة صغيرة. ثلاثة أشهر فقط تفصلهُ عن إنهاء جامعتهِ. لو أنَّهم أمهلوهُ ثلاثة أشهر فقط، وليذهبْ بعدها السَّكنُ الجامعيّ إلى الجحيم، لكنَّهُ الآن بلا مأوى، لا سكن جامعيًا، ولا غيره.

ذهب إلى مركز المدينة يبحث عن عمل. العمل الأنسب، يفكّر، سيكون في اللَّيل، في منتصفِ اللَّيل وربَّما حتَّى الصَّباح. وفي الصَّباح يذهب إلى جامعتهِ. يمكنهُ النوم قليلًا بين السَّادسة والعاشرة مساءً.

لم يجد عملًا في مركز المدينة، فذهب إلى جهة الأطراف. تقترب السَّاعة من الخامسة بعد الظهر، وهو هائم على وجهه.

رائحة خبز طازج تملأ الفراغ حوله. كم هو جائع الآن. تنبعث الرَّائحة من مكان قريب. لا بدَّ من أنَّ مخبزًا يوجد قريبًا في الجوار. سأشتري رغيفًا من الخبز السَّاخن.

حين كان صغيرًا في البلدة، كان يشتري رغيفًا يأكلهُ مع زجاجة من المياه الغازيَّة، تلك التي بطعم البرتقال. يخرج مع اثنين من رفاقه حين ينتهي الدوام في المدرسة الإعداديَّة. يجلسون على الرَّصيف المقابل للمخبز، ويأكلون. كان للخبز طعمٌ مختلف.

مرَّ بالمخبز الآليّ، فوقف ينتظر دوره ليشتري.

ـ رغيف خبز، من فضلك.

ـ رغيف واحد فقط؟

ـ نعم، أريد أن آكلهُ الآن.

«لقد انتظرتَ أكثر من عشرين دقيقة من أجل رغيف واحد»، يقول الرجل مستغربًا.

جلس على الرَّصيف يأكل رغيفهُ. لو أنَّ بائعًا جوَّالًا يمرّ الآن، بائع مياه غازيَّة، لكان لرغيف الخبز السَّاخن طعمٌ شبيه بطعام الجنَّة. ماذا

يأكل البشر حين يصعدون إلى الجنّة؟ إن صدّقنا أدبيّات الأديان، فإمّا يأكلون عسلًا ولبنًا، وإمّا لا شيء. لا شيء، لأنّ الأجساد النورانيّة كاملة بذاتها، لا تحتاج إلى طعام. ربّما هي الحقيقة هنا، لا يحتاج الأموات إلى طعام في فنائهم النهائيّ.

«مطلوب عمّال». يقرأ جابر اللّافتة المعلّقة على باب المخبز. ربّما أجد عملًا هنا. ربّما أعمل في ورديّة اللّيل، فالمخابز تبدأ عملها ليلًا، ليكون الخبز جاهزًا في الصّباح.

«عذرًا يا سيّدي، هل لديكم عملٌ»، يسألُ الرجلَ، الذي باعه الرّغيف، وينظر إلى جهة اللّافتة.

ـ وهل تريد العمل هنا؟

ـ نعم، هل يوجد دوام ليليّ؟

ـ لستُ المسؤولَ هنا، ادخل وقابل المدير.

بدأ العمل من اللّيلة الأولى. تبدأ ورديّته عند منتصف اللّيل، وتنتهي عند الثامنة.

كان سعيدًا في البداية. ستمرّ الأشهر الثلاثة بسرعة، حتّى وإن كانت أشغالًا شاقّة. سيتغيّب عن بعض الدروس في الجامعة، وينام قليلًا. وعندما يُنهي جامعتهُ ويتخرّج، سيعود إلى البلدة.

يقف خلف السّير النقّال الذي يحمل الخبز السّاخن من فرن النّار لمسافة عشرة أمتار، ليعود ملتفًا إلى الفرن من جديد. عليه أن يلتقط الخبز مباشرة فور وصوله إلى متناول يديه. كلّ سبعة أرغفة يضعها فوق بعضها البعض، ليناولها لرجل إلى يمينه. لا يمكنهُ أن يسهو لحظة. خطأ كهذا سيجعل الخبز يتطاير ويسقط على الأرض. مراقب العمل في الصالة كان بعين لا تنام.

يتطلّب عمله الوقوف ثماني ساعات متواصلة، تقطعها ربع ساعة استراحة فقط يتوقّف فيها كلُّ شيء: السّيرُ النقّال وفرنُ النار وآلةُ العجين. يأكل العمّال فيها شيئًا أو يدخّنون. كان الجميع ينتظر الثانية صباحًا. موعد الاستراحة الفقيرة.

كان جابر، في البداية، يعدّ الأرغفة. سبعة، ثمّ يناولها لرجل آخر. ينظر إلى جهة الأرغفة السّاخنة ليلتقطها. ينتظرها، وعليه أن ينتظرها. لا يمكنهُ أن يذهب بعيدًا؛ أن يجنح بخياله بعيدًا. «أيّتها الأرغفة

العزيزة، هل لك أن تتوقَّفي قليلًا، فقط لأبادل موضع قدمَيَّ اللَّتين أصابهما الخدر». ربَّما عندها ستبتسم الأرغفة: «اعملْ يا هذا، أنت هنا جزء من آلة عملاقة؛ آلة تبدأ حين يولد الإنسان، وتنتهي بموته»؛ أو أن يخاطبها، في تذلُّل، لعلَّها تُشفق عليه: «أيَّتها الأرغفة المباركة، انتظمي في تجمُّعات من سبعة، واقفزي إلى جهة الرجل الثاني مباشرة لأستريح قليلًا». لا يمكنهُ أن يخاطبها هكذا. حتَّى وإن خاطبها، فهي لن تستجيب. فكِّر في هذا لأنَّه سمع عن كهنة مصر القديمة أخبارًا غريبة. كان كهنة معبد «أمون» يفتحون الأبواب بأصواتهم المجرَّدة. يقفون أمام أبواب المعبد ويقولون شيئًا، فتُفتَحُ من تلقاء نفسها. ربَّما تلك الفكرة أوحت بالجملة الشهيرة «افتح يا سمسم» على لسان زعيم اللصوص الأربعين، في حكاية علي بابا.

لم يعد جابر، مع الوقت، يحتاج إلى عدّ الأرغفة. لم يعد يحتاج إلى أن ينظر إليها، أو ينتظرها. بدأ يتصرَّف آليًا، كجزء من آلة ضخمة. عيناهُ لا تتحرَّكان. تلتقطُ يداه الخبز وتناولاته للرَّجل الآخر.

تمتدّ اليدان سبعَ مرَّات، وفي الثامنة تنقلان الأرغفةَ يمينًا. جابر الآن جزء من آلة. لا يحتاجُ إلى أن يفكِّر في أيِّ شيء، أو يقدِّر أيَّ شيء. يحتاج فقط إلى الانتظام في حركة متتابعة آلية.

يذهب إلى جامعته بعد الثامنة، وغالبًا ما يعود إلى تلك الشقَّة الصَّغيرة نحو السادسة. وأحيانًا كان ينام في الحافلة في طريقه إلى الجامعة، وإيابه منها.

لم ينتبه بداية للتَّغيير. اعتقد أنَّها الصُّدَف، ثمَّ بدأ يفهم بتكرارها. أصدقاؤه في الجامعة يتحاشون الاقتراب منهُ. وكلَّما وقف معهم بدأوا تباعًا يختلقون أعذارًا، وينسحبون ليبقى وحيدًا.

لم يفهم جابر سرَّ تصرُّفهم الغريب. هو لم يُتَّهم بجريمة حتَّى ينفضَّ القوم عنهُ. وإن سلَّمنا بأنَّ الجميع الآن قد عرف حكاية طرده من السَّكن الجامعي، وأسبابها، فتلك ليست جريمة، ولا فعلًا شائنًا.

جرَّب الأمر مع كثير من أصدقائه ليتأكَّد. لا أحد يريد الحديث معهُ، أو حتَّى الوقوف قربه. عاملوهُ كمجرم، أو كمصابٍ بمرض مُعْدٍ وخطير.

يريدُ جابرُ أن يصرخ بالرجل الكبير: أنت ظالمٌ وقاسي القلب، لماذا لا توقف هذا؟ لماذا لا تمنع الألم؟ لكنَّهُ يبقى صامتًا.

ما زالت صورة المتسوّل الفقير ساكنة في خياله. ابتعد كثيرًا عن الحيّ في أطراف المدينة، وليست لديه أدنى فكرة عن الجهة التي يقصدها.

قرّر العودة إلى مركز المدينة. شيء ما يدفعهُ إلى العودة إلى هناك. ركب الحافلة، التي كانت مكتظّة في تلك السّاعة، فذهب ووقف في المؤخّرة.

بدأ يعيد خطواته في الحُلم، وفي الحقيقة، ليلتين متتاليتين.

مرّ قرب المانيكانات البلاستيكيّة. ما زالت على حالها، وستبقى هكذا إلى الأبد، ما لم يحرّكها شيء خارج عن إرادتها. مسكينة هي، يفكّر. لا تمتلك حتى خيار الحركة. فسّر البعض: الحياة في الحركة، والموت في السكون.

دخل الحديقة عينها؛ تلك التي أمضى فيها ليلة الأمس. ذهب وجلس فوق العشب في عمق الحديقة. الكثير من البشر جاؤوا يقضون فترة ما بعد العمل هنا، وأتى أيضًا عدد كبير من طلبة المدارس.

تمدّد على العشب قليلًا. يمكنهُ أن يتمدّد أينما شاء، ولا يشعر بأيّ خجل. لا أحد يراه. خلع حذاءهُ وجوربيه.

يحسّ برغبة عظيمة في التبوّل. الحمامات بعيدة جدًا من هنا، وأحشاؤه تتقطّع. لا أحد يراني. سأتبوّل هنا. فوقف يتبوّل علنًا على الشجرة القريبة من عشرات الأشخاص.

لو أنّ جابرًا ما زال مرئيًا، لو أنّه ما زال يشغل حيّزًا صغيرًا في هذا الوجود، الذي نسمّيه الحياة، وتسمّيه بعض الفِرَق المتصوّفة غيبوبةَ الحياة، لأحسّ بالخجل من مجرّد انتباه الآخرين لرغبته في الذهاب إلى دورات المياه، لا في التبوّل علنًا أمام مرأى العشرات.

لو أنّ أحدهم صرخ فيه، وهو يتبوّل: ماذا تفعل، يا هذا؟ أتتبوّل هكذا كالبهائم على مرأى الجميع؟ لأحسّ بالخجل، بل بالخزي. لتمنّى أن تسحبه الأرض خارج دورتها الأزليّة وتقذف به بعيدًا خارج المجرّة.

لنفكّر في الأمر أبعد من هذا: لو أنّ أحدهم رآه وهو يصبّ على الشجرة، من وعاء ضخم، سائلًا أصفر شديد الحمضيّة. لنفترض أنّه

يصبّ وعاء من البول على الشجرة، فسيصرخ الرجل في وجهه: ماذا تفعل، يا هذا؟ أتصبّ بولًا على الشجرة. سيشعر ببعض الإحراج. لكن يقينًا لن يشعر بأيّ خجل أو خزي.

الخجل ليس خجلنا من عُرينا. ليس الخجل من فعل العري عينه، بل من امتلاكنا وجوهًا وأجسادًا فُرِضَت علينا دون إرادتنا. من حملنا صفات بشريَّة لا يد لنا فيها. صفات لا نستطيع تغييرها. بكلمة أوضح، خجلنا من عدم كمالنا، من عدم مساواتنا للكامل.

دخل رجلان الحديقة. كانا يرتديان بدلتين سوداوين. وقفا على بعد أمتار قليلة من جابر، وبدآ يمارسان بعض التمارين الرِّياضيَّة.

كان يتبوَّل عندما وقفا على مسافة قريبة منه. مجرَّد اقترابهما منه دفعه إلى الشعور بالخجل. أوقف حاجتَهُ الطبيعيَّة قسرًا، وارتدى جوربيه وحذاءه. لقد أجبره اقتراب الرجلين، حتَّى وإن كان متأكّدًا من أنَّه غيرُ مرئيّ الآن، على الشعور بالخجل.

يحسّ الآن بأنَّ الرجل القصير ذا البذلة الرِّياضيَّة السَّوداء، ينظرُ في اتِّجاهه. لا، هذا مستحيل. لا يمكنهُ أن يراني. لا بدَّ من أنَّه ينظر إلى شيء خلفي، أو ربَّما قفز خياله خارج المكان. نعم، في اللَّحظة التي كان ينظر فيها خلفي، ذهب خيالهُ إلى مكان آخر، فبقيت صورتهُ على هيئة اللَّحظة الأخيرة، قبل أن تغادر روحُهُ الحرَّةُ المكانَ.

يحدث هذا للجميع. نكون في التفاتة عندما يغادر خيالنا المشهد، فتبقى صورتنا الآنية كمن ينظر ببلاهة إلى جهة شيء ما: امرأة أو نهر، أو ربَّما ملصق إعلاني عن فوائد التأمين على الحياة.

ـ اتبعنا.

لم يستوعب جابر حقيقة ما حدث بداية، فبقي كالأبله للحظات، ينظرُ إلى عينَي الرجل القصير، ولا يدري ما يفعل.

الرجل القصير كان قد اقترب منهُ. انحنى على أذنه من دون سابق إنذار، هامسًا: اتبعنا.

- اتبعنا.

ينظرُ الرجل القصير إلى عينَي جابر. يحدّق فيهما، ويقول هامسًا: اتبعنا.

لا يدري الآن ماذا يفعل، وقد عاد الرجل القصير يقترب من زميله. تهامسا بأمر ما، ثمّ التفتا وشقّا طريقهما للخروج من الحديقة. التفت القصير مرّة أخيرة ينظرُ إلى جهة جابر، وتلتقي نظراتهما.

يمكنه أن يتّجه ناحية الباب الاخر للحديقة ويطلق ساقيه للريح. يستطيع أن يهرب، لكنْ، ممَّ سيهرب؟ ولأيّ سبب؟

بقي مشتّتًا بين الخيارات الثلاثة: يمكنه أن يتبع الرجلين؛ أو أن يطلق ساقيه للريح ويهرب؛ أو أن يبقى مكانه، كأنّ شيئًا لم يحدث.

وقف ونظر إلى جهة الرجلين اللذين كانا يقتربان من البوابة. قرّر أن يهرب، نعم سيهرب. لقد أصبح حرًّا ولامنتميًا بعدما فقد وجوده. إن يتبع الرجلين، فهو، حينها، بشكل أو باخر، سينتمي من جديد إلى شيء ما.

في تلك اللّحظة التي كان يتأهّب فيها ليلتفت ويركض إلى جهة الباب الخلفي هاربًا، نظر إليه الرجل القصير نظرة ثالثة. تبع جابرُ الرجلين.

يمشي خلفهما في شوارع المدينة. فكّر في أن يسألهما: أين يأخذانه؟ كلّما قرّر أن يطرح سؤالًا على الرجل القصير، يلتفت الآخر إليه مبتسمًا، ويُجهض المحاولة. كانت الكلمات تتساقط ميتةً من فم جابر، كفاكهة نخرها الدود فوق أرض سوداء.

وصلوا إلى أطراف المدينة، من جهة الشمال. يتوقّف الرجلان أمام مطعم شعبي ويشتريان شطيرة لحم لكلّ منهما. تركاه بلا طعام. ربّما نسياه في غمرة حديثهما الهامس الذي لا ينتهي. بحث جابر في جيوبه لعلّه يجد قطعة نقديّة منسية، يشتري بها شيئًا يأكلهُ، لكنّ جيوبه فارغة. يعدّل وضعيّة وقوفه لعلّ أحد الرجلين ينتبه إلى أن لا شطيرة لحم في يديه، وأنّهما نسياه، لكنّهما يلتهمان طعامهما ولا ينتبهان لهُ. أكل الرجل الطويل نصف شطيرته، وتوقّف عن المضغ. لو أنّه يتركها على الطاولة لأخذها جابر وأكلها. مع هذا الجوعِ القاتل في معدتهِ، لن

يشعر بأيّ حرج في التقاط بقية الشطيرة. بدأ الرجل الطويل يضحك مقهقهًا. لا بد من أنَّ القصير قد قال فكاهة ما. ضحك كثيرًا، وعندما انتبه إلى أنَّ بقية الشطيرة ما زالت في يده رماها في سلَّة المهملات.

لو أنَّه أعطاهُ إيَّاها. يفكّر جابر في أن يأخذها من سلَّة المهملات. نعم، سيأخذها. ملايين البشر تنقّب في أكوام القمامة كلَّ يوم، لتبحث عن شيء يُؤكَل. اقترب منها، وانحنى ليلتقط بقايا الشطيرة. لكنَّ قطة شاردة كانت أسرع منه، التقطتها وهربت.

تابع الرجلان طريقهما خارجَين من المدينة، يجرّ جابر خلفهما قدميه جرًّا. لم يأكل شيئًا منذ الأمس. لماذا يتبعهما. يفكّر في السبب الذي يدفعهُ ليمشي خلفهما. ماذا لو هرب الآن. لا داعي حتَّى للهرب. لن ينتبه الرجلان له في همسهما الأبديّ وحركاتهما الهزليَّة، وضحكهما وصخبهما.

جلس على الأرض، بينما تابع الرجلان طريقهما. أصبحت المسافة بينهم تُعَدُّ بعشرات الأمتار، ولا دليل على أنَّ الرجلين انتبها لغيابه. وعندما اتَّسعت المسافة أكثر، هرولَ جابر إليهما. كان يركض ليلحق بهما. لا أحد يدري لمَ تبعهما مرَّة أخرى، ربَّما بسبب التبعيَّة أو الانتماء، أو أمور لا نعرفها.

حين أصبح خلفهما، التفت الرجل القصير إليه: سنصل قريبًا. يخاطبهُ للمرَّة الأولى، وبقي الطويل صامتًا.

تغيَّرت معالم الأرض خارج المدينة. بدأت الخُضرة تسيطر على المشهد. بساتين وأشجار مبعثرة هنا وهناك. هو متأكّد الآن من أنَّ طريق السَّيَّارات بعيدة، لا صوت يصدر عن أيّ شيء. حتَّى البيوت المتناثرة بدت صامتة هنا، مع أنَّ السَّاعة لم تتجاوز الثالثة ظهرًا.

يبدو أنَّ الرجلين في طريقهما ليتخاصما. ازدادت حدَّة النقاش بينهما، حتَّى أنَّ جابرًا بدأ يلتقط بعض الكلمات. حاول أن يجمع بينها ليفهم شيئًا، لكنَّه فشل. الكلمات لا رابط بينها. يسمع مفردات من قبيل: البوابة؛ لن نعود مرَّة أخرى اليوم؛ لقد تعبت من هذا.

وقف الرجلان الآن وجهًا لوجه. ووقف جابر هو الآخر ينتظر ما سيحدث. «لن أعود الليلة»، يقول الرجل القصير فيما يشبه الصراخ. ويغمغم الرجل الطويل مجيبًا وقد انتبه إلى أنَّ جابر يسمع. الرجل القصير انتبه بدوره، ثمَّ صمت.

تابعا مسيرهما كأنَّ شيئًا عظيمًا أفسد ضحكاتهما. لم يتهامسا من الآن فصاعدًا، بل التزما الصَّمت. كان الصَّمت ثقيلًا على جابر. وضحكات الرجلين وهزلهما تعطيه بعض الإحساس بالحياة. عاد الآن الصَّمت. صمتٌ يشبهُ الهدوء الذي يأتي زائفًا عشيةَ كارثة.

تنحدر الأرض بشدة. الرجلان المتمرّسان في منحدرات كهذه ـ على ما يبدو ـ لم يواجها أيّ صعوبة. يتعثَّر جابر بالحصى تحت قدميه، ويواجه خطر السُقوط في تتبُعهما. يتعثَّر ثمَّ يتوازن في اللَّحظة الأخيرة. لو أنَّ أحدهما ينظر من علياء، لرأى رجلين يجرَّان رجلًا بخيط غير مرئيّ. يجرَّانه ولا يستطيع فكاكًا. خَيارهُ الآن أن يستدير ويصرخ بهما: اذهبا إلى الجحيم. هذا ما قد نراهُ ونعتقده، لكنَّ الحقيقة في مكان آخر. كم مرَّة سمعنا شيئًا كهذا: اتبعنا. فيلبّي القطيعُ الدَّعوةَ، ولا يدري لماذا، أو إلى أين، أو الهدف والجدوى من التبعية.

ما زلنا ـ بلا شك ـ نجهل كيف تبع الملايين قوَّادًا عسكريّين، وأنبياء، وقطَّاعَ طرق، وفنَّانين، ورياضيّين. تبعوهم وتركوا أناهم تذوب لتشكّل أنا الآخر؛ الآخر الذي يقود القطيع.

«تماسَك، سنصل قريبًا»، يقول الرجل القصير، ملتفتًا إلى جابر، وموجّهًا كلامه إليه. يحاول جاهدًا ألا يسقط. إنَّ السُقوط هنا يعني الدحرجة العشوائيَّة حتَّى نهاية المنحدر. المنحدر الذي يبدو بغير نهاية.

تابع طريقه خلفهما وقد اعتاد على الطريق قليلًا. كان يقوّس جسده إلى الخلف، خالقًا حالةً من التوازن كراقص باليه. يشعر جابر بأنَّ هذا المكان لم يكن موجودًا قبل اقترابهما منه، وأنَّه قد خُلِق نتيجة وجود الثلاثة الآن: هو مع الرجلين.

عندما انبسطت الطريق في نهاية المنحدر، ظهرت بوابة عملاقة.

لا تتَّصل البوَّابة السَّوداء بأيّ سُور. غُرزَت على الأرض كنُصب أو صليب، ترتفع أكثر من أربعة أمتار، وتمتدّ أكثر من عشرة. ما فائدة البوَّابة إن لم تتَّصل بسور، يفكّر جابر. ما فائدتها إن كان يمكن اجتيازها وهي مغلقة.

أخرج الرجل القصير مفتاحًا، وبدأ يعالج القفل الهائل الحجم. ما هذا الغباء، يفكّر. لا حاجة إلى أن يفتحها، يكفيه الالتفاف حولها، ومتابعة الطريق. وحين همّ جابر يخبر الرجل القصير بما يفكّر فيه، فُتِحت البوَّابة.

يبتسم جابر لغباء الرجلين. سألتفّ حولها حتَّى إن اجتازاها، ما هذا الهُراء. حقًّا إنَّهما مهرّجان.

يدفع الرجلان البوَّابة حتى تُفتَح بشكل كامل. يخطو الرجل القصير يتبعه الطويل. وحين يقرّر جابر الالتفاف حولها، يلتفت الرجل القصير نحوه مبتسمًا، ويجد جابر نفسه يجتازها هو الآخر. وكأنَّ سورًا قد ظهر حولها. حين اجتاز البوَّابة لم يكن من سور حولها، بل أحسَّ به إحساسًا.

ترك الرجلان البوَّابة مفتوحة ووقفا جانبًا. جابر، الذي كان يتبعُ خطاهما مهما فعلا، وقف هو الآخر. يبتسمُ له الرجل القصير ويشير إليه بالمُضي قُدُمًا. يحتار جابر ويبقى واقفًا في مكانه. إلى أين يتقدَّم؟ يفكّر.

أعاد الرجل القصير ابتسامتهُ القصيرة. فهم جابرٌ أنَّ عليه متابعةَ السير وحده. استدار الرجلان وخرجا من البوَّابة. يسمع جابر صوت القفل ينغلق في الخارج.

هوَ الآن داخل البوابة المغلقة. البوَّابة التي لا تتَّصل بأيّ سور. البوَّابة التي يمكن اجتيازُها والعودة من حيث جاء.

يحسُّ جابرٌ بأنَّه دخل مكانًا يصعبُ الخروج منه. لم ينظر جيّدًا ليرى ماذا يوجد في الداخل. كان مشغولًا بالرجلين اللذين رحلا للتوّ.

كان يوم عمله الأوَّل في المخبز ثقيلًا.

أرسلهُ المدير ليقابل مراقب العمال الذي سيشرح لهُ طبيعة وظيفته. «مساء الخير، سيِّدي مراقب العمال، أرسلني المدير حتَّى تشرح لي طبيعة عملي». كان الرجل السمِّيني جالسًا خلف طاولة صغيرة في منتصف المخبز، وحوله الأجهزة والآلات جميعها. كأس من الشاي، ومنفضة سجائر تحتلان جزءًا من الطاولة، ويحتلّ الجزءَ الآخر يداه كثيفتا الشعر، ونصفُ رغيف. لم يلتفت الرجل إلى جابر، بل تابع التهام نصف الرغيف، ورشف كأس الشاي.

بقي واقفًا ينتظر مراقب العمال لينتهي من وجبته. «ماذا قلت»، ينتبه المراقب أخيرًا إلى أنَّ أحدًا يخاطبه، وينظرُ إلى جابر. أعاد جملته وهو ينظر إلى الأرضيَّة الإسمنتيَّة؛ تلك التي استحال لونها أسودَ في غير مكان. «حسنًا»، يقول المراقب، وينادي رجلًا: «يا مالك، تعال إلى هنا».

جاء رجل في عقده الرَّابع. كان نحيلًا جدًّا، ويرتدي قميصًا بنيًّا، مع حزن دفين لا يفارق وجهه. «اسمع يا مالك، هذا الرجل هنا عامل جديد، خذه خلف السَّير النقَّال».

«تعالَ معي»، يقول مالك. وبدأ يشرح له كيفية التقاط الخبز السَّاخن عن السَّير النقَّال. وحين انتهى من الشرح، وضع يده على كتف جابر، وقال «إن احتجت إلى شيء فأنا عامل العجانة هناك في الجهة اليسرى، تعالَ واسألني». «شكرًا لك»، قال جابر.

في استراحة اليوم الأوَّل، جاء مالك قربه. أشعل سيجارة وأعطى واحدة لجابر. سأله: «كيف وجدت العمل؟» يريد جابر أن يقول له إنَّ قدميه أصابهما الخدر، وإنَّه يفضِّل المبيت في العراء على عمل كهذا. عمل سيؤمِّن له سقفًا ينام تحته، بعد أن طردته لجنة السَّكن الجامعيّ. «لا بأس به»، قال جابر.

أخبرهُ مالك، في الدَّقائق العشر الأخيرة، بأنَّه هو الآخر مجبَرٌ على العمل هنا، بعد أن أدارت له الحياة ظهرَها. فسأله جابر:

ـ أتعمل هنا منذ زمن طويل؟

ـ منذ شهرين فقط.

وعند نهاية ليلة العمل، سارا معًا حتّى مرأب الحافلات. مالك، الحزين، صاحب القلب الطيّب، كم كان عونًا له. أحيانًا، يكون للبعض حضورٌ أقوى من الموت.

أدار ظهره للبوَّابة، فبدأت تتَّضح تضاريس المكان. تمتدُّ أمامه مساحةٌ خالية جرداء؛ شيءٌ يشبه الصحراء، مع كثير من الحصى وأكياس البلاستيك الممزَّقة.

وقف، وبدأ ينظر إلى البعيد، لعلَّهُ يرى شيئًا، ثمَّ يستدير إلى جهة البوَّابة المغلقة. يمكنه الالتفافُ حولها والعودة. المنطق وقوانين الفيزياء التي نعرفها تؤكِّد ذلك. لا يحتاج الأمر إلى جهد. استدارة حول البوَّابة من إحدى الجهتين وسينتهي الأمر، لكنَّ جابرًا لا يقوى على الخروج.

مشى في اتِّجاه الأرض الجرداء. تنحدر الأرض من جديد، لمسافة متوسِّطة، ثمَّ تنبسط، ثمَّ لا شيء. خلاء يمتدّ حتَّى اللَّانهاية. ينقسم الخلاء قسمين: أخضرَ شجريًّا وأحمرَ ناريًّا، ويفصل بينهما خيط يطفو في الفراغ، يمتدّ من بداية الأرض المنبسطة حتَّى البعد غير المنظور؛ حتَّى اللَّانهاية.

ما هذا؟ إنِّي أحلم، هذا هو التَّفسير الأقرب إلى العقل. ما هذا الجحيم حولي. سأعود من حيث أتيت.

استدار وبدأ يتسلَّق المنحدر. كان يستخدم يديه أيضًا في الصعود، كطفل يحبو. وحين وصل إلى جهة البوَّابة المغلقة، ابتسم: «هؤلاء الأغبياء! سألتفّ حولها وأعود إلى المدينة».

لا يصدِّق جابر ما يراه. التصقت البوَّابة بسور عملاق، ربَّما يرتفع أربعة أمتار. ظهر السُّور من العدم وأغلق المساحة المرئيَّة. وربَّما خُلقَ السُّور في عقل جابر.

«ما معنى هذا؟ إلى أين اقتادني هذان الرجلان؟» يضحك الرجل الكبير، ويقول: إلى الدَّائرة الأبديَّة، الدَّائرة التي ستنتهي إليها مهما فعلت.

يبقى الرجل الكبير صامتًا للحظات، ثمَّ يقول: لقد انتهيتَ هنا.

جابرٌ صامت، وقد أظلمت الشاشة وانتشر لحن جنائزيّ يأتي من العمق. يحاول أن يحدِّد جاهدًا مصدر الصَّوت ولا ينجح. الضوء السَّاقط على الرجل الكبير هو النور الوحيد في الصالة، والصَّوتُ الجنائزيّ ما زال يصدح في المكان.

يتلمَّس جابر جسده ليتأكَّد إن كان حيًا أو ميتًا. ما زال جسده يحمل بعض دفء الحياة. تأتي أصواتُ نادباتٍ ثلاث يتناوبن على إنشاد قصَّة حياتهِ. تشرح الأولى طفولته في البلدة البعيدة. وتكمل الثانية نواحها متحدثةً عن شبابهِ في المدينة القاسية، لتُنهي الثالثة النشيد بموتهِ وحيدًا غريبًا في المدينة.

يحلّ الصَّمت من جديد. يخرج رجلان من خلف السّتارة العملاقة، ويتقدَّمان مباشرة في اتِّجاه جابر. وحين يصلان إلى مسافة قريبة منه يتوقَّفان. ينظران إلى الرجل الكبير وينتظران. «اذهبا الآن. لم تحن السَّاعة بعد». يُطيع الرجلان أمر الرجل الكبير ويعودان إلى خلف السّتارة.

«اسمع يا جابر، سأمنحك فرصة لترى».

ـ أرى ماذا؟

سأفترضُ أنَّك لم تصل إلى نهايتك تلك»، يقول الرجل الكبير، ويتابع:

ـ لو أنَّ حدثًا صغيرًا تغيَّر في حياتك لاختلفت النهاية.

ـ لستُ أفهمك تمامًا، حدث صغير مثل ماذا؟

ـ لنفترض أنَّ الهاتف التي تلقتهُ الرئيسة الأعلى للجامعة قبل دخولك إليها كان يحمل لها نبأً سارًا، وليس هاتفًا أزعجها كما رأيت، من وزير يوبّخها ربَّما، أو من رئيسها المباشر ينتقد شيئًا ما فعلته.

لنفترض أنَّ المتحدّث كان طبيبًا وأخبرها بأنَّها ليست مصابة بالسرطان بعد أن تأكَّدت نتيجةُ التحاليل في المشفى، وهي سليمة معافاة، أو تأكَّدت من أنَّها حامل بطفلها بعد عشرة أعوام على زواجها.

في المرَّة الأولى رفضتَ أنت، بإرادتك الحرَّة، أن تتبع الكلب. الآن، سترى كيف تغيّر صدفةٌ، لا علاقة لك بها، من قريب أو من بعيد ـ وهي خارج إرادتك الحرَّة ـ حياتَك كلَّها.

تُضاء الخشبة من جديد بعد أن تُفتَح السّتارة. ويبدأ المكان والزَّمن والأشخاص يُخلَقون من الفراغ.

حياة ثانية

الرحمةُ! الرحمةُ! لا العدالةُ! فالإنسان بائس جدًا لا يحتمل العدالة.

نيكوس كازنتزاكيس

نامت الرئيسة الأعلى للجامعة ليلةً مؤرّقة. قبل أيّام، قالوا لها في المشفى التخصُّصيّ، إنّ نتيجة التحاليل التي أجرتها ستظهر في الغد، ويمكنها معرفة إصابتها بالسرطان من عدمها. «هل أتّصل بكم لمعرفة النتيجة». «لا عليك سيّدتي، سأتّصل بك شخصيًا حين تردني النتيجةُ، كوني مطمئنة»، يقول الطبيب، رئيس المشفى التخصُّصيّ.

كانت قد بدأت تشك في وجود ورم غريب في أسفل خاصرتها قبل أسبوعين. في البداية، لم تول الموضوع اهتمامًا كبيرًا، لكنّها حين صارحت زوجها، قال لها: في الغد، ستذهبين إلى المشفى. ينظرُ إليها كأنّه يخشى أن يرى ظلًا للحقيقة في عينيها، فالعينان مرآة الروح.

عادت من عملها لا تفكّر إلّا في الغد؛ الغد الذي سيحمل إليها الحقيقة: المرضَ أو العافية. لم تداعب طفلها ذا السنوات الخمس كثيرًا. كانت تتحاشى الكلام وتهرب في صمتها إلى السكينة. انتبه الزوج وقام إلى جانبها: «لا تخافي، ستكونين بخير». تنظر إلى عينيه والدّمع يسيل ببطء. تبكي من دون أن تتحرّك أيُّ عضلة في وجهها الجميل. هذا النوع من البكاء هو أنقى ما عرفته البشريّةُ من إحساس وعاطفة.

انتظرت أن يتّصل بها الطبيب في اليوم التّالي طوال النهار، ولم يتّصل. كانت قد بدأت تفقد الأمل، وتصبح شبه متأكّدة من أنّها مصابة بالمرض. ما سرّ عدم اتّصاله حتّى اللّحظة. كان قد وعدها بالاتّصال حين ترده نتائج التحاليل. لا بدّ من أنّ النتائج جاءت تؤكّد إصابتها، فأصابه الحَرَج من إخبارها عن طريق الهاتف، وهو صديق قديم. وربّما لم تصل نتيجة التحليل حتّى اللّحظة. هذا ممكن. إنّ عطلًا قد يصيب أحد الأجهزة، يمكنه تأخير النتيجة يومًا كاملًا.

حين دخل السكرتير عليها يخبرها بأنّ طالبًا يريد مقابلتها لأمر طارئ، كانت أفكارها تتلاطم كزوبعة رمليّة في أرض خلاء. كانت مشتّتة الأفكار، فقالت للسكرتير شيئًا. هي نفسها لم تدرِ ما قالت، ولم تجد في نفسها الرّغبة في التوضيح. فهم السكرتير أنّها توافق على مقابلته لوقت قصير فقط، وراح ينظرُ إليها لعلّها تضيف شيئًا آخر، لكنّه كان يراها غارقة في عالم آخر.

رنّ جرس الهاتف. تنظر المرأة إلى الجهاز وتتمنّى ألّا ترفع

السمّاعة، وتتمنّى أيضًا أن ترفعها لتعرف النتيجة. حياتها كلُّها الآن مرتبطة بسمّاعة الهاتف؛ مرتبطة بلحظات تفصل بين رفعها وإعادتها إلى مكانها. كان الهاتف قد رنَّ أربع مرّات حين استجمعت شجاعتها ورفعت السَّماعة. تحسّ بأنَّ حبالها الصوتيَّة قد أصابها الجفاف. تحاول أن تقول أيّ شيء، فتحسّ بعجز ورغبة في إغلاق السَّماعة. لا تريد أن تسمع المتحدّث على الجهة الأخرى يقول: للأسف سيّدتي الجميلة، أنت مصابة بالسرطان. أمامك ستَّة أشهر كأبعد تقدير لتموتي.

ستغلق السَّماعة. نعم لقد قرّرت هذا. في تلك اللَّحظة، دخل جابر الغرفة والتفت ليراها والسَّماعة في يدها.

سبّب لها دخوله إحراجًا أكبر، وأجبرها على أن تتكلّم مع الشخص على الطرف الآخر. «إن أنا أغلقت السَّماعة فسيشك الطالب في أنّي أعطيه اهتمامًا أكثر من اللَّازم، وسأفقد بعضًا من قوّتي في أعين الطلبة»، تفكّر الرئيسة الأعلى للجامعة.

«ألو، نعم، هذه أنا. نعم، لقد عرفتك حضرة الطبيب. ماذا تقول، التحاليل كلُّها سلبيَّة، لا وجود لأيّ ورم خبيث. مجرَّد كتلة دهنيَّة، شكرًا للآلهة، شكرًا لك أيُّها الطبيب. نعم، سأمرّ بالمشفى غدًا صباحًا بالتأكيد. نعم، حسنًا، سنناقش ذلك في الغد، شكرًا لك من أعماق قلبي، أيُّها الصديق القديم».

لا تدري المرأة كيف تُخفي ابتسامتها التي زادت في سحرها وأنوثتها. تلتفت إلى جهة جابر وتبتسم له بودّ حقيقيّ. «ماذا لديك أيُّها الطالب؟» تسأله والفرح يتراقص في عينيها. لن تموت، وستبقى مع زوجها الذي تحبّه، وابنها الصَّغير الذي ما زال في أمسّ الحاجة إلى رعايتها. تشرد في عالمها الجديد الذي خلقه الطبيب، عن معرفة ما يريده جابر وقصته للحظات.

تعود الرئيسة الأعلى للجامعة تلتفتُ نحو جابر وقد رقّت قسماتها. يرى في عينيها ما يشبه التعاطف الحقيقيّ وهو يتابع شرحه قصَّة طرده من السَّكن الجامعيّ. تسمع الكلمات وهي تفكّر في أنَّها نجت من المرض الخبيث. تريد أن تعانق الجميع وتشكر الطبيعة والأشجار والمياه؛ أن تشكر البشر والبنية الإسمنتيَّة ولون السَّماء. تستمع وهي تفكّر في أنَّها، حين تخبر زوجها، سيحتضنها والدَّمعُ في عينيه. «حمدًا للّه أنك معافاة، حمدًا للّه أنَّك ستبقين معي ومع ابننا الصَّغير». وحين ينتهي جابر من الشرح، يحسُّ بأنوثتها تفيضُ في المكان كفيضان

السَّهل في الربيع، وأنَّ حضورها الأموميّ الصارخ يصبغُ الفراغ حولها حنانًا وألفة: «كيف يطردونك من السَّكن بسبب بعض التأخر عن نشاطات الطلبة».

ـ هذا ما حدث، يا سيّدتي.

تخرج المرأة من خلف مكتبها نحو جابر، تضع يدها على كتفه، قائلة: «لا تخشَ شيئًا أيُّها الطالب، لن يطردك أحد من السَّكن الجامعيّ وأنت على أبواب التخرُّج».

لم يكن جابر ينتظر، في أقصى توقُّعاته الإيجابيّة، موقفًا كهذا.

ـ شكرًا لك، يا سيّدتي، إن استطعتِ أن تمنعي طردي فستنقذينني من الخراب، من الجحيم. فليباركك الإله ويحفظك.

ـ لا تهتم يا جابر، الآن سيتغيَّر القرار.

تذهب خلف مكتبها وتطلب رئيس اللَّجنة الفرعيّة: «كيف تطردون طالبًا من السَّكن الجامعيّ وهو على بعد أشهر ثلاثة من التخرُّج. هذا ليس سببًا كافيًا. تطبّقون القانون بلا روح. اسمع، سيبطل القرار الآن. أتفهمني. دع الطالب في السَّكن حتَّى يُنهي دراسته. سأرسله إليك لتغيير القرار».

لا يدري جابرٌ ما يقول، وقد فاضت عيناه دمعًا: «يا سيّدتي، كم أنت امرأة عظيمة، لتباركك السَّماء أنَّى ذهبت».

ـ اذهب، يا جابر، إلى رئيس اللَّجنة الفرعيّة، تابع دراستك واجتهد لتُنهي هذا الفصل.

ـ سأفعل. شكرًا لك من أعماق قلبي.

ـ مع السَّلامة.

ينظر رئيس اللَّجنة الفرعيّة إلى جابر، ويفكّر: لا بدّ من أنَّه يعرف الرَّئيسة الأعلى للجامعة معرفة شخصيّة. «أنت محظوظ يا جابر، لأنَّ الرَّئيسة قلَّما تتدخَّل في قرارات اللَّجنة». جابر صامت. يدرك أنَّ رئيس اللَّجنة الفرعيّة غير مسرور في الطعن في قراره، ولا يريد استفزازه أكثر. «شكرًا لتعاونك يا سيّدي»، يقول جابر.

ـ لا تهتمّ، واعتبر القرار لاغيًا منذ اللَّحظة.

يخرج جابرٌ عائدًا في اتِّجاه السَّكن الجامعيّ، وسعيدًا. عليه أن

ينتبه الآن أكثر للمشاركة في نشاطات الطلبة. لا يريد أيّ مشاكل أخرى مع لجنة السَكن الجامعي. حالفه الحظّ وأنقذته رئيسة الجامعة؛ تلك المرأة الطيّبة. في المرّة القادمة ربّما لن يجد من يشفع له.

«هل رأيتَ كيف تغيّرت حياتك لمجرّد تغيير تفصيل صغير لا علاقة لك به إطلاقًا»، يقول الرجل الكبير.

ـ أيُّ الحياتين هي الحقيقيّة؟

ـ كلتا الحياتين وَهمٌ، وكلتاهما حقيقة. حتّى وجودك هنا معي وهمٌ وحقيقة. فقط ما تحسّ بهِ هو الحقيقة.

ـ وماذا سيحلّ بي الآن؟

لبث ينتظر، بعد امتحانه الأخير، النتيجةَ التي لم تتأخّر طويلًا: نخرّج من الجامعة.

أقام له بعض المقرّبين من أصدقائهِ جلسةَ وداع عشية سفره عائدًا إلى بلدته في الشمال. «لا تنسَ أصدقاءك. كانوا بين الفينة والأخرى». «لن أنساكم أبدًا، وسآتي لزيارتكم بين الحين والآخر»، يقول جابر، ولم يدرِ أنّه، بعد أقلّ من عام، لن يجيبه أحد من أصدقائه، والبعض سيتهرّب من لقائه، ليس لأنّهم لا يحبونه، بل لأنّ المدينة تيّار جارٍ، من يقف قليلًا يجرفه السّيل. لا وقت لأحد يسأل عن أحد. لا وقت حتّى للنّظر إلى السّماء.

استقبله أهله بفرح غامر. ما زاد سعادتهم وحماستهم أنّ جابرًا أنهى جامعته وبات سببًا لتفاخر الأهل في بلدة لم يُكمل نصف أبنائها دراستهم الثانويّة.

مكث جابر في الأيّام الأولى في البيت ولم يخرج إلّا نادرًا. كان يأخذ فراشه وينام على سطح المنزل، فيطيل السّهر هناك في ليالي الرّبيع الدافئة. يراقب السّماء والنجوم، ويحلم.

«ألن نزوّجك يا بنيّ»، تُفاجئه الأمّ، وهي تسكب له كوبًا من الشاي.

- لا أفكّر في هذا الآن يا أماه.

- ولمَ لا، ابنة خالتك فتاة رائعة، ونصف شباب القرية يتمنّون الزّواج منها.

- فليتزوجوها، لا رغبة لي في الزّواج الآن يا أمّي.

خرجت الأمّ غيرَ سعيدة. ينظر جابر إلى شعرها الأبيض، تعبث به نسائم الخريف وهي تهبط الدرج. تلك المرأة لم تزَ يومًا جميلًا في حياتها، وها أنا اليوم أزيد شقاءها.

هبط الدرج خلفها: «يا أمّي، أعدك بأنّي سأفكّر في الأمر، وحين أقرّر الزواج ستكونين أوّل من يعلم». يقترب ويقبّل وجنتها التي حفرت فيها الأيّام والزّمن تجاعيد عميقة.

تقرّبه منها وتقبّل وجنتهُ: «ليباركك الربّ يا بنيّ، وليبارك حياتك

كلّها». لا تدري المرأة أنَّ العكس تمامًا هو ما سيرافق دربه.

جعله وجوده الدّائم في البيت يحسّ بأنّه حمل ثقيل على والديه. وحين صارح أباه غضب الأخير: «ماذا تقول، تحسّ بأنّك حمل ثقيل علينا، هل فقدت عقلك؟ هذا بيتك يا بنيّ، لا يحسّ بالغربة من يعيش في بيته». اتّفق مع أبيه على أن يذهب لحراسة الأرض التي استأجرها الأب وزرعها خضارًا: «سأحرسها أنا في اللّيل يا أبي، ولتبقَ أنت هنا».

ـ لا عليك يا بنيّ، ما زلت قويًا.

ـ لا، يا أبي، أنا من سينام في الأرض وأنت تبقى هنا، هل يُعقل أن أتركك تحرسها وأنا هنا أقتل الوقت.

بدأ ينام لياليه في الأرض العراء. كانوا نصبوا أربعة قضبان من حديد، ورفعوا فوقها شادرًا. الشادر مفيد في منتصف النهار حين تصبح الشمس حارقة، لكنّه في اللّيل يحجب الرؤية.

ينقل فراشه الموضوع على كنبة عريضة قديمة من تحت الشادر كلَّ ليلة.

تتناهى إليه أصواتٌ تصدر من بعيد. يفكّر في أنّها تأتي من خلف الحدود، حيث الطير يعود من رحلته الأبديّة كلَّ سنة.

اللّيل ساحرٌ في العراء. في بعض اللّيالي تكون السّماء صافية كبلورة عدسة. تظهر النجوم كأنّها حبيبات تراب منثورة بغير انتظام. يستلقي على ظهره ويفكّر في الحياة القادمة. لا يمكنه أن يبقى هكذا بلا عمل. هذا مستحيل.

لم يستطع النوم في إحدى اللّيالي. تجاوزت السّاعة الثانية صباحًا وهو صاحٍ. أصوات بنات آوى تأتي من بعيد، تحملها الريح فتغدو كهمس في البرّيّة. ينصتُ جابر إلى مزيج الأصوات الخافتة ولا يغمض لهُ جفن. أشعل الغاز الصّغير ليُعِدَ كأسًا من الشاي. شيء في أعماقه يمنعه من النوم؛ شيء يحذّره من المجهول. لم يكن جبانًا أبدًا، لكنّه أحسّ اللّيلة بنفسه وحيدًا جدًا عند أطراف البلدة؛ وحيدًا يواجه اللّيل البهيم. أقرب البيوت تبعد عنه خمس عشرة دقيقة سيرًا على قدميه. كلّ شيء في البلدة نائم الآن.

حقل الخضار هادئ ولا أثر لأيّ قارض يُفسد المحصول. قام ليمشي قليلًا بين المساكب التي فاحت رائحتها وملأت الجوّ سديمًا

عطريًا؛ مزيجًا فريدًا بين الخُضرة والتراب والندى. ابتعد عن موضع فراشه قليلًا وأصبح في طرف الحقل. لا سياج للحقل، لكنَّه يتعرَّف حدوده في اللَّيل من خشبات صغيرة دُكَّت متباعدة حول المحيط.

بدأ يشعر بخوف حقيقيّ. شيء يشبه الهمس البشريّ يأتي من جهة الجنوب؛ الجهة المعاكسة للبلدة. لا بدّ من أنّي أتوهَّم، وخيالي هو من يسوِّق تلك الأفكار فتغدو حقيقة. لا، لست أتوهَّم. يُصيخ السَّمع قليلًا ويلتفت إلى جهة الريح الخفيفة القادمة من الجهة الجنوبيَّة. يا آلهة السَّماء، هذا همس يأتي من مكان ليس بعيدًا جدًّا. بضع مئات من الأمتار، ربَّما، ليس أكثر. لكنْ، ممَّ يخاف؟ إن كان المتحدِّثون بشرًا مثلنا، فلا خوف. لم يؤذِ جابر أحدًا، فممَّ الخوف؟ لا يمكن أن تكون مخلوقات ماورائيَّة تلك التي سمع عنها كثيرًا في القرية. لا، هذا مستحيل. وحتَّى إن كانت مخلوقات من مكان آخر، فما شأنها به؟ يحاول أن يشجِّع نفسه، لكن لا فائدة. أصبح خوفه الآن رعبًا حقيقيًّا.

إن كانوا قطَّاعَ طرق أو شذَّاذَ آفاق، فسيقتلونني. عاد ببطء إلى مكانه واستلقى في فراشه. فكَّر قليلًا، ثمَّ ذهب أبعد قليلًا واستلقى على الأرض. إن مروا من هنا ورأوا فراشًا ينام عليه رجل فربَّما يقتلونني ليسرقوا ما معي. يبتسم الآن. ربَّما يسرقون بعضًا من شقائي وحظِّي العاثر. يضحك جابر، مع أنَّ الموقف لا يسمح بكوميديا كهذه. نحن البشر نتحايل على عقولنا، نضحك في أكثر اللَّحظات خطرًا، لعلَّنا، بضحكنا، نقلب المشهد إلى كوميديا ويزول الخطر. ربَّما في عصور قديمة كنَّا قادرين على فعل هذا. نغيِّر ردَّة فعلنا ونعكسها فيتغيَّر المشهد. ألم يقل أحدهم إنَّنا نشارك في الخلق حين ننظر إلى شيء بعينه.

استلقى على الأرض الترابيَّة بعيدًا عن فراشه وانتظر. السَّاعة الآن هي الثالثة صباحًا. لن يبدأ ضوء الفجر بالتسلُّل إلى المكان قبل الخامسة والنِّصف أو السَّادسة. ثلاث ساعات سيمضيها هنا، بعينين مفتوحتين.

يمكنه أن يسلك الطريق الفرعيّ غرب البلدة من دون المرور بمصدر الصوت المفترض، لكنَّه لا يقوى على مغامرة كهذه. ربَّما يمشي بضع مئات من الأمتار ليجد نفسه وجهًا لوجه مع هؤلاء المخلوقات. يذهب إليهم بقدميه الحرَّتين. لا، سيبقى هنا، كما أنَّ أباه سيستيقظ ويسأله عن سبب قدومه في هذا اللَّيل البهيم. سيكذب جابر، لكنَّ الأب

سيفهم أنَّه خاف في اللَّيل وحيدًا. لا، لن يعود. لن يكون جبانًا في نظر أبيه.

ما زال الصوت يأتي من مكان بعيد. همسٌ وكلمات تحملها الريح كأنَّها قادمة من حلم. يعود الهدوء قليلًا، ثمَّ يسمع شيئًا يشبه ضحكًا بعيدًا. تأتي الأصوات مبغَمة بعيدة.

يعود الهمس مرَّة أخرى. هذه المرَّة كان الصَّوت أوضح. تتداخل الأصوات فيما بينها أحيانًا، وتأتي، في أحايين أخرى، منفردةً. يا آلهة السَّماء، ما هذا؟ أيّ جحيم قادني إلى هذه البلدة التعسة. لو أنِّي بقيت في البلدة لكنت الآن نائمًا في فراشي. لماذا لا أقترب قليلًا لأرى. لا بدَّ من أنِّي جُننت. أقترب لتشعر بي المخلوقات هناك وتقتلني، أو ربَّما تعتقلني وتأخذني معها إلى عالمها، لعلَّها مخلوقات من كوكب آخر؛ من مجرَّة أخرى؛ من حياة أخرى.

يعمّ الهدوء بضع دقائق، ثمَّ يعود الهمس قليلًا، تتبعه أصوات خطى بعيدة. جابر الآن لا يتحرَّك. كلّ شيء فيه جامد ومتحجّر. لا يتحرَّك فيه سوى عينيه، تنتظران ما سيأتي من جهة الصَّوت.

عاد الهدوء تامًّا ثقيلًا. يترقَّب جابر ما سيحدث. السَّاعة الآن هي الرَّابعة والنِّصف وهو ملازم مكانه.

لا يدري أنَّ الهمس كان حقيقيًّا، وليس ضربًا من خيال. فثمَّة ثلاثة رجال على بعد بضع مئات من الأمتار عنه، يتحدَّثون ويتهامسون في شيء ما.

مخلوقات غريبة تحيطُ بِهِ. لكلّ منها عينٌ واحدة في رأسه. يشير أحدها بيده إلى الجماعة، وتبدأ الحلقة تضيق. جابر ممدَّد في مركز الحلقة ينظرُ إلى وجوه المخلوقات ويريد أن يصرخ. لا صوت يخرج من فيه. يحاول أن يزحف على الأرض هاربًا، فتطالعه الأقدام. ينتبه الآن إلى أنَّ أقدام المخلوقات كانت غليظة كأقدام فِيَلة. يرفع نظره قليلًا فيرى الوجوه الغريبة البشعة بعين وحيدة في منتصف كل جبهة.

«سنأخذك معنا»، يقول أحدهم. يقترب أربعة منه ليحملوه. الآن، يرى أنَّ أياديهم تشبه جذوع الأشجار في لاانتظامها وخشونتها. لا أصابع لهم، بل شيء يشبه الكلّابات. حملوه وقذفوه فيما يشبه الصندوق المفتوح من الأعلى. يرى النجوم الآن كما لم يرَها أبدًا. يهتزّ الصندوق على وقع الخطى فيتغيَّر في كلّ لحظة منظرُ السَّماء. شيء ما

في عقله قد توقَّف، لم يعد يفكِّر في شيء. لم يعد يتساءل أين تأخذني هذه المخلوقات الرهيبة، وقد تأكَّد من مصيره. في اللَّحظات الأخيرة قبل الموت يعمّ السَّلام روح الإنسان.

عندما فتح عينيه كان نور الفجر قد بدأ يتسرَّب، وعادت بعض تضاريس المكان إلى الحياة. أيّ حلم هذا؟ وقف وذهب إلى فراشه. جمع حاجيَّاته واتَّجه في الطَّريق الفرعيَّة الطويلة عائدًا نحو البلدة.

كان يمشي حَذِرًا في الطَّريق المكشوف. يفكِّر لو أنَّه يعود ليرى مصدر الصَّوت وقد بدَّد الفجر الظلمات. ثمَّ يطرد الفكرة ويحثّ الخطى. ما شأني في ذلك، الأهمّ الآن أن أصل إلى بيتي قبل أن تظهر المخلوقات حقيقيَّةً هذه المرَّة، لا مجرَّد حلم.

وصل إلى البيت ودخل غرفته مباشرة. استلقى على السَّرير بثيابه المغبرة ونام.

حين استيقظ بعدها بساعتين، كانت أمّه قد ماتت.

يسمع أباه ينادي أمَّه بصوت عالٍ؛ صوتٍ لم يسمعه جابر قبلًا. يتحوَّل الصَّوت إلى صراخٍ مكبوت ويغدو واضحًا على الرَّغم من بعد غرفته. كان صوت الأب مكسورًا نصفين، كمزهريَّة قديمة تتحطَّم.

قفز من سريره وراح يركض حافيَ القدمين. دخل الغرفة. الأمّ كانت ممدَّدة على السَّرير، والأب في وضعيَة الركوع ورأسه فوق صدرها، يناديها.

وجهُ الأمّ كان يفترُّ عن ابتسامة خفيفة وعيناها مغمضتان. تبتسم ابتسامةَ مَن يشعر بالرضا. ينظر الأب نحوه وقد بلَّل الدُمع لحيته البيضاء، يهمس مخنوقًا: لقد تركتِنا.

ما زال جابر واقفًا في مكانه لا تبدر منه أيُّ ردَّة فعل تجاه ما يرى. شعر الأمّ الأبيض كان مبعثرًا على الوسادة المزركشة نقوشًا وألوانًا. يفكّر جابر: ما سرّ هذه الابتسامة على شفتيها في لحظاتها الأخيرة؟ ربّما رأت شيئًا جعلها تبتسم. هناك من يقول إنَّ الإنسان، في لحظاته الأخيرة، في الحياة، يرى الحقيقةَ؛ الحقيقةَ التي يبحث عنها معظم البشر كلّ حيواتهم، فيبتسم.

ما زال الأب راكعًا فوق سريرها، يناديها خلال دمعه السَّخيّ بصوت متهدّج. يراقب جابر المشهد من بعيد. شيء يمنعه من الاقتراب من المرأة الميتة، يتمنّى أن يطاوعه الدُمع. كان دمعه عصيًا.

الثامنة صباحًا. «سندفنها اليوم»، يقول الأب. «إكرامُ الميّت دفنُه». وجابر صامت.

جلس جابر والأب صامتين، حين عادا مساءً بعد الدّفن. يريد أن يخبر والده بأنَّه قرَّر الرحيل، لكنَّ الكلمات لا تطاوعه.

نطق اخيرًا: «إنّي راحل في الغد إلى المدينة».

- ألديك عمل تقوم به؟ كم ستغيب؟

- لن أعود، سأبحث عن عمل وأعيش في المدينة.

يرفع الأب رأسه بعد أن كان مُطرِقًا ينظر إلى عينَي ابنه. ما زال الدُمع يبلّل لحيته البيضاء:

- كيف ستتركني وحيدًا هنا بعد أن رحلت أمّك.

ـ تعلم بأنّي بحثت كثيرًا عن عمل هنا ولم أجد. بلدة صغيرة لن أجد فيها الكثير يا أبي.

ـ لا تعمل، اعتنِ فقط بمشروع الخضار معي وسنعيش.

ـ أنت تكذب على نفسك، فهذا الأمر لن يُطعم كلًا منّا حين يأتي الشتاء.

كان رحيلُ الأمّ قد قطع آخر صلة لجابر بالبلدة. تلك الأمّ التي عاشت على هامش الدُنيا أبدًا، ولازمها الفقر والمرضُ والصبر الطويل.

رحل جابر في صباح اليوم التالي. رافقه أبوه حتى مفترق الطريق. كان الفجر يرسل خيوط النُور إلى البلدة التي ما زال نصف ساكنيها نيامًا. صمت مطلق يتخلّله صوتُ الطير يأتي بعيدًا من السُهول. يريد جابر أن تنتهي هذه اللّحظات بسرعة. كان يتمنّى أن يبقى الأب نائمًا فلا يضطرّ إلى وداعه. كم كانت ثقيلةً هذه اللّحظاتُ.

«اعتنِ بنفسك»، يقول جابر، بينما الأب صامت ينظر إلى الطريق الإسفلتيّة. «سأمرّ بك كلّ فترة لأطمئنّ على أحوالك». الأب صامت. يريد جابر أن تنتهي اللّحظات بسرعة. لا يدري ماذا يفعل حيال صمت الأب والإحساس بالذّنب. لا يدري أين يذهب بعينيه اللّتين عصاهما الدّمع منذ موت الأم حتّى اللّحظة. تسقط دمعة من عين الأب فوق التراب فيتغيّر لونه غامقًا في دائرة صغيرة، ثمّ دائرة أخرى، فأخرى.

«لن أراك مرّة أخرى، أعرف هذا الأمر»، يقول الأب، «اعتنِ بنفسك يا ولدي». ويقترب إليه يعانقه باكيًا. يحسّ جابرٌ بجسده قطعةً من جليد. لا يدري كيف يجافيه الدّمع الآن. شيء عصيّ على الفهم. يجتمع كلّ شيء الآن، الحزنُ والإحساس بالذّنب والرّغبة العارمة في مغادرة المكان.

بقي الأب يراقب جابرًا سائرًا نحو الطّريق العامّ حتّى غيّبته الأشجار، ولن يراه بعد ذلك الوقت. سيموت بعد سنوات ثلاث. يعود جابر عند موت الأب، يسلّم بيت العائلة المستأجَرَ إلى مالكه ويوزّع الأثاث. لم يحتفظ بشيء إطلاقًا. قَطَعَ الصّلةَ الأخيرة بالبلدة التي لن يراها أبدًا.

ينظر جابر في اتّجاه الرجل الكبير وقد ابتلّت وجنتاه دمعًا. يفكّر كيف أنّ حياته التي لم يَرَها، تتقافز أمامه الآن كحلم. لو أنّه كان حقيقة في البلدة عند مفترق الطرق يواجه الأب، أكان حقًّا سيرحل. «كنتُ

سترحل بلا دمع كما رأيت تمامًا»، يقول الرجل الكبير. «لكن، لماذا، كيف استطعتُ الرَّحيل هكذا، كيف عصاني الدَّمع ولم ينهمر على أمي الميِّتة؟ كيف استطعتُ ترك الرجل العجوز وحيدًا؟» يسأل جابر.

ـ إنَّك الآن تتحرَّر من السُّلطة، يا جابر، بعد أن ماتت الحياة.

وصل إلى المدينة ظهرًا. يحتفظ بأرقام أصدقائه في الجامعة، سيتَّصل بأحدهم لعلَّه يساعده في إيجاد غرفة صغيرة، وربَّما يؤويه اللَّيلة. لم يغب عنهم أكثر من بضعة أشهر. سيستقبلونه بالتَّرحاب، بلا شك.

اتَّصل من هاتف عمومي، بصديقه المقرَّب، والذي يعمل في شركة كبيرة. هذا ما عرفه جابر من مراسلاتهما، «مرحبًا يا صديقي، عدتُ لأستقرَّ في المدينة، لعلَّك تساعدني في إيجاد عمل، وربَّما مأوى لهذه اللَّيلة».

ـ أهلًا جابر، اعذرني يا صديقي، فأنا مسافر اليوم إلى مدينة أخرى بسبب عملي.

ـ حسنًا، هل يمكنك أن تساعدني عند عودتك؟

ـ لقد تأخَّرتُ عن الموعد يا جابر، مع السَّلامة.

ما زال جابر يمسك بسماعة الهاتف. لم يستوعب، في البداية، أنَّ صديقه أنهى المكالمة بهذه الطريقة. يبتسم، يا للسَّماء. أيّ مكان عدت إليه.

لم يفقد الأمل. هذه المرَّة، لن يتَّصل بصديقه الآخر، بل سيذهب إلى منزله. كان صديقه الثاني من عائلة ميسورة الحال، ولا بدّ من أن يساعده.

وصل إلى البناء بعد أن مشى كثيرًا. لن يعود صديقه من عمله قبل الخامسة والنصف. صعد الدَّرج حتَّى الطابق الثالث وقرع الجرس. فتح صديقه الباب، وبدت الدهشة على وجه الرجل.

مرحبًا يا صديقي، عدتُ اليوم من البلدة لأستقرَّ في المدينة، هل تستطيع مساعدتي في إيجاد عمل، وربَّما مأوى لهذه اللَّيلة.

ينظر الصديق إليه كأنَّه رأى شبحًا. كان يُطلّ من الباب نصف المفتوح ويُخفي كامل جسده خلفه. رأسه وكتفه اليمنى هما كلّ ما يظهر منه للخارج. استوعب الصديق الموقف فقال:

ـ اعذرني الآن، يا جابر، لديّ موعد مهمّ مع أحدهم، مع السَّلامة.

وأغلق الباب قبل أن يتفوَّه جابر بكلمة.

استفاق جابر على حقيقة الأمر. هذا الصديق الثاني الذي يتهرَّب منه. عليه أن يجد طريقه وحيدًا في هذه المدينة القاسية.

بات ليلته في نُزل رخيص. وفي الصَّباح، بدأ يبحث عن عمل.

وجد عملًا في يومه الأوَّل.

عمل في مطعم شعبيّ ثلاثةَ أشهر، واستأجر غرفة صغيرة، ثمَّ انتقل للعمل في شركة صغيرة، كمحاسب، بدوام جزئيّ. لو أنَّه يستطيع العمل بدوام كامل، وخصوصًا أنَّه درس الاقتصاد.

بقي في عمله خمس سنوات. أحيانًا، كانت تتضاعف ساعات عمله تبعًا لنشاط السُّوق. كان الجميع في الشركة يحبّونه.

في النهاية، أفلست الشركة، فعاد من دون عمل من جديد.

تقدَّم إلى عمل أرشيفيّ في إحدى مؤسَّسات الدولة وحصل عليه.

بعد خمس سنين، التقى امرأة. كانت مراجعة للدَّائرة الحكوميَّة قادمة من مدينة أخرى. دخلت المرأة السَّاحرة الجمال الغرفة فأحدثت ما يشبه الزوبعة، فقام كلّ العاملين لخدمتها. يراها جابر من بعيد ولا يتحرَّك. وحين غادرت الغرفة أحسّ بشيء يدفعه إلى اللَّحاق بها. شيء فيه طيشٌ وبراءة.

خرج من الشركة خلفها. وحين التفَت في الشارع لتتابع سيرها حاذاها وقطع طريقها. كان في الثالثة والثلاثين، والمرأة تبدو في منتصف العشرينيَّات. «اعذريني يا سيّدتي، أعمل في المؤسَّسة التي دخلتها قبل قليل وأودّ الحديث معك». بقيت المرأة، التي فاجأها جابر، صامتة. وفهم هو صمتَها إذنًا بالكلام.

ـ فقط كنتُ أتساءل: هل تتزوَّجينني؟

زادت دهشة المرأة، ولم تعرف ماذا تقول لهذا الرجل الذي ظهر من اللَّامكان وطلب منها الزواج. كانت تحسّ بالضيق، ابتعدت عنه قليلًا لتتابع طريقها.

ـ أرجوكِ، هذا رقم هاتفي، لا تجيبيني مباشرة، خذي وقتك.

وأعطاها الورقة وغادر.

ابتسمت المرأة بعد أن رأته يظهر ثمَّ يغادر هكذا كجنّي. وضعت الورقة في حقيبتها ومشت.

بعد شهرين تزوَّجها. جاءت تسكن معه في شقَّته الصَّغيرة. وفي عام زواجهما الثالث، أنجبت صبيًا.

«الآن، لا شيء يُذكر، عملٌ وحياة لطفلك ولزوجتك. أنت الآن في الأربعين، وطفلك في الخامسة»، يقول الرجل الكبير.

«في إمكانك أن تُسلّم عهدتك الآن. لم تعد الشركة في حاجة إلى خدماتك. ولا تنسَ أن تمرّ بأمين الصندوق لتستلم تعويضاتك عن نهاية الخدمة».

يبدو الرجل الوفير الصّحة محشورًا خلف مكتبه العريض. يحدّق في الأوراق أمامه، ولا ينظر أبدًا إلى جهة الباب نصف المفتوح، حيث وقف الموظف. تبدو المدينة خلفه من النافذة العريضة مغسولةً بالمطر. المطر يضرب زجاج النافذة بلا توقُّف، ويترك الرؤية خلفه ضبابيّة. حركة السّير على الطريق العام لا تتوقّف. ينظر الموظّف إلى رأس المدير حينًا، وإلى حركة يديه تداعبان القلم المذهّب أحيانًا، ثمّ يمتدّ نظرهُ نحو المدينة في هذه السّاعة الصّباحيّة. يودّ أن يفتح فمه ليقول «يا سيّدي المدير، ما سبب صرفي من الخدمة. أنا لم أرتكب مخالفة واحدة كلّ فترة خدمتي. الجميع يشهدون بنزاهتي وتفانيّ في العمل»، لكنّه يبقى صامتًا، والمدير الذي أفرغ جعبتهُ بقي صامتًا، هو الاخر. يستدير الموظّف ويخرج تاركًا الباب خلفه مفتوحًا.

عاد جابر إلى مكتبه وبدأ يجمع أغراضه الشخصيَّة. اقترب منه بعض زملائه. «ليست عادتك أن تغادر مبكرًا. هل من مكروه أصابك؟ هل أنت مريض؟»

ـ لقد فُصلت من عملي. استغنت الشركة عن خدماتي.

صمت الجميع، وعلامات الدّهشة ترتسم فوق وجوه الموظّفين جميعهم. التفوا حوله فيما يشبه المساندة، ثمّ عادوا إلى أعمالهم بصمت، كقطيع يتابع سيره بين الثلوج بعد أن يتأكّد من أنّ الذّئاب قد أطبقت حصارَها على أيل، ولا مجال لنجاته.

يخطو جابر نحو الباب. ما زال يأمل أن يأتي إليه أحدهم ويهمس في أذنه كلمة مواساة؛ كلمةً واحدة: «لا تهتمّ، هي ليست نهاية العالم، ستجد عملًا آخر». لكنّ الجميع ما زالوا جالسين خلف مكاتبهم، ينظرون إلى بلاط الغرفة القديم بنظرات متكسّرة. يحاولون ألّا يرفعوا نظراتهم حتى لا تلتقي نظراتِ عينيه. جابر ليس ساذجًا ليذهب بخياله بعيدًا. ليس ساذجًا ليتخيّل أنّ جميع العاملين في المؤسّسة يجتمعون ويذهبون مباشرة إلى مكتب المدير. يدفعون الباب ويقولون له بالحرف: «اسمع، أيّها المدير. لقد طردت جابرًا بلا ذنب اقترفه. نحن نعلم بأنّك

ستوظَّف بدلًا عنه ابن أحد معارفك. سنتوقَّف عن العمل حتَّى تُعاد إلى جابر وظيفتُه في المؤسَّسة». وعندها، سيقول المدير، والمفاجأة قد شلَّت تفكيره، «حسنًا أيُّها العمال، فليعد جابر إلى عملِهِ». لا ليس هكذا. هو لا يأمل شيئًا كهذا، وخصوصًا أنَّه يدرك تمامًا قسوة المدير وجبروته. ينتظر فقط كلمة مواساة تأتيه من خلف المكاتب الخشبيَّة القديمة. لكنْ، لا صوت يعلو فوق الصَّمت. يصل إلى باب الغرفة، ينظر إلى مكتبه الفارغ. الموظَّفون ما زالوا ينظرون إلى الأرض الباردة. يفتح الباب بهدوء، ويخرج.

لم يلتزم موظَّف الصندوق الصمت كجميع زملائه. استقبله بابتسامة كتلك التي نستقبل بها أحدهم قبل أن نخبرهُ بأنَّ الحريق التهم منزله. قدَّم جابر إلى الموظَّف الورقةَ التي أعطاه إيَّاها أمين الصندوق، فأخذها, وقال له: «لا تهتمّ كثيرًا يا صديقي، نحن نعرف أنَّك مظلوم. لكنَّنا لا نستطيع أن نفعل شيئًا». ظلَّ جابر صامتًا، وتابع قائلًا: «أنت تعرف أنَّ المدير ظالم، وقاسي القلب. يمكنه طردنا جميعًا بجزة قلم». ابتسم جابر له دلالةً على الشُّكر، واستلم منه النقود، وغادر المؤسَّسة.

لم تتجاوز السّاعة التّاسعة صباحًا، والشّارع أمام المؤسّسة هادئ، هذا الصّباح. وقف في زاوية الشارع والأفكار تتصارع في رأسه. ما العمل الآن وقد فَقَدَ مصدر رزقه الوحيد؟ أين سيذهب في هذه السّاعة؟ لا يمكنه أن يعود إلى بيته الآن. ستحاصره زوجتهُ بأسئلة لا تنتهي: لماذا عدت باكرًا؟ هل أنت مريض؟ لا يمكنه أن يقول لها: لقد طردوني من عملي. ستصاب الزوجة بالفزع. فمع عمله بدوام كامل كانوا بالكاد يستطيعون العيش، وبالكاد يسدّون رمقهم، وهم في حالة دَين دائم. وفقدانه عمله يعني الكارثة، لا محالة.

أشعل سيجارة وهو يسند السّور الخارجي للمؤسّسة عند زاوية الشّارع. بعض طلّاب المدارس ذاهبون إلى يوم دراسة جديد، مشهدهم يذكّره بابنه الصغير، فتزداد الكارثة حجمًا.

كان قد وعده بدراجة هوائيّة هذا الصيف. كيف سيشرح لطفل، في السّابعة، استحالةَ الوفاء بالوعد: «اسمع يا بنيّ: لقد فقدت عملي، ولن أستطيع أن أشتري لك دراجة لأنّنا في ضائقة». «لكنّك وعدتني بها»، ويبدأ الطفل بكاءً صامتًا؛ بكاءً مقهورًا في لحظات ستحيا معه إلى الأبد. سيذكرُ الطفل أنّ أصدقاءه كانوا يقودون دراجاتهم في الحيّ، وهو يراقبهم. وقد يسأل أحدَهم «هل لك أن تعيرني دراجتك للحظات؟ سأقودها هنا قرب الحديقة العامّة»، وربّما يجيبه: «لا، لا أستطيع، اطلب من أبيك أن يشتري لك واحدة».

حين ستعلم الزوجة الجميلة بأنّه طُرد من عمله البائس، ستشكو حظها، هي الأخرى. ربّما لن تثقل عليه الشكوى، لكنّه سيرى في عينيها أشياء أعمق من الكلام.

«ابتعد من هنا أيّها الرجل». صوت يأتيه فيخرجه عن أفكاره. رجل، في زيّ عسكريّ، يأمره بالابتعاد. لم يستوعب جابر ما يجري فبقي ساكنًا، صامتًا. «ابتعد من هنا»، يكزر الرجل، وقد بدأ الغضب يظهر في صوتِهِ.

- لكن، لماذا أبتعد من هنا؟ أليس المكان رصيفًا للعامّة؟

- لا تثرثر كثيرًا، ابتعد وإلّا أجبرتك على الابتعاد. يمكنني أن أعتقلك الآن. اذهبْ وقف على الرّصيف في الشّارع الفرعيّ ذاك.

ويشير الرجل، في الزيّ العسكريّ، إلى شارع فرعي غير بعيد.

وقف يسند الجدار، ويراقب، بعد أن أطاع السُلطة، ما الذي يجري هناك حتى أُجبرَ على إخلاء الرَّصيف. وحين التفت حوله، وجد الشَّوارع شبه خالية. بعض السَّيَّارات كانت تُسحَب بالرافعة وتُنقَل إلى شوارع بعيدة.

مضت عشر دقائق حين مرّ موكبٌ من السَّيَّارات السَّوداء، تتقدَّمها دراجات ناريَّة لرجال، في زيّهم العسكريّ وأسلحتهم البارزة.

فهِم ما يجري، وبدأ يسير في الاتِّجاه العكسيّ للموكب. آخر ما يتمنَّاه الآن هو مشكلة مع الدولة. هذا شيء مُضحك. يبتسم جابر قليلًا، ثمَّ يبدأ بالضحك. تخيَّل أن يعتقلوني بتهمة محاولة اغتيال أحدهم مثلًا. يا اللّه، تلك ستكون أكبر مزحة عرفتُها. «أيُّها المواطن المطرود من عمله: لقد استطاعت استخباراتنا التأكُّد من أنَّك كنت تخطِّط لاغتيال شخصيَّة بارزة صبيحة طردك من عملك». هذا مضحك جدًا. مضحك حدّ البكاء.

بدا يمشي غيرَ قاصد جهة بعينها، كان يبتعد في اتِّجاه مركز المدينة.

وصل قرب دار للعبادة. فكَّر في أن يدخل ليصلّي. نعم، فقد تُجدي صلاتُهُ نفعًا. قد تخاطبهُ السَّماء من عليائها الآن: «اسمع يا جابر، نحن نعرف أنَّك في ضائقة، لكن لا تحزنْ، بل كُن فَرِحًا».

ـ كيف أكون فَرِحًا وقد فقدت مصدر رزقي للتوّ؟

ـ كن فَرِحًا لأنَّ السَّماء تمتحنُك في إيمانك.

ـ ولماذا تمتحنني السَّماء في إيماني؟

ـ لأنَّ السَّماء تمتحنُ أبناءها الصالحين.

ـ ولماذا تمتحنُ أبناءها الصالحين؟ لماذا نُعذِّب من نحبهم، وندفعهم قسرًا إلى الكره والكفر؟ ثمَّ، أليست السَّماء كلّيَّةَ القدرة والوجود والمعرفة؟

ـ نعم يا جابر، إنَّ السَّماء كذلك.

ـ طيِّب، إن كانت كلّيَّةَ المعرفة، فهي تدرك أنَّ فلانًا مؤمن وصالحٌ وفقير، ولا تحتاج إلى أن تمتحنَ البشر؛ لا تحتاج إلى أن تدفعهم نحو

الهاوية فقط لترى إن كانوا سيكفرون أم لا.

ـ اسمع يا جابر: أنت بدأت تغدو مُلحدًا، إنَّ للسَّماء حكمتَها الخفيَّة عنكم أنتم أبناء الحياة.

ـ ولماذا تكون خفيَّة؟ أليست المعرفة المرحلةَ الأخيرة للمحبَّة؟ ثمَّ ما حاجتُها، إن كانت كلِّيَّةَ الوجود والقدرة، إلى إيمان البشر. ما حاجتُها إلى البشر أصلًا إن كانت قائمة بذاتها ولذاتها؛ كاملةً في ذاتها؛ كلِّيَّةَ الوجود في ذاتها؟

صحا جابر من خيالاتهِ واجتاز دار العبادة. السَّاعة ما زالت العاشرة والنصف. حسنًا، سيعود إلى بيتِهِ، ولتحاصرهُ تلك الزَّوجةُ الجميلة بأسئلتها التي لا تنتهي.

وصل إلى الحيِّ ماشيًا عند الحادية عشرة والرُّبع. جارُهم بائع الخُضَر كان يمسح الفاكهة بقطعة قماش بيضاء. ناداه: «صباح الخير يا جابر، أراك عائدًا مبكِّرًا اليوم على غير عادتك».

ـ صباح الخير، نعم، فأنا في إجازة لأسبوع.

ـ هذا أمر جيِّد، سترتاح قليلًا، إنَّ الحياة عملٌ لا ينتهي، هل ستسافر إلى أيِّ مكان؟

ـ لا، سأبقى هنا، أريد فقط قسطًا من الرَّاحة.

شيء في أعماقه يقول: لا تدخل بيتك في هذه السَّاعة. لكنَّه سيدخل، فلا مكان يلتجئ إليه الآن.

فتح الباب ودخل. كانت زوجته الجميلة، في كامل أناقتها، تستعدّ فيما يبدو للخروج. فاجأها قدومه فسألته: «لماذا غدت مبكِّرًا؟ هل أنت مريض؟ هل من خطب؟»

ـ لا، أحسّ فقط ببعض التعب.

رمت الزوجة حقيبتها، واقتربت منه. وضعت يدها على كتفه تسندهُ. ينظرُ جابر إلى عينيها نظرةً شفَّافة. في عينيه شيء يشبه الشُّكر الصَّامت. قالت له: «تعال معي لتستلقي على السَّرير». تأخذه مسندة إيَّاه بيدها البضَّة. يشتمُّ رائحة عطرها، ويتمنَّى أن يقول لها: لا تتركيني السَّاعة، لكنَّه يقول: «ستتأخرين عن موعدك».

ـ لا تهتمِّ، كنتُ سأزور قريبة لي مريضة، يمكنني أن ألغي الموعد

وأبقى معك.

ـ لا داعي، أنا بخير، والأمر ليس بخطير.

تتصارع في أعماقه رغبتان: أن تبقى معه، وأن تغادر ليبقى وحيدًا.

ـ لا تهتمّي، سأكون بخير. اذهبي في زيارتك.

ـ أأنت متأكّد من أنّك لا تريد أن أبقى معك؟

يريد أن يقول لها: ابقي معي، أرجوك، لكنّه يخشى أن تقرأ الحقيقة، فيعدل عن ذلك:

ـ لا بأس، اذهبي، وسأنتظرك.

خرجت الزوجة وبقي وحيدًا. عليه أن يجد عملًا بسرعة، سيخبرها حين عودتها بأنّه في إجازة لعدة أيّام، ربّما أسبوع، وفي هذه الفترة عليه أن يجد عملًا.

شغّل التلفاز. كانت القناة الوطنيّة تبثّ برنامجًا وثائقيًا عن انقراض بعض الأصناف من الحيوانات. غيّر المحطّة إلى محطة إخباريّة: حروب وقتل في كلّ مكان.

سينامُ الآن. نعم، هذا أفضل ما يمكن القيام بهِ. إنّ النوم هروب لذيذ من الواقع، بل إنّه في أوقات كثيرة يكون حلًا لمشاكل الواقع. لعلّه يحلم بأنّه عثر على كنزٍ وهو في إجازة يُمضيها في جزيرة بعيدة، أو ربّما أصبح مشهورًا بعد أن اكتشف حقيقة غرق قارة الأتلانتيك.

حين فتح عينيه كانت الغرفة شبه مظلمة. كم السّاعة الآن؟ لا بد من أنّه نام فترة طويلة. خرج من الغرفة، فوجد زوجته مع الطفل جالسَين يشاهدان التلفاز. اقتربت منه، وسألته: «كيف تشعر الآن؟»

ـ أفضل بكثير بعد قسط من الرّاحة. كم السّاعة الآن؟

ـ السّابعة مساءً.

ضرب جابر بيده على جبينه:

ـ لقد نمت سبع ساعات!

ـ كنتُ مُتعبًا فلم أشأ إيقاظك.

حضّرت الزوجة عشاءً. لم يأكل كثيرًا، مع أنّه لم يأكل شيئًا

اليوم. كان يفكّر في الغد. سيخرج من منزله في الصّباح، ولن يعود حتّى يجد عملًا.

أخبر زوجته في الصباح، بأنَّه في حاجة إلى بعض الهواء النقيّ. سيقوم بنزهة.

خرج من منزله لا يحمل أيّ فكرة في رأسه. يعلم بأنَّه يجب أن يغادر المنزل، لا أكثر. أمّا أين سيذهب، وماذا سيفعل؟ فلا يدري.

استوقفهُ بائع الخُضَر مجدّدًا يسأله: «هل قطعتَ إجازتك بهذه السُرعة؟»

ـ كلا، لديّ أشياء أخرى أفعلها.

ترك جاره في منتصف الحديث، وتابع طريقه. وقد استغرب تصرُّف جابر الغريب، وقال: مسكين هذا الرجل!

أيُّ الطرائق أفضلُ لإيجاد عمل؟ الدخول إلى المعامل أو المحال التجاريَّة وسؤال مالكيها.

ـ عذرًا سيّدي، مالك المصنع، هل أجد عملًا لديكم.

ـ لا يوجد عمل، ألبارحة صرفتُ عاملين، السُوق ندخل في ضائقة ماديَّة.

هذه طريقة بائسة. لن يدخل أيّ مكان يسأل مالكه عملًا. عند زاوية الشارع، اشترى كعكة ساخنة، وجلس على مصطبة أمام مدخل حديقة عامَّة، يأكلها، ويراقب المارَّة.

امرأة هيفاء تمسك بيد طفلها على الرَّصيف المقابل. المرأة، في ثياب خفيفة على الرَّغم من أنَّ الجوّ بدأ يبرد. فستان أبيض قصير، يكشف حتَّى ما فوق الركبتين، عن قوام ساحر. تلتفت المرأة في كلّ الاتِّجاهات، كأنَّها تبحث عن أحد. ثمَّ تقطع الشَّارع في اتِّجاه جابر.

يفكّر جابر في أنَّ المرأة ربَّما تبحث عن زوجها لتخبره بأنَّها مُصابة بمرض خطير، وقد زارت المشفى اليوم، وتأكَّدت. لا بد من أنَّها حزينة في هذه اللَّحظة. لكنَّ قسماتِها لا تشي بحزن، بل بنشاط وعافية في هذا الصَّباح. يرى وجهها الجميل يقترب منه وترتسم ملامحه في ذاكرتهِ إلى الأبد، لكنَّه لن يدري أنَّها لن تكون المرَّة الأخيرة التي يرى فيها هذا الوجهَ النضر.

السَّيَّارة المسرعة القادمة من الجهة البعيدة، لم تُمهل المرأة

وطفلها إلّا ثوانيَ؛ ثوانيَ غيرَ كافية لتفصل بين الموت والنجاة. وبعكس ما نقرأ في الكتب، ونشاهد على الشاشات، لم تكن الثواني كافية لتمتدَ يد خفيّة تنقذُ فيها الروحين. لم ترسلُ السّماء حبل نجاة كذاك الذي أرسلتهُ إلى قديسين ورسل. لم تنتبه السّماء، كعادتها، لما يجري. لم تحرّك ساكنًا.

السّيّارة الرّياضيّة المسرعة قذفت بالمرأة وطفلها جثتين هامدتين، غير بعيدتين عن جابر.

لا يقوى جابر على الحركة. المرأة ممدّدة على جنبها، كأنّها نائمة. لا أثر لبقعة دم على ثيابها البيضاء. ارتفع الفستان حتّى وصل إلى حافة الحوض، وبدت ملابسها الداخليّة ناصعة. يهرب جابر بنظره ويحدّق في الرأس، وقد أحسّ بأنّه يسرق أشياء حميمة من جثّة. يعود ينظرُ إلى منبت حوضها الرُّخاميّ مرّة أخرى. «يا لخساستي، لم تسلم المرأة من عينيّ الوقحتين حتّى وهي جثّة». استدار وبدأ ينظرُ إلى الطفل السابح في دمه.

لم يستغرق الأمر أكثر من ثوانٍ، حتّى اجتمع الكثيرون حول الجسدين. وحين وصلت سيّارة الإسعاف، كان الدّمع قد جعل الرؤية في عينيه غائمةً.

عادت الحياة إلى طبيعتها بعد نقلهما إلى المشفى. هل ماتا؟ لا يدري، ولا توجد أيّ وسيلة مُتاحة ليعرف. لا يمكنه أن يستوقف الشرطي الذي يحرّر محضرًا بالواقعة: «عذرًا، يا سيّدي الشرطي».

ـ نعم أيُّها المواطن، ماذا تريد؟

ـ هل ماتت المرأة وطفلها، اللذان دهستهما السّيّارة الرّياضيّة؟

ـ وما أدراني، أتعتقد أنّي الطبيب المناوب في قسم الإسعاف. اغربْ عن وجهي قبل أن أعتقلك بتهمة إزعاج السلطات.

ـ عذرًا، لم أقصد الإزعاج.

هناك طريقة أخرى أكثر بساطة: أن يذهب إلى المشفى القريب، والذي لا بد من أنّهما نُقلا إليه، ويستفسر. نعم، الاستفسار ليس جريمة. يريد فقط أن يعرف ما حلّ بالمرأة وطفلها. سيدخل المشفى ويسأل الممرّضة، ملاكَ الرحمة، كما تسمّيها الشعوب: «سيّدتي الممرّضة، هل لي بمعرفة ما حلّ بالمرأة وطفلها؛ المرأةِ التي دهستها السّيّارة الرّياضيّة

المسرعة؟»

ـ هل أنت زوجها؟

ـ لا، لست زوجها.

ـ إذن، أنت صديق لعائلتها؟

ـ لا، لست كذلك.

ـ حسنًا، لا بد من أنَّك سائق السَّيَّارة القاتل. يا حراس الأمن اقبضوا عليه.

لا، لن يذهب إلى المشفى. صحيح أنَّه لا يمتلك سيَّارة أو حتَّى شهادة قيادة، لكنَّ الخطر موجود باعتقاله.

عاد المازة يجتازون الرَّصيف، جيئةً وإيابًا. كانوا يمرُّون في المكان نفسه الذي كان يحتضن جسدي المرأة وطفلها قبل دقائق. لم تُمهل الطبيعة موتَهما المفترض أكثرَ من عشر دقائق لتعود إلى دورتها الأزليَّة القاسية. بعض المازَة داس على بقع من دم كان يجري قبل دقائق في جسد الطفل. يريد جابر أن يصرخ: «يا أبناء الأفاعي، لا تدوسوا دمَهُ، واتركوه يَمُث في سلام. لا تدوسوه بأحذيتكم». لكنَّه، كما كلُّ من مرَّ في المكان وتجمَّع فيه، التزم الصَّمت طمعًا في السَّلامة. التزم الصَّمت، بينما الوقتُ كان يجدر به أن يكون وقتَ صراخ.

عاد جابر إلى منزله محطّمًا. صورة الجثتين على الرَّصيف لا تفارق خياله مهما حاول إبعادها.

كانت زوجته في المطبخ تغسل الصحون حين عاد. تركت الصحن جانبًا، وجففتْ يديها، واقتربتْ منهُ.

المسافة بينهما كافية لترى عينيه بوضوح. كان يحاول النّظر إلى أيّ شيء، إلّا عينيها. الرجل والمرأة صامتان، تنظرُ إلى عينيه التائهتين، وهو ينظرُ إلى فراغ يلتفُّ في المكان.

يمدّ يده، يلامس شعرها؛ شعرَها الحيّ الذي ما زال ينبض؛ شعرَها الذي لم تدهسهُ سيّارةٌ رياضيّة مسرعة. كم يشبه شعرُها شعرَ القتيلة.

يقرّب خصلة منه إلى وجهه، ويشتمّها. المرأة الجميلة كانت تعتني بنفسها دائمًا، فيأتي العطرُ من شعرها طبيعيًا، ونقيًا، وقويًا كروح غابة خضراء.

أحسّت زوجته اللّمّاحة بروحه المحطّمة، فأرسلت يدها اليمنى تلامس، في حبّ، مؤخرةَ رأسه. ينظرُ جابر إلى عينيها، ويغالب دمعًا يغلبهُ.

تسحب المرأة رأسهُ ونصفه على كتفها العارية، فيستسلم الرجلُ لهذا الدفق من الحب الذي تهبه إيّاه زوجته، ويغرق وجهَه فوق كتفها، ويغرق في البكاء.

تحسّ المرأة برطوبة الدّمع على كتفها. تمسكُ رأسه بكلتا يديها وتبعدهُ لترى: «يا إله السّماء، أنت تبكي كطفل». يرى جابر دمعًا صافيًا في عينيها، فينهار بكاءً.

تأخذه الآن وتحيط يديها حول رقبته، تعانقه كما لم يعانقه أحد، وتدفعه لصيقًا بجسدها.

يحسّ جابر بصدرها الأخضر الدافئ. يحسّ بنبض الحياة الأولى تعود في جسده المحطّم. يودّ أن يقول لها إنّه يكتفي بهذا. يمكنه أن يحيا هكذا إلى الأبد. دفء الحياة؛ مصدرها، في جسد أموميّ؛ في حياة قائمة بذاتها. قائمة ولا تحتاج إلى أي إضافة.

طال العِناق حتّى قالت الزوجة: «تعالَ لتستلقي». أخذته ومدّدته

على السَّرير. كان ينظر إلى عينيها كمن ينظر إلى شيء عالق في خياله. يحدّق فيها صامتًا، محايدًا كمن سُرق النطقُ منه. «سأتركك لترتاح. حاولْ أن تنام، لا تخبرني شيئًا الآن، حين تستيقظ ستتكلّم إن أردت».

حين استيقظ بعد ساعتين كان غارقًا في عَرَق بارد. حاول النهوض عن السَّرير فألفى نفسه ضعيفًا وقواه خائرة. أحسَّت زوجته بحدوث جلبة في الغرفة، فدخلت: «كيف تشعر الآن؟»

ـ لا أدري، لكنّي أحسّ برأسي مرجلًا يغلي.

اقتربت ومسّت جبينه: «يا إلهي، أنت محموم، حرارتك مرتفعة جدًّا».

ـ لا بأس، سأصبح في حال أفضل غدًا.

ـ سأستدعي طبيبًا.

ـ لا، لا حاجة إلى ذلك، فقط دعيني أشرب بعض اللَّيمون وسأكون أفضل في الصَّباح.

جاءت الزَّوجة بعصير ليمون وبعض الأقراص لخفض الحرارة. تناولها جابر وعاد لينام.

كان نومه متقطّعًا. حلم بأنّه هو من كان يقود السَّيّارة الرّياضيّة المسرعة حين دهست المرأة وطفلها. وكان يصرخ: «لا، لستُ أنا من قتلها»، حين دخلت زوجته وأيقظته.

كانت حرارته قد ارتفعت كثيرًا. استدعت طبيبًا حقنه بإبرة مهدّئة، نام في إثرها حتى الصباح.

بقي مريضًا في بيته أسبوعًا كاملًا. لم يستطع مغادرة السَّرير. كانت الحمّى تشتدّ في اللَّيل، فتناوله زوجته أقراصًا ليعود وينام.

خرج من منزلِهِ في اليوم الثامن. أجرى حسابًا سريعًا، فاستنتج أنّ تعويض نهاية الخدمة لن يكفي أكثر من شهرين، وفي أفضل الأحوال، ربّما ثلاثة أشهر. عليه أن يجد عملًا بسرعة. كان قد أخبر زوجته بفقدانه وظيفته، فحاولت مواساته، ولم تشتكِ، بعكس ما كان يتوقّع. قالت له إنّه سيجد عملًا آخر، وما جرى ليس نهاية العالم. ينظر إليها وصورة المرأة القتيلة ماثلة أمامه، فتدمع عيناه، فتعود وتحتضنه من جديد، بينما يهمس هو في سرّه: أيّتها المرأة الطيّبة.

أعاد إليه صخبُ الشارع بعضَ الحياة. حين مرّ ببائع الصحف، خطرت له الفكرة: لماذا لا يبحث عن عمل في إعلانات الصحف. كان قد سمع كثيرًا عن فرص التوظيف في صحف متخصّصة، بعضُها يوزّع مجّانًا.

اشترى الصحيفة الوطنيّة، وأخذ صحيفة الإعلانات المجانيّة معها. سار حتّى وصل إلى حديقة الحيّ، وجلس على المصطبة الإسمنتيّة عينها، هناك حيث تمدّدت جثّتان في الأمس القريب.

تصفّح صحيفة الإعلانات، فلم يجد شيئًا. إعلانات التوظيف كلّها تطلبُ خبرات لا يمتلكها. بدأ يفقد الأمل. فتح الصحيفة الوطنيّة، وبدأ يقرأ الأخبار. انتقل إلى صفحة الإعلانات ولم يجد شيئًا. وكان يهمّ بإغلاقها، والعودةِ إلى منزله، حين قرأ إعلانًا غريبًا:

شركة لدفن الموتى تطلب موظّفًا للعلاقات العامّة. يفكّر جابر في معنى موظّف العلاقات العامّة. ما حاجة شركة لدفن الموتى إلى موظّف علاقات عامّة. هذا الموظّف، طبقًا للتوصيف الوظيفيّ، هدفُه تسويق منتوج معيّن، والقيامُ بدور الوسيط بين الشركة وعملائها. فأيُّ منتوج ستسوّقه شركة كهذه. الإعلان غريب، وزاد في غرابته السّطرُ الأخير فيه: الخبرة غير مطلوبة!

الخبرة غير مطلوبة لموظّف في العلاقات العامّة! وفي شركة لدفن الموتى! الإعلان يشبه أحجيّة، بل لغزًا.

الفضول، وأكثر منه، أي محاولة الحصول على وظيفة، هما ما دفع جابر إلى الاتّصال بالشركة. طلب الرّقم الموجود في الإعلان من هاتف عموميّ قريب.

ـ صباح الخير، قرأت إعلانكم في الصحيفة الوطنيّة اليوم.

ـ نعم، أهلًا بك.

ـ أودّ معرفة ما تقصدون بموظّف علاقات عامّة.

ـ نعم، تفضّل إلى الشركة وسنشرح لك.

لم يفكّر أبدًا في الذّهاب إلى الشركة، أو حتّى في إمكان الحصول على الوظيفة:

ـ لكنّ، لا خبرة لديّ، يا سيّدي.

ـ الخبرة غير مطلوبة، تفضّل إلى هنا وسنتكلّم في تفاصيل العمل. العنوان موجود في الإعلان عينه.

ـ شكرًا لك. مع السلامة.

ما العمل الذي يمكن أن يقوم به في شركة لدفن الموتى؟ يفكّر في أنّه قد أخطأ في الاتّصال بهذه الشّرعة. لكن، يمكنه أن يتخلّف عن الموعد ببساطة. لم يعطِ اسمه أو أيّ شيء يدلّ على شخصيّته. لا، لن يعمل في شركة كهذه.

عاد يقلّب صفحات الجريدتين لعلّه يجد شيئًا آخر. لا بأس في عامل نظافة، أو حتّى في حمّال في شركة شحن، أو أيّ شيء. الصحيفتان كانتا خاليتين.

يمكنه أن يذهب فقط ليفهم معنى «موظّف علاقات عامّة». لا بد من أنّهم يسوّقون الأكفان. بدأ جابر يضحك للفكرة: تتّصل بأحد الأشخاص الأحياء لتقول له: يا سيّدي، لدينا أفضل أنواع الأكفان في السّوق. هو مصنوع من قماش مستورَد، سيكون دافئًا جدًّا في عتمة القبر. في إمكانك أن تختار اللّون المناسب لذوقك. يتخيّل ردّة فعل الرجل في الجانب الآخر، ويبتسم. موظّف علاقات عامّة، أيّ هراء هذا!

«شركة الحياة لدفن الموتى». اللّوحة الإعلانيّة المضيئة تبدو أشبه بلوحة لنادٍ ليليّ. وقف يتأمّل البناء. الواجهة الزجاجيّة، واللّوحة المضاءة، وتلك الفخامة المعماريّة. هذا أبعد ما يكون عن شركة لدفن الموتى.

استقبلتهُ السكرتيرة قائلة: «أهلًا بك، يا سيّدي، كيف أستطيع خدمتك».

ـ قرأت إعلانًا هذا الصَّباح عن شركتكم، ثمَّ اتَّصلت هاتفيًا.

ـ حسنًا، أعتقد أنَّك تكلَّمت مع المدير.

ـ لا أدري مع من تكلَّمت، لكنَّه رجل.

كانت السكرتيرة ترتدي قميصًا أحمرَ ناريًا، أظهر جزءًا من صدرها الكبير. ينقل جابر نظرهُ بين الفتحة في قميصها، والسجَّادة الحمراء التي فُرشت بها أرض الشركة. أيّ شركة هذه!

قرع باب غرفة المدير، ودخل:

ـ صباح الخير، كنت قد اتَّصلت مبكرًا من أجل الوظيفة المُعلَن عنها في الصحيفة الوطنيَّة.

ترك الرجل كتابًا كان يقرأ فيه، ونظر إلى جابر:

ـ أهلًا بك، تفضَّل بالجلوس.

الرجل، الذي يرتدي بذلة سوداء، كان وسيمًا، في منتصف الثلاثينيَّات. تدلّ هيئته على أنَّه واحد من الأشخاص الذين يصلون إلى أهدافهم بسهولة. يبتسم المدير، وجابر صامت.

طلب المدير السكرتيرة بالهاتف، وأخبرها بأنَّه مشغول، لا يريد أيّ مقاطعة لجلستهِ مع طالب الوظيفة الجديد ولا أيّ هواتف. يستغرب جابر كلّ هذه الجدّيَّة في مقابلته مع المدير، ويبقى صامتًا.

ـ لا بدّ من أنَّك تتسأل عن طبيعة الوظيفة.

«نعم»، يشير جابر برأسه موافقًا.

ـ حسنًا، الوظيفة سهلة للغاية. لا تعب فيها ولا مشقَّة.

ما زال جابر صامتًا.

ـ ولا ساعات دوام تقيّدكَ، ولا خبرة مطلوبة، أضف إلى ذلك الأجر المرتفع. كم كنت تتقاضى في وظيفتك السَّابقة؟

يجيبه جابر، وقد ضاعف أجره. يكذبُ، كما يفعل الكثيرون منّا.

ـ ستتقاضى خمسة أضعاف أجرك، ليس شهريًا، بل عن كلّ مهمّة تنجزها.

يبدو الأمر له الآن شبيهًا باللُّغز. خمسة أضعاف راتبه المزيَّف تعني عشرة أضعاف الحقيقة. ليس من ساعات دوام يوميَّة، بل عن كلّ

مهمَّة!

يفكّر في أنَّه ربَّما كان عملًا مشبوهًا. هذا هو التَّفسير المنطقيّ الوحيد. مخدرات مثلًا، أو ربَّما ما هو أخطر: أسلحة.

صمتَ المدير بعد أن ذكر الأجر، ليترك جابرًا دَهِشًا لضخامة المبلغ، وصامِتًا أيضًا يفكّر في أيّ عمل مشبوه سيُعرَض عليه.

مدّ المدير يده بعلبة سجائر فاخرة إلى جابر، فأشعل منها واحدة. «المهمَّة سهلة جدًّا»، يتابع المدير. «أنت ستساعد البشريَّة على تخفيف آلامها». لا شكّ في أنَّها المخدرات، يفكّر جابر. هذا ما لست في حاجة إليه: مشكلة مع الدولة، وسجن. لا، هذا مستحيل.

«هل يمكنك أن توضِّح المهمَّة أكثر، رجاءً؟» يستشعر المدير ضِيقًا في صدر جابر، الذي خلع سترتهُ الصوفيَّة وقد بدأ يحسّ بالحمّى تصيبه مجدَّدًا.

«ببساطة، ستساعد بعضَ المرضى». جملة المدير الأخيرة، جعلت المهمَّة أكثر ضبابيَّة.

ـ كيف أساعد المرضى؟ تقصد أعتني بهم، وأساعدهم في قضاء حاجاتهم. لا مشكلة في هذا، لكنّي لا أمتلك خبرة في التعامل مع المرضى. عملي كان مكتبيًّا بامتياز، أنقل البريد الوارد إلى المؤسَّسة في جداول، ليتمّ أرشفته بعد أن يطّلع عليه الأشخاص المعنيّون. ببساطة، لا خبرة لديّ مع المرضى، والمرض.

ـ في الحقيقة، إنَّها مساعدة من نوع آخر.

ليس لدى جابر أدنى فكرة عن وظيفته المفترضة. وشرحُ المدير يزيد المهمَّة إبهامًا.

ـ هل تقصد أن أُخرجهم في نزهات، وأقصّ عليهم أقاصيص مسلية؟ لا مشكلة لديّ. لكن، وماذا إن لم يحبوا قصصي وتسلياتي. يمكنُني أن أجرّب هذا.

غيَّر المدير جلسته. قام من خلف مكتبه الفخم، وخطا ليجلس على كرسيّ قبالة جابر. أشعل سيجارًا من النَّوع الفاخر، ونفث الدُّخان. الصَّمتُ الآن كاملٌ، كأنَّ الحياة توقَّفت في الخارج. كأنَّ الحياة ستأخذ شكلًا آخر الآن، عندما ينطق المدير ببضع كلمات:

«في الحقيقة هي مساعدة من نوع آخر». التزم جابر الصَّمت

الآن. «بعض المرضى الميؤوس من شفائهم، والذين يدخلون في غيبوبة ويكون احتمالُ عودتهم إلى الحياة شبهَ مستحيل، يسبّبون حزنًا عميقًا لذويهم، وعذابًا مجانيًا لأنفسهم». يرى جابر الكلمات تتساقط عن شفتَي المدير. يحسّ بها قبل أن يسمعها. ظلَّ صامتًا كحجر. من ينظر إليه الآن، يعتقد أنَّه لا يتنفَّس. لا شيء فيه يتحرَّك إلَّا عيناه، تحدّقان في شفتَي الرجل، في البذلة السَّوداء الفاخرة.

توقَّف الرجل قليلًا يلتقطُ أنفاسه، ثمَّ تابع: «هؤلاء بالذَّات هم من ستساعدهم».

ـ كيف أساعدهم؟.

ـ تساعدهم على التخلُّص من عذاباتهم المجانيَّة.

يسمع كلمات الرجل، في البذلة السَّوداء الفاخرة. بدأ يفهم شكل مهمَّته المشؤومة، لكنَّه غير متأكّد بعد.

ـ ستساعدهم على الوصول إلى برّ الأمان، هل فهمت؟

ـ تقصد: أساعدهم حتى يصلوا إلى فنائهم. أقتلهم؟

ـ أخفض صوتك، سيسمعك مَن في الخارج.

لم ينتبه جابر إلى أنَّ صوته قد ارتفع. المفاجأة كانت أكبر ممَّا يتصوَّر.

ـ أنت لن تقتلهم يا هذا، هم أموات مؤجّلون. أنت فقط ستختصر عليهم طريقًا طويلًا من الأسى.

ـ يا آلهة السَّماء، أنا لا أصدّق ما أسمع. مطلوب منّي أن أقتل أرواحًا حيَّة. هل جُننت يا رجل؟ هذه جريمة. جريمة تؤدّي بمرتكبها إلى منصَّة الإعدام، أو في أفضل الأحوال إلى السجن مدى الحياة.

شيء في أعماقه يقول له: تابع لترى. تابع حتَّى النّهاية لتشاهد هذا العالم الذي فَقَدَ عقله:

ـ وكيف سأقتلهم؟ بطلق ناريّ ربّما؟ أم بسكين جزّار؟

قال له المدير:

ـ هل جُننت؟ لا هذا ولا هذا. هم في غرف عناية فائقة في مشافٍ. يكفي أن تفصل أحد الأزرار لدقائق ويرتاح المريض.

ـ تقصد يموت المريض.

ـ نعم، يموت المريض ويرتاح، وأيضًا يرتاح ذووه.

ـ أعتقد أنَّ من سيدفع المبلغ الضخم هم الأهل، أهل المريض.

ـ هذا صحيح.

ـ ولماذا لا يقومون بهذا الفعل بأنفسهم؟

ـ تعلم بأنَّ من الصَّعب إنهاءَ حياة شخص عزيز.

ـ آه، تقصد أنَّ الأهل لا مشكلة لديهم إن قام رجل مثلي بهذه المهمَّة، لكن أن يقوموا هم بها فذاك سيؤذي عواطفهم.

ـ هذا صحيح.

«أيّ عالم متلوّن، منافق هذا»، يتمتم جابر.

ـ اسمعني جيّدًا، لا تُعطِ جوابًا الآن. اذهب وفكّر في الأمر، يكفيك أن تنفّذ مهمَّة واحدة في الشهر لتحيا في بحبوحة. لن أطلب منك بياناتك، فقط لتشعر بالأمان. أنا لا أدري حتَّى اسمك المجرَّد. لا وثائق، ولا شيء. في يوم التَّنفيذ، سأزوّدك بالمعلومات. تذهب وتنفذ، ثمَّ تعود إليّ فأسلمك النقود. اذهب وفكّر مليًا. سأحجب الإعلان عن الصحيفة أسبوعًا كاملًا، في انتظار ردّك.

كلمات الرجل، في البذلة السّوداء الفاخرة، تتردّد في مسمعهِ بعد أن غادر الشركة: أموات مؤجّلون، أنت من سيساعدهم على التخلّص من عذاباتهم المجّانيّة.

عليه أن يفصل أحد الأزرار الكهربائيّة لمدّة ثلاث دقائق، ليحصل على عشرة أضعاف أجره الشهريّ في عمله السّابق. الحياة ليست عادلة. أيّ إغواء هذا الذي زُرِع في طريقه. سيشتري دراجة هوائيّة لطفله، ويعطي زوجتَه الطّيّبةَ نقودًا. طلبت منه منذ زمن أن تشتري فساتين جديدة، وأن تشتري غسالة آليّة، وتلفازًا جديدًا. يمكنه أن يفعل هذا كلّه، والثمن روح إنسان.

لكنّها روح ميؤوس منها؛ روحَ تتعذّب مجانًا. لكنّها، في النّهاية، روحُ حيّة يا جابر، ولست أنت من يقرّر موعد موتها. هذا صحيح، لكنّها ستموت عاجلًا أم آجلًا. يمكنها في حالات معيّنة أن تستفيق من غيبوبتها. تلك نسبة ضئيلة، لكنّها موجودة.

جابر تائهٌ في عالم آخر. يتمنّى أن يهاتف الرجل ويقول له: «لقد فكّرت في الأمر، لا أريد هذا العمل». وسيقول له الرّجل: «أأنت متأكّد من أنّك ترفض أضعافًا لأجرك القديم». ويجيب جابر: «نعم، أنا متأكّد من أنّي أرفض أن أكون قاتلًا، بإرادتي الحرّة».

نعم، سيتّصل الآن بالرجل ذي البدلة السّوداء الفاخرة. وصل قرب بائع الصحف في الحيّ. دخل مقصورة الهاتف، وطلب الرّقم. تناهى إليه صوتُ امرأة في الجانب الآخر، لا بد من أنّها السكرتيرة بالقميص الأحمر الناريّ، تتّكئ الآن على مكتبها مقوّسةً ظهرَها إلى الأمام، وصدرُها الأبيض قد حُشر بين حمالته وطرف الطاولة الخشبيّة. ربّما خلعت حذاءها ذا الكعب العالي، ورفعت قدمًا تسندها على الكرسيّ نفسه، مطمئنة إلى أنّه لا يوجد فضوليون ينظرون الآن إلى جسدها الفتيّ. «ألو، كيف يمكنني مساعدتكم»؟ صمت جابر، وهو لا يدري ما يقول.

- ألو، هل من أحد هناك؟

- نعم، هل يمكنني التحدّث مع مدير المصبغة؟

- لا بدّ من أنّك أخطأت في رقم الهاتف. هذه ليست مصبغة.

ـ عذرًا للخطأ.

ـ لا عليك.

كان عليّ أن أكون أكثر شجاعة؛ أن أحدّث الرجل برفضي: رفضي أن أقتل إنسانًا، ورفضي أن أحيا كإنسان. رفضي للموت، وللحياة.

وصل إلى بيته عند الثانية ظهرًا. سيصل الطفل من مدرسة الحيّ القريب بعد ساعة. المنزل خالٍ، لا بد من أنَّ زوجته ذهبت إلى مكان ما قبل أن تصطحب الطفل معها.

زاد البيت الصامت في الوحشة في نفسه. لم يكن لديه أصدقاء كثيرون، بل لم يكن لديه أصدقاء حقيقيّون. كان يمضي وقته بين عمله ومنزله. وفي عطلة نهاية الأسبوع، كانا يذهبان أحيانًا إلى الحديقة العامّة برفقة الطفل، أو يزوران قريبًا. كم كانت تلك الزيارات تُثقل على نفسه.

عادت زوجته مع الطفل، وقد بدا شاحب اللَّون. سأله:

ـ ما بكَ؟ هل أنت مريض؟

ـ لا، لستُ مريضًا.

ثمَّ سأل زوجته: ما بالهُ شاحب اللَّون هكذا؟

ـ سأخبرك فيما بعد.

وأخذت المرأة طفلها إلى الغرفة الثانية، وأغلقت الباب.

استلقى جابر على الكنبة بثيابه. يحسّ بالحمّى لم تفارقهُ كلّيًا. غفا قليلًا ثمَّ استيقظ على وقع خطى زوجته. جلست المرأة الجميلة في الجهة المقابلة والتزمت الصَّمت.

ـ ما بال الطفل؟

ـ مات أحد أصدقائه في المدرسة.

ـ ماذا؟ كيف مات الطفل؟

ـ لقد تغيّب أسبوعًا عن المدرسة، واليوم أخبرتهم المعلّمة بأنَّه قد مات في حادث سير، سيّارة مسرعة دهسته وهو يعبر الشَّارع.

يقرع قلب جابر كطبل أجوف الآن. أيكون ذاك الطفل مع أمّهِ. نعم، ربَّما، فقد كان في عُفر قريب من عُفر ابنه.

ـ أين وقع الحادث؟

ـ تقول المعلّمة إنّه ليس بعيدًا من هنا، في الشّارع الخلفيّ.

لم يبقَ إلّا أن يسألها إن كان الطفل بصحبة أمّه ليتأكّد:

ـ وهل كان الطفل وحيدًا حين دهسته السّيّارة؟

ـ لا أدري.

تدمع عينا زوجته بصمت، تبكيان بصمت كدمع المقهورين. يقول جابر:

ـ أحسّ بنفسي أختنق. أحسّ بأنّ الهواء لا يدخل صدري الآن.

اقتربت زوجته منه وجلست. أحسّ بحرارة جسدها تضطرم في جسدهِ. أرخى يده، على فخذها الذي بان من تحت فستانها القصير، ووضعت هي يدها فوق يده، وقالت: تلك هي الحياة.

ثمّ أضافت:

ـ سأحضر الغداء، فقد نام الطفل وسيصحو قريبًا، وأنت لا بدّ من أنّك جائع.

حين وقفت، انساب شعرها أسودَ وغطّى كتفيها. تلك المرأة الجميلة لا تستحقُّ هذا العذاب كلّه معي. وضعت يدها على شعره وهو جالس:

ـ اذهبْ وغيّرْ ملابسك، حضّرت لك طعامًا تحبّه.

بعد الغداء، كان الطفل قد بدا في حال أفضل. زال عنه الشُّحوب. «لا تنسَ وعدك لي»، يخاطب الطفل أباه، الذي أخذته مفاجأة الطفل غير المتوقّعة. يذكّره بالدراجة الهوائيّة. بقي صامتًا للحظات، فأسعفته زوجته.

ـ كن طفلًا عاقلًا ومجتهدًا في المدرسة، وسنشتري لك الدراجة.

يبتسمُ الطفل. جابر في عالم آخر.

ساءت حالة الطفل مجدَّدًا. كان يرى كوابيس في أثناء نومه. يستيقظ صارخًا:

«أسعفوه إلى المستشفى، أسرعوا، لن يموت»، ثمَّ يبدأ بنحيب صامت.

أخبرتهُ الزَّوجة بأنَّ الطفل القتيل كان صديقه في الصفِّ، ويبدو أنَّه كان يفضِّله على كلّ الأطفال.

بدأ ابنهما يرفض الطعام المُقدَّم إليه في المنزل، فيجبرانه على الأكل، وإن قليلًا.

اتَّصلت معلّمتهُ في اليوم الرَّابع، وطلبت أن تقابل أحد الأبوين.

قال جابر: يبدو أنَّ الموضوع أخطر ممَّا كنَّا نتصوَّر.

ـ سأذهب اليوم قبل ساعة من انصرافه لأقابل المعلّمة.

ـ سأذهب معكِ.

أخبرتهما المعلّمة بأنَّ تصرُّفات ابنهما باتت غريبة. ونصحتهما بأن يعرضاه على طبيب مختصّ، ربَّما طبيب نفسانيّ. في فترات الاستراحة، يتصرَّف كأن صديقة القتيل ما زال موجودًا، ويقتطع قسمًا من طعامه ويعطيه له. هو مقتنع تمامًا بأنَّه ما زال حيًّا. لا يتسبَّب بأيّ مشاكل في أثناء الدروس، لكنَّه في الاستراحات يتصرَّف بشكل أقرب إلى السلوك المَرَضِيّ.

يستمع الزوجان مذهولَين. لم ينبسا ببنت شفة. يسند الرجل زوجتهُ بيده، وقد بان عليها التأثُّر الشديد. «شكرًا لك على إخبارنا»، يقول جابر. يحسّ بأنَّ صوته هنا بات غريبًا عنه. صوتٌ يأتي من خارجه، يأتي من مكان بعيد؛ صوتٌ محايد لا تمايز فيه؛ صوتٌ كصوت الرِّيح حين تمرّ في غابة مطريَّة. «يمكنه التغيُّب عن المدرسة غدًا إنَّ قرَّرتما عرضه على اختصاصي»، تقول لهما المعلّمة ذلك، طالبةً منهما، بصراحة، تغييبه عن المدرسة بالسُّرعة القصوى وعرضه على الطبيب. لا بدّ من أنَّه بدأ يتسبَّب بمشاكل من نوع معيَّن.

قال الأب: حسنًا، سوف نعرضه غدًا على اختصاصي.

ـ أتمنَّى له الشِّفاء العاجل.

ـ شكرًا لكِ.

ظلّا صامتين في طريق العودة إلى البيت. الطفل فقط هو من كان يتكلّم. يطلب من أمّهِ أن تضاعف حصّتهُ من الطعام غدًا إلى المدرسة. تسألهُ عن السّبب.

ـ سأعطي صديقي جزءًا من طعامي.

تنظر الزّوجة إلى عيني زوجها، وتبكي.

في المساء، كان الطفل صامتًا طوال الوقت. في عينيه شيءٌ غريب؛ شيءٌ لا يشبهُ الطاقةَ التي نراها في عيون الأطفال، أو حتّى الفرح الصامت. كان في عينيه شيء يشبه الصّمت البارد؛ الصّمتُ الميّت.

اصطحبا طفلهما إلى المشفى الوطنيّ، غيرِ البعيد، في صباح اليوم التالي. تقول الزّوجة: «هناك سيُعالَج مجانًا، فلا قدرة لنا على مصاريف المشافي أو العيادات الخاصّة». ويوافق الزوج صامتًا.

المشفى الوطنيّ عبارة عن بناء من العهد الاستعماريّ، كان في إحدى مراحلهِ ثكنةً عسكريّة للجنود، ثمّ حوّلوه إلى مشفى. يدخل الزّوجان من البوّابة الرئيسة.

ـ من فضلكَ، أين نجد قسم الأمراض النفسيّة؟

الحارس، في زيّه الحربيّ، كان يُطلّ من فتحة صغيرة في غرفة الحراسة. يرشف الشاي ويستمع إلى أغنية تصدح من الرّاديو. لم يردّ على سؤال الزّوجة، بل أشار بيده إلى الداخل. أمسكت يد زوجها وسحبته. هذا الحارس لا يدري شيئًا عن المشفى، هو فقط يحرس البوّابة.

المشفى من الداخل يشبهُ سوقًا كبيرة قذرة. قطرات من دم كانت موزّعة على درج المدخل الرئيسيّ. يرى جابر الدم، ويهرب بنظره إلى الجهة الأخرى من الشّارع حيث انتصب بناء فخم. يقرأ الكلمات على اللّافتة العملاقة: «الحزب الوطنيّ الاشتراكيّ».

كان المرضى موزّعين في الدّاخل، في كلّ مكان. رجال ونساء وأطفال، بعضهم يحمل كيس المصل الخاصّ به وينتظر دوره للمعاينة، والآخرون توزّعوا على مقاعد نصف مكسّرة، ينظرون في الفراغ لعلّ معجزة تحلّ هنا.

ثمّة عجوز، كان يبكي بصمت. يجلس على الأرضيّة المتّسخة قرب باب إحدى الغرف. ينظر جابر إلى الرجل الذي هرب بعينيه نحو الأرضيّة. ذكّره بكاؤه الصّامت بشيء ما؛ شيءٍ سحيق في أعماقه؛ ذكرى رآها. يرتفع بنظره فوق رأس الرجل، ويشاهد لافتةً كُتبَ عليها: «صحّة الوطن في صحّة أبنائه».

تقدّمت الزّوجة الجميلة وسألت ممرّضًا. الرجل الذي انبهر بجمالها قال: اتبعوني. صعدوا إلى الطابق الثاني، فأشار الممرض إلى جهة أحد الأبواب، وقال: هنا استقبال الحالات الإسعافيّة، عليكم المرور من هنا، والطبيب المختصّ سيحوّلكم إلى العيادة المعنيّة.

المرضى الذين ينتظرون أدوارهم للمعاينة كانوا يُعَدُّون بالعشرات. عليهم الانتظار بضع ساعات هنا. «لا بأس سننتظر»، تقول الزوجة التي جذبت كلّ العيون إليها. «أحسّ بشيء من روحي يغادرني إلى الأبد»، يجيب جابر.

خرج أحدهم من غرفة المعاينة. الرجل الذي يرتدي مريولًا أبيض كان ينظرُ إلى وجوه المراجعين المجتمعين أمام الغرفة بغير رضا. بدأ الطبيب يصرخ في المرضى: «ألم تتعلّموا بعدُ الوقوف في نسق واحد». يصرخ كقائد عسكريّ في جندهِ. تتكسّر نظرات المرضى على الأرضيّة الباردة. وصل الطبيب بنظره حتّى وقعت عيناهُ على الزّوجة الجميلة، فاعتدل في وقوفه، وخفّف لهجتهُ القاسية، الناريّة: «قفوا خلف بعضكم لتحافظوا على النّسق، كلّ يدخل في دوره».

دخلوا بعد أربع ساعات من الانتظار. كانوا واقفين طوال الوقت تقريبًا، لأنّ المقاعد ما كانت تكفي لربع عدد المراجعين. دخلت الزّوجة أوّلًا لتشرح حال ابنها للطبيب، وتركت جابرًا والطفل في الخارج. قالت لزوجها «يُفضَّل ألّا يسمع الطفل حديثي الأوّليّ مع الطبيب». «معك حقّ»، أجابها جابر.

شرحت الزّوجة للطبيب حالة الطفل، فنادى الأخير على الصغير وفحصه. يقول الطبيب إنّه يرى في عينيه ونظرتهُ شيئًا غريبًا. قد يكون مخطئًا. «لكن يجب عرضهُ على اختصاصي بالأمراض النفسيّة والعقليّة».

ـ هذا ما جئنا من أجلهِ، هل يمكن أن تحوّلنا إلى القسم المختصّ؟ يجيبها الطّبيب، في لهجة أقرب إلى الاعتذار، وهو يحدّق في عينيها

الساحرتين وقوامها الفتّان:

ـ للأسف، لا يوجد اختصاصي أمراض نفسيّة في المشفى. عليكم استشارة مشفى أو عيادة خاصّة.

ـ ألا يمكننا المحاولة في مشافي الدولة الأخرى.

ـ ستجدون الشيء ذاته في كلّ المشافي، الدولة لا تخصّص أطباء في مشافيها لهذا النّوع من العلاج، والسّبب لأنّه نادر الحدوث. فليس هناك الكثيرون ممّن يمتلكون الجرأة على أن يصرّحوا عن مشاكلهم النفسيّة.

ـ وهل تكلفة العلاج مرتفعة؟

ـ ليس لديّ أدنى فكرة، سيّدتي.

خرجوا من المشفى عند الثانية ظهرًا وعادوا إلى المنزل. بحثت الزّوجة في دليل الهاتف عن طبيب مختصّ بالعلاج النفسيّ. اتّصلت بأحدهم، وحدّدت موعدًا عند الرّابعة من اليوم نفسه. يفكّر جابر كم سيكلّف علاج الطفل. كانت المدّخرات من تعويض نهاية الخدمة تنقص. لن تكفي شهرين في أفضل تقدير، ثمّ باغتته مصاريف العلاج التي لا يدري كم ستكون. اقتربت زوجته منه وهمست في أذنه:

ـ لا تفكّر كثيرًا، نحن نسيرُ إلى قَدَرنا المرسوم؟

كانت عيادة الطبيب الخاصّة فخمة للغاية، لا تشبه في شيء المشفى الوطنيّ. يشاهد جابر البذخ في الفرش والإضاءة، ويتحسّس بيده النقود في جيبهِ.

شرحت الأمّ للطبيب حالة طفلها، وأخبرته بما قالت المعلّمة. وطرح الطبيب على الطفل عددًا من الأسئلة التقليديّة، ثمّ طلب من الزّوجين مغادرة الغرفة. بقي الطفل مع الطبيب وحيدَين.

مكثا لمدة نصف ساعة، ثمّ استدعاهما الطبيب. طلب من جابر اصطحاب ابنه إلى غرفة الانتظار، واستبقى الأمّ:

ـ يعاني الطفل حالة حرجة. هو يعتقد أنّ الطفل الميّت ما زال موجودًا، ويدافع مستميتًا عن وجوده. لقد كان لخبر موت صديقه الأثرُ البالغ في نفسه. يرفض أن يصدّق موته، لأنّه كان، على ما يبدو، يحبّه كثيرًا. وبما أنّ العقل قد سهّل المهمة في افتراض وجود الطفل كاملًا، فذلك ربّما سيؤدّي إلى افتراضات أخرى. الوهم في استحضار الشيء

(الصديق في حالة طفلك) باعتباره حقيقة كاملة، هو بداية لهلوسة مَرَضيَّة، قد تتطوَّر إلى الأسوأ. باختصار، حالة الطفل حرجة للغاية، وهو يحتاج إلى العلاج، ربَّما لفترة طويلة، سنبدأها هنا في العيادة، فإنَّ وجدنا تحسُّنًا في حالتهِ تابعنا، وإلَّا فنحن مضطرُّون إلى أن نرسلهُ إلى المصحّ، أقصد مشفى الأمراض العقليَّة التخصُّصيّ. الغريب في حالة الطفل هذه أنَّها نادرة. نادرًا ما يُصاب أطفال بهذا العمر بمشاكل نفسيَّة. هم كأوراق ما زالت شبهَ بيضاء. لم تقسُ عليهم الحياة ولم يُسجِّلوا في ذاكرتهم مشاهد مؤلمة كثيرة، بعكس البالغين. لكنَّها تحدث أحيانًا كطفرات في علم النَّفس. لا نعرف سببًا مؤكَّدًا لها، فهناك من يعتقد أنَّها تنتقل عبر الأجيال، شأنُها شأنُ الأمراض الأخرى. مشاهد ومواقف وتراكمات تنتقل عبر الأجيال.

ومن الأفضل أن يتوقَّف عن الذهاب إلى المدرسة لبعض الوقت، ويُفضَّل أن يبقى تحت مراقبتكما. وإن ساءت حالتهُ فجأة فعليكما إخباري في الحال.

أنهى الطبيب حديثه. وحين خرجت الزَّوجة من غرفته، رأى جابر الاضطراب على وجهها ومحاولة كبت الدمع في عينيها، وقد جعلهما الحزن أكثر جمالًا. الحزن يعطي المرأة صفات لا تعطيها إيَّاها أيُّ عاطفة أخرى. يصبح الوجه الأنثويّ أكثر عذوبة وصدقًا، بل يصبحُ أكثر أمومةً. ربَّما يقرِّب الحزن الإنسان عمومًا، والمرأة خصوصًا، من الحالة الأكثر طبيعيَّة. ربَّما كان الحزن هو العاطفة الأولى التي اختبرناها حين طردتنا السَّماء ـ بسبب تفَّاحة ـ من جنتها، وبات يُمثِّلُ فينا رجوعًا نحو البداية.

دفع جابر إلى سكرتيرة الطبيب ربع المدخَّرات، وأخبرته بأنَّ تكلفة الجلسة تختلف تبعًا للوقت الذي يمضيه الطبيب برفقة المريض، وحدَّدت لهما موعدًا بعد يومين.

أعطى جابر زوجته، في طريق العودة، بعضَ النقود لتشتري الدواء الذي وصفه الطبيب.

وقال لها: سأمر بالسُّوق، عليَّ أن أشتري شيئًا للعشاء.

ـ لكنَّنا لسنا في حاجة إلى شيء.

ـ لن أتأخَّر كثيرًا.

قال هذه العبارة، وانفصل عنهما، قاطعًا الشارع.

«مساء الخير، هل يمكنني التحدُّث مع مدير الشركة؟»

«بكلّ سرور»، أجابته السكرتيرة.

ـ مساء الخير، سيّدي المدير، أنا الشخص الذي قابلتهُ قبل خمسة أيّام من أجل الوظيفة.

ـ نعم، أذكرك.

لهجة المدير الباردة سقطت على جابر كالسيل. هل وجد شخصًا اخر للوظيفة المشؤومة؟

ـ هل ما زالت الوظيفة شاغرة؟

ـ نعم، ما زالت شاغرة.

ـ أنا موافق على العمل.

ـ هذا جيّد، لم أتوقّع أن ترفض عملًا سهلًا ومربحًا كهذا.

وذ حينها لو يقول للمدير، إنّه يفضّل الموت على عمل كهذا، لكنّ مرض طفله قد جعله رجلًا آخر.

قال له المدير: هل يمكنك المرور الآن بالشركة؟ هناك مهمة قريبًا. الساعة الآن تقترب من الخامسة، وسأغادر مكتبي عند السّابعة.

ـ حسنًا، سأمرّ بك الآن. مع السّلامة.

ـ مع السّلامة.

وصل إلى الشركة عند الخامسة والنّصف. السكرتيرة غائبة، لا بد من أنّها أنهت عملها مبكرًا اليوم.

كان المدير يجلس في الصالة على مقعد من الجلد الفاخر، ولمّا رآه، قال له:

ـ أهلًا بك. لم تتأخّر.

ـ كنتُ قريبًا حين اتُّصلت بك.

ـ حسنًا، لندخل مكتبي.

تابع:

ـ بعد أربعة أيّام، وتحديدًا يوم الجمعة القادم، ستكون مهمَّتك الأولى. ما زال لدى أهل المريض الأمل في أن يموت ولدهم من تلقاء نفسه، ولهذا فهم ليسوا في عجلة من أمرهم. الجمعة عند السَّادسة مساءً ستذهب إلى «مشفى الرَّبيع» في الحي الخامس. ستدخل الغرفة رقم «سبعة». وستجد هناك بعضًا من أهل المريض، وربَّما بعضَ أصدقائه. ستتصرَّف كأيّ صديق للعائلة. تحيِّي الجميع ببساطة ثمَّ تلتزم الصَّمت. بعد دخولك ببضع دقائق، سيبدأ الموجودون بمغادرة المكان حتَّى تبقى وحيدًا. سيتركونك لأكثر من عشرين دقيقة مع المريض. أنت في حاجة فقط إلى ثلاث دقائق. في اللَّوحة الإلكترونيَّة إلى جانب المريض، في الجهة اليسرى منه، ستجد زرًّا أزرق اللَّون، هو زرّ جهاز الأوكسجين. سيكون الزرّ في وضعيَّة التشغيل. ستفصله لمدَّة ثلاث دقائق، وتنظر إلى راسم ذبذبات القلب، فإن وجدتها خطًّا مستقيمًا تعيد الزرّ إلى وضعيَّة التشغيل، وإلَّا فستنتظر حتَّى تصبح الذبذبات خطًّا مستقيمًا.

المهمَّة سهلة جدًّا، لكن عليك الانتباه لراسم ضربات القلب.

ـ تقصد حتَّى أتأكَّد من موت المريض.

ـ تمامًا كذلك. حين تُنهي مهمَّتك لا داعي للانتظار. ستغادر فورًا وتأتي إلى هنا، تأخذ النقود وتذهب. وسأتَّصل بك مجدَّدًا عند المهمَّة الثانية.

ـ وهل المريض مُسنّ؟ أهو رجل أم امرأة؟

ـ لا تسأل أمورًا كهذه. ليس مهمًّا معرفة المريض، والأفضل لك ولنا ولأهلِهِ، عدمُ المعرفة. هم لن يعرفوا مجرَّد اسمك، ولست في حاجة إلى معرفتهِ هو أيضًا.

إن حدث أيّ تغيير فسأتَّصل بك، أو يمكنك الاتِّصال بي الخميس مساءً لتأكيد كلّ شيء.

حسنًا، سأتَّصل بك الخميس مساءً.

ـ هل لديك أيّ استيضاح أو سؤال؟

ـ كلا، التفاصيل واضحة.

ـ حسنًا، إلى اللِّقاء يوم الجمعة عند السَّابعة مساءً.

ـ إلى اللِّقاء.

عادَ إلى منزلِهِ بعد أن اشترى بعض السكاكر لطفله الذي كان جالسًا قرب أمّهِ حين دخل جابر البيت. لم يهبّ كعادتهِ ليستقبل أباه ويسأله عمّا في الكيس.

بعد العشاء، أخذت الزّوجة طفلها لينام، وعادت تجلس قبالة جابر.

- لا تقلقي، سيكون بخير، سنعالجه حتّى يُشفى.

- ومن أين سنأتي بالنّفقات الباهظة إذا تقرّر نقلهُ إلى المصح.

- وجدتُ عملًا.

- حقًّا، أين؟

- سأعمل في شركة لدفن الموتى.

- يا ربّ السّماء، أيّ عمل هذا.

- سأقوم بتنظيف الشركة ونقل بعض الأغراض. عمل ليس متعبًا جدًّا، وسيكون أجري في هذه الشركة ضعف أجري في عملي السّابق.

تنظر الزّوجة إلى عينيه. هو يدرك أنّها لم تصدّق قصّته، لكنّه لا يستطيع إخبارها بالحقيقة: أتعلمين، سأعمل كقاتل رحيم، أفصل أجهزة الأوكسجين لمرضى في الغيبوبة ميؤوس من شفائهم.

لا يمكنه أن يقول لها هذه الحقيقة الفظيعة، ولا يمكنه أيضًا، إن صارحها، أن يسمع ردّة فعلها:

- لا يمكنني العيش مع قاتل، أنت مجرم.

وحينها سيقول لها: ليس لديّ خيار آخر، هي الطريقة الوحيدة لعلاج الطفل. لم أجد أيّ عمل اخر، والجلسة الثانية مع الطبيب بعد غدٍ.

- ستقتل ليحيا طفلك. أنت وحش بشريّ.

لا يمكنه إخبارها بالحقيقة، هذا مستحيل. ستحتفظ الزّوجة اللّفاحة ببعض الشكوك بشأن عمله، لكنّ ذلك أفضل ألف مرّة من معرفتها الحقيقة.

تعود الزّوجة لتسأل:

- كيف ستتقاضى راتبًا أكبر في شركة لدفن الموتى؟

- أرجوك يا امرأة، إنّي محطّم الآن. خطام بشريّ يمشي على

قدمين. أحسّ بأنّ شيئًا من روحي قد فارقني إلى الأبد. أرجوكِ، أحتاجُ إليك أكثر من أيّ وقت مضى. أحتاج إليك أكثر من أيّ شيء في هذا الكون. أحسّ بالأشياء تنسحبُ من بين أصابعي كالماء. أحسّ بأنّي ذاهبٌ إلى المجهول.

بقيت الزوجة صامتة للحظات، ثمّ جاءت تجلس قربه. كان يفكّر في أنّه في الغد القريب لن يعود جابرًا الطيّب، بل سيصير قاتلًا. سيصبح قاتلًا مأجورًا. سينهي حياة إنسان بيديه ليحيا هو وابنه. قد يجد ألف مبرّر لفعلتهِ، ألف كذبة يكذبها على الآخرين، لكنّه لن يستطيع أبدًا أن يكذب على نفسهِ. كان، فيما مضى، إنسانًا كامل الإحساس بإنسانيّته. صحيح أنّه فقير، لكن لا شيء يؤرّق نومه إلّا جوعٌ وعَوَز. وفي الغد، سيؤرّقهُ أمر آخر: أمر سيلتصق به إلى الأبد.

مالت الزّوجة برأسها على كتفهِ، فجاءه عطرُها كريح خفيفة في حقل زنابق. مدّ يدهُ يلامس خدها، يغمُرُه بدفء فارق المكان. وطبعت الزّوجة قبلة خفيفة في راحة يدهِ.

يريد أن يحتضنها؛ أن يروي عطشهُ الأبدي إلى جمالها السّاحر؛ عطشَهُ إلى خصبها الأمومي الوافر. يريد أن يقبّل شفتيها الكرزيتين، فتأتي صورة القتيل الذي ينتظره في الغد، سدًّا منيعًا. يحاول أن يسيطر على عقله للحظات. يطرد صورة الغرفة رقم «سبعة»، ويلتفت نحو وجهها، وهي تقترب منه. ينظرُ إلى فمها المرسوم. بات يرى وجهها الجميل الآن لوحةً إلكترونيّة في غرفة مريض الغيبوبة.

يبكي جابر عجزَهُ أمام العالم؛ عجزَهُ أمام من يُحبّ. يحسّ بروحهِ غريبة عنه، يحسّ بجسدهِ غريبًا عنه، كأنّه لم يعد يتحكّم حتّى في نظراتهِ وحركات أعضائهِ. يحسّ بنفسهِ غريبًا حتّى أمام هذه المرأة الجميلة. لم يحاول إخفاء دموعه الآن، وفَقَدَ سيطرتهُ تمامًا على نفسهِ.

الزّوجة، التي تحيا مصيبةَ الطفل عينَها، أذهلها بكاءُ جابر بهذه الطريقة. تحسّ بأنّها تحوّلت إلى أمّه هو من جديد. أمَ لرجلٍ في الأربعين من عمره، وهي لم تتجاوز بعدُ الثلاثين.

«اقتربْ منّي»، تقول له، وتأخذهُ لصيقًا إليها. تميل بجذعها على الكنبة الفسيحة وتسحبه معها. يغرق رأسهُ في صدرها الدّافئ. تحيط يدٌ بظهره ويدٌ برأسهِ. جابر لا يتحرّك.

استيقظ في الصّباح على صوت طفله ينادي أمَّه. خرجت الزَّوجة من المطبخ وأعطت الطفل شطيرة صغيرة، لكنه يرفض الطعام، فتقول له: «إن لم تأكلها، فلا دراجة هوائيّة هذا الصيف»، فيأخذ الطفل الشطيرة.

اقترب جابر منها: «سامحيني، فليلة أمس كنتُ مُحطَّمًا». تبتسمُ لهُ ابتسامة صغيرة؛ ابتسامةً لا يُتقنها إلّا الذين يملكون أرواحًا شفَّافة؛ ابتسامةً تقول كلّ شيء في صمتها. وتقترب تضمّهُ إليها، لتمنحَهُ بعض دفء غائب.

ـ سأصطحب الطفل في نزهة. قال الطبيب إنَّ النزهات في الهواء الطلق ستكون مفيدة له.

ـ حسنًا، كما تشائين.

ـ لن نتأخَّر كثيرًا، سنكون هنا قبل الغداء.

ـ مع السَّلامة.

خرج إلى الشَّارع هو الآخر. مرّ بالسُّوق القريبة يشتري خبزًا وبعض الحاجيات. كانت السُّوق مزدحمة كالعادة، كلّ صباح. كان يحبّ هذه السُّوق كثيرًا. يحسّ بشيء حميم يربطه بها. الباعة خلف بسطاتهم في الهواء الطلق يذكّرونه بزمن جميل. يمكنك المساومة هنا، فالأسعار ليست ثابتة دومًا. ثمار البرتقال القادمة من الساحل كانت تملأ المكان برائحتها العطريّة. اشترى حاجته من البرتقال ومن الجبن القادم من الريف، وعاد إلى منزله.

في صباح الغد، اصطحبا الطفل إلى عيادة الطبيب. وبعد أن فحصهُ منفردًا، أكّد أنَّ حالتهُ في تدهور مستمرّ. فهو يحادث الطفل القتيل علانيّة، ويقول للطّبيب إنَّ صديقه مرّ به البارحة في المنزل، وأعطاهُ الفروضَ المدرسيّة التي تغيّب عنها.

الزَّوجة الجميلة صامتة، تستمع مذهولة من قرار الطبيب إدخالَه المصحَّ:

ـ إنَّه خيارك، يا سيّدتي، في رفض إدخاله المصحَّ، لكنَّني حينها لن أكون مسؤولًا عن صحّتِهِ.

- ومتى تنصح بإدخاله المصح؟

- اليوم مباشرة. سأكتب له تحويلة الدخول.

- هل لي باستشارة زوجي في الموضوع؟

- بالتأكيد، سيدتي، اجلسا في صالة الانتظار وخذا وقتيكما. وفي النهاية أخبراني بقراركما.

خرجت، وقالت لزوجها مذهولة: يقول الطبيب إنه يتوجب إدخالهُ المصحَّ اليوم. حالته في تدهور مستمرّ.

ينظر جابر إلى الأرضيّة الرُّخاميّة، وقد أفلتت يدُهُ يدَ الطفل.

- قل شيئًا يا جابر، لا تبقَ صامتًا.

يسألها: وهل لدينا خيار آخر؟

- لا أعتقد.

- فلندخلهُ.

- والمصاريف، يا جابر؟

- سأتدبّر أمري، لا خيار لدينا.

ويمسك يدها التي باتت باردة كقطعة جليد، ويدخلان غرفة الطبيب من جديد.

- هذه تحويلة دخول المصح. يُفضّل إدخالُه فورًا. أنا طبيب أعمل في هذا المصح، أمرُّ بالمرضى مرّتين في الأسبوع. لا تقلقا، سأخبركما بكلّ التطوّرات.

تَسأل الأم بحرقة: هل يمكنني زيارته؟

- هناك، سيخبرونك بالتّعليمات.

أبلغاهما في المصح أنّ في إمكان أحد الزّوجين زيارة الطفل يوميًا في فترات الاستراحة، ما بين الثانية عشرة والواحدة ظهرًا.

وانفرد الطبيب المسؤول بالطّفل ساعة كاملة، أخبرهما بعدها بأنّ حالتهُ سيئة بعض الشيء، ويأمل أنّ إقامته بالمصح لن تطول أكثر من أشهر قليلة، خمسة أو ستة أشهر.

وحين ذهب جابر ليدفع مصاريف الشهر الأوّل مُقدّمًا، أذهلهُ الرّقم المطلوب. ما يعادل أربعة أضعاف أجره الشهريّ القديم، للإقامة

والعلاج والدواء، وللخدمات الأخرى، كالطعام والنُزهات. لم يكن يملك هذا المبلغ حينها، فدفع نصف المبلغ، ووعد بسداد بقية تكاليف العلاج في الأسبوع القادم. ولم يبقَ معه إلّا القليلُ؛ القليلُ الذي لا يكفيه أسبوعًا واحدًا.

حان وقت انفصال الأبوين عن الطفل. وبعكس ما توقعا، لم يبكِ ابنهما طالبًا البقاء مع أمّهِ حين شرحت له أنّهما سيتركانه هنا لأنّه في حاجة إلى العناية. واكتفى فقط بسؤالها إن كانت ستزورهُ في الغد؟ فأجابت محطّمة القلب: نعم.

يرى جابر ردّة فعل الطفل الغريبة وغير المفهومة على انفصالهِ عن أبويه، يرى هدوءهُ وعدمَ اعتراضهِ، كأيّ طفل آخر، ويدرك عندها حجم الكارثة التي حلّت بروح ابنه.

في البيت كانا صامتين. المرأة، التي كانت حتّى الأمس، قويّةً مواسية، فقدت شيئًا بغياب الطفل، فصمتت. نامت ليلتها في غرفة النوم وحيدة.

أمّا جابر، فبقي في الصالة حتّى الصّباح. لم يغمض لهُ جفن. ونامَ بعد أن أشرقت الشمس. نام جالسًا على الكنبة في الصالون. وحين همّت زوجته بالخروج لزيارة الطفل، أيقظته:

ـ استرخِ في نومك، ستصاب بالبرد هكذا.

وألقت غطاءً فوقه، وخرجت تزور الطفل في المصحّ.

خرج إلى الشّارع، واتّصل بالشّركة:

ـ سيّدي المدير، أنا الموظّف الجديد.

ـ أهلًا.

ـ هل من تغيير بالنسبة إلى يوم غد الجمعة؟

ـ لا تغيير. كلّ شيء على حالهِ، بحسب اتّفاقنا.

ـ حسنًا، سأمرّ بك بعد السّادسة.

ـ إذن، أنتظرك، حظًّا موفّقًا في مهمّتك.

ـ شكرًا لك.

ـ مع السّلامة.

يحيا الطفل في سلام داخليّ. بكلمة أدقّ، يتصرّف كأنّه أكبر سنًّا من سنواتهِ السّبع. لقد كَبِر فجأة لسنوات كثيرة. عيناه وجلسته وكلامه الهادئ، واستقبالُه شبه البارد لأمّهِ، أمور صدمتها. فحين رآها في نهاية الممرّ قادمة لم يركض ـ كما تخبرنا الطّبيعة والقصص ـ ليُلقي بنفسه بين ذراعيها، لم يحاول زرع رأسه الصغير في صدرها الأموميّ حين أخذتهُ في حضنها الدّافئ. يتصرّف معها كأنّه رجل كهل أشبعته الحياة صُوَرًا ومواقف، يلتقي صديقة قديمة على ناصية شارع.

جمّد اللّقاء البارد الدمَ في قلب الأمّ. بدأت تُخفي دمعها، وقد أدركت هي الأخرى حجم الكارثة. لكنّها تمالكت نفسها وتصرّفت بشكل طبيعيّ. ضحكت معه ومازحته، وأعطته قبل ذهابها بعضَ الحلوى التي اشترتها له.

مرّة أخرى، كان المنزل باردًا حين عادت إليه. أخبرت جابرًا باستقبال الطفل البارد لها. كانت تجلس على كرسيّ قبالتَهُ، وترى الكلمات تسقطُ في قلبهِ كجمر مشتعل أحمر.

مرّة أخرى، بقي جابر مستيقظًا اللّيلَ كلّه، والأمُّ مستلقية في غرفة النوم، تغفو قليلًا، ثمّ تستيقظ على حلم مزعج.

جاء يوم الجمعة. استيقظ جابر ظهرًا بعد أن غفا ساعات قليلة على الكنبة في الصالة. استيقظ على صوت زوجتهِ تحادث أحدهم عبر الهاتف:

ـ كيف نام ليلته. حمدًا للّـه. نعم، سأزوره اليوم أيضًا عند الثانية عشرة. لا تهتمّ، سأخبرهُ بضرورة دفع بقية المصاريف في موعدها. شكرًا، يا سيّدي الطّبيب. مع السّلامة.

جاءت الزّوجة وجلست قرب جابر. قال لها:

ـ سمعتُ. يطلبون بقية المصاريف، سأدفعها غدًا، لا تهتمّي.

ـ من أين ستأتي بمبلغ كهذا؟ المبلغ المطلوب كبيرٌ جدًّا.

ـ الشيطان سيرسل إليّ نقودًا اللّيلة. الشيطان، أو اللّـه، لست أدري.

ثمّ قال صارخًا:

ـ أرجوكِ، لا تسأليني شيئًا، أنا على حافّة الجرف الأخير. دفعةً واحدة صغيرة، وأعانق الهاوية.

ثمَّ يمسك يدها:

ـ سامحيني، نحن معًا في دوَّامة واحدة. لم أقصد إيذاءك أكثر، فما تتحملينه يكفيك لأعمار وسنوات.

أمسكت يده باكية، ومالت على صدرهِ. لفَ يدهُ الحرَّة على كتفها العارية، وضمَّها.

ذهبت الزَّوجة لزيارة الطفل في المصحَ.

اليوم هو الجمعة، تتردَّد الجملة في سمعه آلافَ المرات.

كان يحاول أن يتصرَّف كأنَّ المساء في هذا اليوم لن يأتي، أو كأن الوقت سيقفز بين الخامسة والسَّابعة. وستمحو ذاكرةُ الوقت السَّاعةَ السَّادسة من التوقيت.

يمكنه أن يفكّر في أنَّه في السَّادسة سيحضر حفلًا راقصًا مع زوجته، تؤدّيه إحدى فرق البالية الأجنبيَّة؛ أو أنَّه سيأخذ حمَّامًا ساخنًا. هذا جيِّد، حمَّام ساخن في بدايات الشتاء، ثمَّ يشرب كأسًا من الشاي مع زوجته، ويتابعان برنامجًا مُسليًا. يفكّر: ما أجمل هذا الأمر، لو أنَّه يحدث فعلًا. ثمَّ يخطر في باله أنَّه، في تلك السَّاعة، سيكون مع زوجته في زيارة للطفل في المصحّ. وسيخبرهما الطَّبيب بأنَّ ابنهما عادَ في صحَّة كاملة، ويمكنهما اصطحابُه إلى المنزل. سيجد عملًا كحمَّال في شركة شحن، نعم. ما أجمل هذا. لن تخسر دورة الحياة الأبديَّة شيئًا إن تحقَّق هذا الأمر. هي ليست معجزةً يطلبها تشقّ البحر نصفين، ولا مجزرةً سيُقتل فيها ملايين كثيرة لسبب لا نعرفه. إن تحقَّق ما يفكّر فيه، فلن يُضاف إلى التاريخ سطرٌ، ولن يُمحى سطرٌ.

لكن الحقيقة في مكان آخر، عند السَّادسة سيكون في «مشفى الرَّبيع».

ينظرُ جابر إلى الرجل الكبير: «أرجوك أن تُوقف هذا، أليست لك القدرةُ على أن تمنع الألم؟» يبتسم الرجل الكبير: «لا أستطيع أن أمنع الألم، فإن منعتُه فإنِّي أمنع الحرِّيَّة».

بعد الغداء، الذي لم يأكل فيه غير لقيمات معدودة، قال إنَّه يشعر ببعض التعب، وذهب واستلقى على الكنبة. دخلت زوجته غرفة النوم لتأخذ بعض القيلولة. كان يريد أن يبقى وحيدًا: ماذا لو فتح الرجل (أو المرأة) على سرير الغيبوبة عينيه قبل أن يموت؟ ما عساه يفعل؟ ماذا لو أنَّ جهاز تخطيط القلب لم يرسم خطًّا مستقيمًا في نهاية الدقائق الثلاث؟ هناك أشخاص يرفضون الموت، ويكون تعلُّقُهم وتمسُّكهم بالحياة قويين إلى درجة غريبة. بعض إرادات الأشخاص تحدَّت الموت، بل إنَّ أشخاصًا قاموا من بين الأموات. تخيَّل لو أنَّ الرجل بعد أن يموت، ويرسم له الجهاز خطًّا مستقيمًا، يصحو، ثمَّ ينتصب على قدميه ويهاجم جابرًا: أيُّها القاتل المأجور!

يقودُ سيَّارة رياضيَّة بسرعة جنونية. يضغط جابر على دوَّاسة

الوقود حتى أقصاها. يمرّ بعض البشر بعكازات يعبرون الشّارع. يقهقه ضاحكًا ويقول: من لم يتسنَّ له الوقت ليعبر، فليبقَ. يبدأ العجزة يتطايرون على جنبات الرّصيف. تصدمهم السّيّارة المسرعة، وتُرديهم جثثًا تسبح في برك من الدّماء القانية، وجابر يضحك كالمجنون. تدخلُ السّيّارة نفقًا لتخرج من الجهة الأخرى. يا اللّه! المكان مظلمٌ هنا. لا أنوار في شوارع المدينة. كيف يقود السّيّارة في هذا الظلام الدامس. يترجّل ويبدأ يركض. صوت يصرخ في أذنيه: لقد تأخّرتَ. يركض على طول شاطئ رمليّ. نساء عاريات يقفن في صفّ طوليّ على الشاطئ، يحملن أطفالًا بين أيديهن. يركض جابر. الصّوت يتضخّم حتّى يصبح كصوت بوق عظيم: لقد تأخّرتَ. وحين ينتبه للأطفال في أحضان النسوة العاريات، يعرف أنّهم موتى. يصرخ: لا، لا، لا.

«استيقظْ يا جابر». يفتح عينيه على وجه يعرفه. «كنت تصرخ، لا بدّ من أنّه كابوس». تساعدهُ زوجته ليجلس وهو غارقٌ في عَرَق بارد.

- كم السّاعة؟

- إنّها الخامسة والنّصف.

قفز من مكانهِ، «لقد تأخّرتَ»، يتردّد صدى الجملة مرّة أخرى. «عليّ المغادرة بسرعة». تسأله زوجته المذهولة من تصرّفه الغريب:

- أين تذهب في هذه السّاعة؟

- إنّه موعد تنظيف الشّركة.

خرج وزوجته تتبعه حتّى الباب. أغلقته خلفه، وعادت تجلس على الكنبة. باتت تصرّفاته غريبة جدًّا، تفكّر الزّوجة: فقدانُهُ وظيفتَه ومرضُ الطفل. أي قَدَر هذا!

كان يركض في الشّارع لعلّه يلحق بالحافلة. وحين وصل إلى مرأب الحافلات وقرأ ورقة مواعيد انطلاقها، اكتشف أنّ الحافلة القادمة لن تنطلق حتّى الخامسة وخمسين دقيقة، وهي تحتاج إلى نصف ساعة لتصل إلى الحيّ الخامس؛ أي سيصل متأخّرًا عشرين دقيقة.

ينظرُ إلى ساعتهِ. الخامسة وأربعون دقيقة. لا يمكنه الذهاب سيرًا على قدميه، سيستغرق الأمر أكثر من ساعة. لا خيار الآن إلّا سيّارة أجرة، سيدفع ثلاثة أو أربعة أضعاف أجرة الحافلة. لا خيار آخر

لديه.

ـ الحيّ الخامس من فضلك، مشفى الرَّبيع.

ـ نعم، يا سيّدي، أعرفه.

يقود سائق سيّارة الأجرة بسرعة متوسّطة، فسأله بلطف:

ـ أرجوك، هل يمكنك زيادة السُرعة قليلًا؟

ـ حسنًا، لا بدّ من أنَّك في زيارة مستعجلة لمريض.

ـ هو كذلك.

وصل إلى المشفى قبل السّادسة بخمس دقائق. البوّابة هنا لا تشبه بوّابة المشفى الوطنيّ. الدَّرج المؤدّي إلى البناء كان نظيفًا ويلمع، والممرّات نظيفة. تقدّم نحو موظّفة الاستعلامات:

ـ من فضلك، أين أجد الغرفة الرَّقم سبعة؟

ـ في الطّابق الثاني. يمكنك صعود الدَّرج، أو استخدام المصعد.

وصل إلى الغرفة الرَّقم سبعة. كان الباب مغلقًا. إنَّها السّادسة تمامًا. هل يدخل مباشرة، أم ينتظر أحدهم ليفتح له الباب؟ قال له المدير: تصرَّف كصديق قديم. الأصدقاء عادة يقرعون الأبواب ويدخلون. نعم هذا صحيح.

الغرفة غارقة في صمت القبور. ماذا لو كان المريض وحيدًا. لا، هذا مستحيل. أكّد له المدير أنَّه سيجد بعضًا من ذوي المريض وأصدقائه.

يبتسمُ جابر في أكثر اللَّحظات سوداويّةً. تكبر الابتسامة فوق شفتيه لتنذر بخطر الضحك العالي. لا ندري كيف يحدث هذا. في عمق المأساة والتراجيديا، تأتي الفكاهةُ السّوداء كَقَدَر. يتخيَّل أنَّه يفتح الباب الآن ويتوجَّه بالحديث إلى أوَّل من يصادفه: «أنا القاتل المأجور الذي سيخلّصكم من مريضكم المزعج، يا مرهَفي المشاعر. هل أنت من يجب عليّ قتله؟» تأخذ الرجل المفاجأة ويلتفت إلى جهة من معه: «لا لستُ أنا». ويشير، والرعبُ يملأ عينيه، إلى سرير المريض. «هيا، لا تتصنَّع البراءة يا جيفة الثعلب، خذ مَن معك ودعني أقتل هذا الممدَّد على السَّرير».

يحاول أن يجعل الأمر أكثر سهولة، بتحويلِهِ إلى فكاهة، لكنَّه لا

ينجح.

يقرع الباب بهدوء ويدخل. في الغرفة الفسيحة ما يقرب من عشرة أشخاص، التفتوا إلى القادم الجديد للحظات، وتابعوا أحاديثهم شبه الصامتة. لا ينظر جابر إلى الوجوه. يقف غيرَ بعيد عن الباب ويحدّق في الأرضيّة اللّامعة للغرفة. الأشخاص الموجودون أيضًا لا ينظرون إليه، كأنَّ اتّفاقًا ضمنيًا عُقد بينهم على عدم انتهاك خصوصيّة الآخر. نرى هذا كثيرًا في الحياة: الرَّغبة في عدم معرفة الآخر؛ الآخرِ الذي سيشاركنا في الحياة لدقائق معدودة في فعل نعتبره شائنًا أو مخجلًا؛ الآخرِ العابر في الحياة، المنتظرِ أمام دورة المياه، أو البغيّ والرجل العابر.

يقول أحدهم إنّه ذاهب إلى دورة المياه. يخرج رجل وامرأة من الغرفة، ثمَّ يبدأ الجميع بالمغادرة. يبقى رجلان. «ما رأيك في أن نشرب كأسًا من الشاي في كافيتريا المشفى»؟ «حسنًا»، يقول الآخر. كانا قرب سرير المريض. يفكّر جابر في أنّه سيكون في مواجهة المحكوم بالموت بعد لحظات. ويتابع أحد الرجلين حديثه مع الرجل الآخر: «انتبه ألا تلمس الزرّ الأزرق، هذا زرّ الأوكسجين». كأنَّ الرجل يذكّر جابر بمهمَّتِهِ. أيّ عالم متلّون هذا!

يخرجان من الغرفة ويبقى جابر وحيدًا مع المحكوم عليه بالموت. يحاول أن يرفع بصره ليُلقي نظرة على الشخص الممدَّد على السَّرير، ثمَّ يتراجع. قال له مدير «شركة الحياة لدفن الموتى» إنَّ من الأفضل تجنُّبَ رؤية المريض، فذلك سيجعل المهمَّة أسهلَ. هذا صحيح، ففي المعرفة يكمن الشّقاء. يذكر أنّه سمع هذه العبارة في مكان ما.

لكنْ، كيف يقتل إنسانًا لا يعرفهُ. هذا ليس عدلًا. نظرة واحدة فقط ليرى وجهه. حسنًا، إنَّ نصف مَن قُتِل مِن البشريّة، أو ربّما أكثر، قتلهم أشخاص لا يعرفونهم. في الحرب، يقتل الجنودُ جنودًا لا يعرفونهم، ولم يلتقوهم يومًا، بل إنّهم لا يعرفون مَن قتلوا، وكيف؟ لكنْ تلك حربٌ وليست حياةً في مدينة. ما الفارق؟ الحياة حربٌ طويلةٌ، ودائمة.

لن ينظر إلى الوجه. لن يحتفظ بصورة القتيل في وعيه إلى الأبد. سيتصرّف كالجنود: يقتل شخصًا لا يراه، ثمَّ يغادر. سيحيا من دون ذاكرة تسبح فيها صورةُ القتيل.

لو أنَّ الحياة كانت عادلة، لو أنَّها تنقلُ ما يجري الآن في مصحَ الأمراض النفسيَّة إلى وعي جابر، لانسحبَ من الغرفة خفيفًا كروح بلا جسد.

لو أنَّ الحياة أبقتنا كما كنّا. تنتقل الخبرات والأخبار بين الناس كأمواجٍ، فيدرك الجميع كلّ شيء، وتصل إلى معرفة كاملة نفتقدها الآن. نفتقدها، أو ربَّما نفتقد الوسيلة للوصول إليها في غياهب عقولنا؛ في متاهة سجن يحياه كلٌّ منّا في عقلنا الظاهر.

لو أنَّ جابرًا يدري ما حدث في المصحَ لانتفى سبب وجوده هنا، ولغادر بألم واحد، سيلوّن حياته كلَّها، حياتَه الباقية.

لكنَّه لا يدري.

يقترب من اللَّوحة الإلكترونيَّة غير ناظرٍ إلى السَّرير. جعل السَّرير خلفهُ حتَّى ينفي أيّ احتمال ـ وإن بالخطأ ـ للرؤية.

يفصلُ زرَّ الأوكسجين، ويعلّق نظرَهُ في اللَّوحة الإلكترونيَّة. تمرّ الدقيقة الأولى بطيئةً وقاسية. يتمنَّى أن يتسارع الوقت، وهو يحدّق في ساعتهِ، وتعلن انتهاء الدقائق الثلاث في ثوانٍ.

ما زال الجهاز الراسمُ لضربات القلب على حالهِ، يرسمُ نهايات صغرى ونهايات عظمى. ما زال المريضُ حيًّا.

مرت دقيقة ونصف دقيقة. يقتربُ جابر من الجهاز الراسم لضربات القلب ليرى بوضوح، فيدفع بكأس ماء كانت وُضعت على الطاولة الصغيرة قربه. صوت تحطُّم الكأس في السُّكون كان أشبهَ بانفجار صغير.

يلتفتُ ـ في ردّة فعل غير إراديّة ـ ليرى ما الذي قد كُسر، فتسقُط عيناهُ مباشرة على الوجه الذي سيحيا معه إلى الأبد.

يا آلهة السَّماء المُقدَّسة. نظرةٌ واحدةٌ كانت كافية ليتعرَّف جابر الشقيُّ إلى وجه من يقتل:

المرأة التي دهستها السَّيَّارةُ الرِّياضيَّة المسرعة، قرب بائع الصحف.

يدور جابر في الفراغ كمجنون. كان وجه المرأة ينعم بسلام مُطلق. الابتسامة التي كانت مرتسمة على شفتيها قبل أن تصدمها السَيّارة المسرعة، ما زالت تزيّن ثغرها. وشعرها الأصفر منتور فوق ملاءة السرير، كأنَّ ريحًا خريفيّة قد عبثت به.

ما زال ينظر إلى وجه المرأة وقد شلّت المفاجأة أطرافه. يرى، أو يُخيَّل إليه أنَّه رأى المرأة تفتح عينيها للحظات، تحدّق في عينيه، مباشرة في عينيه. رعبٌ جابر الآن مُطلَق.

يُعيد تشغيل جهاز الأوكسجين لعلَّ المرأة لم تمت بعد: استيقظي أرجوك، افتحي عينيكِ.

حين نظر إلى الجهاز راسم نبضات القلب، لمحه يرسم خطًّا مستقيمًا. «لا، لا تموتي حبًا باللّه». يمسك معصمها ليتأكّد من النبض. لا نبض إطلاقًا. المرأة ماتت. هو من قتلها. هو، وليس السّيّارة الرّياضيّة المسرعة. انحنى على صدرها وبدأ يضغط بشكل منتظم، في محاولة يائسة لإعادتها إلى الحياة. ينظرُ تباعًا إلى الجهاز الراسم ضربات القلب، لعلَّ معجزة تحدث. الجهاز ما زال يرسم خطًّا مستقيمًا. يتصبّب العرق البارد منه، على نحو يجعلهُ يحسّ أكثر بالبرودة الجليديّة للحظة.

يفكّر - وهو يحاول إنعاش المرأة - في أن يفتح الباب ويصرخ: أحدهم يحتضر. سيأتي الممرّضون والأطبّاء، وربّما يسعفونها. يسعفون شخصًا ميّتًا! هذا غباء، بل سيأتي الأطباء ليجدوك وحيدًا معها، ثمَّ سيأتي ذووها يتّهمونك بقتلها. يا آلهة السّماء، ما العمل؟

ما زال يضغط، وينظر تباعًا إلى الجهاز. المرأة صامتة، والجهاز صامت. ماتت المرأة، هو مَن قتلها. السّيّارة المسرعة قتلت طفلها وسبّبت لابنه ربّما عاهةً نفسيّة لن تفارقه، وها هو الآن يكمل الجريمة ويقتل الأمّ.

انهار جالسًا على الكرسي الموضوع قرب سرير الميّتة. ربّما ماتت المرأة من تلقاء نفسها، هذا ممكن. ماتت حتّى قبل أن يفصل الأوكسجين. لكنّك قبل أن تفصل الأوكسجين كان القلب ينبض. ستموت ربّما، إن ليس اليوم فغدًا. افتح عينيك يا جابر. امرأة لم تبلغ الثلاثين بعد، ربّما تمتلك إرادة للحياة أكثر من أمّة حيّة، ربّما استفاقت من

غيبوبتها بعد أسبوع أو شهر وعادت إلى الحياة. أنت قاتل يا جابر، قتلت امرأة لم تؤذِك أبدًا في حياتك، بل لم ترَها إلَّا مرَّتين: مرة في جسدها الحيّ مُسجًى على الرَّصيف، ومرَّة حين قتلتها.

مرَّت ربَّما أكثر من عشر دقائق. لم يعد من شيء يفعله هنا.

يفكّر في أنَّه قتلها لسبب. نعم، لا بدَ من وجود سبب. هذه المرأة ربَّما تستحقّ الموت لألم سبَّبتهُ لي في الماضي. لا بدَ من أنَّها المرأة التي رفضت الحديث معي عندما كنتُ في المدرسة الثانويَّة. كنَّا في رحلة مدرسيَّة مشتركة مع مدرسة أخرى. نعم، هي المرأة عينها. قالت لي إنَّها غير مهتمَّة بصداقة من هذا النوع، صحيح. أنتِ تستحقّين الموت. يفكّر جابر والدَّمع قد بلَّل قميصه المغطّى بالعرق البارد أصلًا.

بل إنَّها سبَّبت لي الألم الأكبر؛ فموت ابنها يؤدّي إلى حدوث صدمة نفسيَّة لطفلي. نعم، هذا صحيح. باتت تستحقّ الموت مرَّتين.

«حبًّا باللَّه، افتحي عينيك قبل أن أرحل. قولي لي إنَّك حيَّة. لا تدعيني أحمل وجهك الجميل هذا صليبًا ما بقيت لي حياة».

سيعود ذووها قريبًا. فلترحل من الغرفة يا جابر قاتلًا. فلترحل ملعونًا. قتلت نفسًا بلا ذنب.

«هنا، ستعاقبك الحياة مباشرة، ستقتصُّ منك آنيًا. لكنَّ المفارقة أنَّ الكثيرين ينجون من هذا القصاص، ويكون جزاؤهم ثوابًا»، يقول الرجل الكبير.

يراقب جابر المشهد على المسرح مذهولًا، وقد فَقَدَ القدرة على البكاء.

عاد إلى منزلِهِ باكيًا. لم يمرّ بالشركة ليأخذ المبلغ المتَّفق عليه من مديرها. كان في عالم آخر؛ عالمٍ سيأخذه معه حتَّى النِّهاية. قدرٌ يتحقَّق.

فتح باب بيتهِ ودخل. يأمل أن تكون الزوجة غائبة عن المنزل. ليست لديه طاقة الآن لفعل أيّ شيء، حتَّى النطق.

«نعم، أنا أمُّه»، سمع زوجته تحادث أحدهم عبر الهاتف. وقف إلى جانب الباب كصنم، لا يدري أيدخل منزله أم يغادر إلى ليل المدينة. «ماذا تقول، هل الطفل بخير؟ متَّى حدث هذا؟ ماذا؟ لا، لا».

تسقط سماعة الهاتف من يدها، وتصرخ باكية، وتمزّر أظافرها

تخدش وجهها الجميل. وحين تنتبه إلى أنَّ جابر يقف قرب الباب تركض إليه: «لقد مات الطفل، مات ابننا». وتسقط أمامه مغشيًا عليها.

جاء في تقرير مصحّ الأمراض العقليّة والنّفسيّة عن حادثة موت الطفل:

«في يوم الجمعة، نام الطفل قيلولته عند الرّابعة والنصف ظهرًا. في الخامسة، سمعتْ إحدى الممرّضات صراخًا عنيفًا من غرفة الطفل، فذهبت وفتحت الباب. كان الطفل يصرخ في وجه شخص غير مرئيّ (صديقه المتوفّى): «لا ترحلْ. ابقَ معي وسنلعب معًا هنا. سأسأل الطّبيب أن يسمح لك بالبقاء هنا». وحين رأى الطفل الممرّضة غدا أكثر عدوانيّة، وطلب منها مغادرة الغرفة حتى لا يخاف صديقُه غيرُ المرئيّ. وبما أنّ الممرّضة تحيط علمًا كاملًا بحالة الطفل، قررت استدعاء الطّبيب.

يبدو أنّ الطفل بدأ يحسّ بأنّ صديقه غيرَ المرئيّ يهمّ بمغادرة الغرفة. بدأ يستجديه، باكيًا، ألّا يغادر. كانت الممرّضة تقف عند الباب في تلك اللّحظة، فأسرعت إلى إعلام الطّبيب بالأمر.

بقي الطفل في هذه الأثناء وحيدًا في الغرفة. ولا تستطيع إدارة المصحّ أن تؤكّد، بشكل جازم، حقيقةَ ما حدث بعد خروج الممرّضة.

استغرق ذهاب الممرّضة وعودتها مع الطبيب وممرضين اخرين أقلّ من ثلاث دقائق.

وحين فتحوا الباب كانت الغرفة خالية. انتبه الطّبيب إلى أنّ النافذة مفتوحة على مصراعيها. ولمّا نظر من خلالها إلى الحديقة المحيطة بالمصحّ، رأى الطفل مسجًّى على الأرض.

تعتقد إدارة المصحّ أنّ الطفل توهّم أنّ صديقه غيرَ المرئيّ خرج من النافذة فتبعه، وسقط عن ارتفاع أربعة طوابق، وفارق الحياة.

سبب الوفاة: كسور متعدّدة في الجمجمة وارتجاج في الدماغ أدّى إلى نزف شديد.

إنّ إدارة المصحّ تقرّ بخطئها في أمرين: أوّلًا: نافذة الغرفة يجب ألّا تكون سهلة الفتح، بل يجب أن تكون مغلقة تمامًا في وجه الطفل.

ثانيًا: كان يجب على الممرّضة أن تبقى مع الطفل وهو في هذه الحالة من الهيجان النّفسيّ والعاطفيّ. وأن تستدعي ممرّضة أخرى

لتأتي بالطَّبيب. في أسوأ الحالات، أن تصطحب الطفل معها.

وإذ تأسف إدارة المصحّ للحادث الأليم، تقرّ بمسؤوليّتها القانونيّة كاملة عنه.

وستقدّر إدارة المصحّ قيمة التعويض الماديّ لذويّ الطفل، في حال قرّروا المصالحة مع المصحّ وعدمَ اللُّجوء إلى القضاء.

وتُفصَل الممرّضة من عملها. ويُسحَب منها ترخيصُ مزاولة المهنة نهائيًا.

يقرأ جابر تقرير المصحّ ويفكّر: مات ابني قبل أن أقتل المرأة بثلاثين دقيقة.

كان دفنُ الطفل حزينًا وباردًا، شارك فيه بعض الأصدقاء والأقارب.

الأمَ في ثيابها ونظارتها السَوداء، كانت ساحرة الجمال. منحها الحزن جمالًا أخَاذًا؛ جمالًا ربَّما لن تشعر بهِ بعد الآن.

يرى جابر التابوت الصَّغير يُزرعُ في الأرض. يرى روحًا في صدره تفارقه. يرى نفسه الآن تينةً عارية بلا ثمر، كتلك التي استحقَّت لعنة، فيبست إلى الأبد.

عادا إلى البيت بعد مراسم الدَّفن صامتَين. كلّ شيء صامت: الهواءُ والجدرانُ، وحذاءُ الطفل الجديد الذي ما زال في مكانهِ، شاهدًا على المأساة.

يحسُّ جابر بأنَّ شيئًا في الزَّوجة فارقها؛ شيئًا لم تعد تمتلكه. صمتها الحجريّ كان قاسيًا: صمتُها وموتُ الطفل وجريمتُه.

عند الفجر، كان جابر يرى المدينة تذهب إلى يومها الجديد كأنَّ شيئًا لم يكن. تكنسُ عنها وجوهَ الموتى لتبدأ دورتَها التي لا تقف؛ دورتَها الأزليَّة القاسية.

غفا لبعض الوقت على الكنبة، بينما أمضت زوجته ليلة ثقيلة الوطأة في غرفة النوم.

أيقظتهُ قرابة التَّاسعة صباحًا. «استيقظْ يا جابر، يجب أن نتكلَّم في أمر». كانت الزَّوجة في ثيابها السَوداء تجلس قبالتهُ على الكنبة الصغيرة. شيء في داخلهِ يخبرهُ بأنَّها باتت غريبة عنه.

ينتظرُ الآن المأساة الثالثة.

تبدأ حديثها وهي تحدّق في أرضيَّة الغرفة. يسقُط شيء في قلبه قبل أن تفصح المرأة عمَّا في نفسها. لم تكلّمه أبدًا، من قبلُ، وعيناها تنظران إلى الأرض. هذا شيء جديد يُولَد الآن.

«أرجو أن تفهمني يا جابر». كان صامتًا كحجر؛ كسجين في قفص ينتظر الحكم. «روحي مُتعَبة جدًا. موتُ الطفل كان كخنجر زُرِعَ في قلبي». يودّ جابر أن يجيبها: وفي قلبي أيضًا، أرجوكِ لا تحملي بين يديكِ شقائي الأخير.

وتابعت:

ـ أحسُّ بأنَّ المكان هنا يحبسُ الأنفاس في صدري، تتقارب الجدران لتخنقني ببطء. سأرحل لبعض الوقت إلى منزل أهلي في المدينة الشماليّة.

سيبقى جابر وحيدًا، يصاحبه الموت والجريمة والهجران.

ـ أعلم بأنَّ هذا قاسٍ عليك، لكنّي لا أستطيعُ العيش هنا بعد الآن. أعلم بأنَّ لا ذنب لك فيما حدث تمامًا مثلي، لكنّي ـ صدقني ـ لست قادرة على البقاء.

سأغيب لبعض الوقت، لن أكذب لأقول فترة قصيرة. ربّما أغيب أشهرًا هناك.

يريد أن يقول لها: خذيني معك أينما تذهبين، لم يبقَ لي شيء إلاك. يمكننا أن نغيّر البيت؛ يمكننا أن نغيّر المدينة؛ يمكنني أن أذهب معك إلى مدينة أهلك في الشمال. لكنّه بقي صامتًا.

ـ قل شيئًا أرجوك يا جابر. صمتك يجعل الأمر صعبًا، يُحيلُ عذابي جحيمًا.

ينظرُ إلى عينيها للحظات، تنكسر عيناهُ على الأرضيّة، ويجري الدَّمعُ باردًا.

ـ لا تبكِ أرجوك. لا تحمّلني دمعكَ في رحلتي الحزينة. سأعود صدقني.

ويفكّر هو: لن تعودي.

تستقيم الزَّوجة وتدخل غرفة النوم، ثمَّ تخرج وفي يدها حقيبة. تتّجه نحو الباب يتبعها هو. تضع الحقيبة أرضًا لتفتح الباب، ثمَّ تخرج.

يفكّر جابر وهو يراها تتلاشى على الدرجات الهابطة: لم تُعانقني للمرَّة الأخيرة.

عاد ليجلس على الكنبة بعد أن أصبح وحيدًا. لن تعود أبدًا، وربما لن أراها إلى الأبد. ينظرُ حوله في الفراغ ويفكّر في أنَّ كلّ شيء قد غاب عنه.

يزداد المكان وحشة. يحسّ بأنَّ الجدران تقترب تباعًا، بعضها من بعض، لتحصره في قفص كطائر حبيس: سأخرج إلى الشارع، لن أبقى

هنا.

يحسُّ برغبة في التّدخين. علبة السّجائر فارغة. أغلق الباب ونزل إلى الشارع ليشتري سجائر. كان المارة يلبسون معاطف ثقيلة في هذا الصّباح البارد. ينظرُ إلى ثيابه فيرى أنّه نسي المعطف واكتفى بقميص رقيق. يبتسم، يا للمفارقة، لم أعد أحس بالبرد، أو ربّما البرد لم يعد يعني لي شيئًا. حياتي كلُّها لم تعد تهمني.

وصل إلى جاره البقال. «صباح الخير، من فضلك علبة سجائر». كان البقال يرتّب البضائع قبالة جابر، لكنّه لم يلتفت. كرّر جابر معتقدًا أنّ الرجل لم يسمعه، لكنّه أيضًا لم يلتفت. اقترب منه كثيرًا حتى باتا متقابلين. «يا رجل، أعطني علبة سجائر». يتصرّف البقال بعفوية، كأنّ أحدًا لا يقف على بعد نصف متر عنه.

خرج جابر وذهب إلى بقال اخر. وتكرّر الأمر ذاته. أخرج من جيبه بعض القطع النقديّة وأخذ علبة سجائر بنفسه.

ذهب يجلس قرب بائع الصحف، هناك حيث المرأة التي قتلها تمدّد جسدُها حيّةً في الأمس القريب بعد أن دهستها وابنُها الصغير سيّارةٌ رياضيّة مسرعة.

أشعل سيجارة وبدأ ينفث الدّخان. يحسّ بنَفسه الآن شفافًا. يحسّ بأنّ دماغه قد محا كلّ ذاكرة حسّيّة مرّ بها وأصبح صفحة بيضاء.

اقترب منه رجلان ببذلتين سوداوين، كانا يضحكان ويتهامسان. قال الرجل القصير حين انحنى على أذن جابر: اتبعنا.

أظلمت الخشبة من جديد، وأُسدلت السّتارة.

«لا شكّ في أنّك تعرف البقية»، يقول الرجل الكبير. «أعتقد ذلك». ينظر جابرٌ إلى عينَي الرجل الكبير بجرأة أكبر، يودُّ أن يصرخ: هل كان ضروريًا هذا الألمُ كلُّه؟ يتابع الرجل الكبير: «سيقتادونك إلى هنا كما في المرّة السّابقة، وستنتهي حياتك».

جابر الان شبهُ متأكّد من أنّهما ليسا وحيدين في المكان. يزداد الهمس وضوحًا. وتزدادُ كثافة الهواء حوله. لكنّه لا ينظر حوله أبدًا، كأنّ النّظر وتفحّصَ المكان سيساعدان على تثبيت وجوده؛ وجود المكان وجابر فيه.

يقترب الرجلان، في زيّهما الأسود، من الرجل الكبير، وينتظران إشارة. وينظر الرجل الكبير في اتّجاه جابر وقد بلّل الدّمع البارد خديه. «اذهبا، ليس بعد»، يقول لهما الرجل الكبير.

«سأريك مرّة أخرى كيف ستتغيّر حياتك نتيجة لمصادفة لا يد لك فيها. نحرِف مسار حياتك قليلًا، في شيء خارج عن منظومتها الداخليّة، فتغدو حياةً أخرى، وتصبح أنت شخصًا مختلفًا».

ـ لكنْ، أيُّ الأشخاص أنا؟ أيُّ الحيوات حياتي؟

ـ أنت كلُّهم ولا أحد منهم. أنت كمعادلة رياضيّة موجودة، لكنّها تتغيّر بتغيير أيّ شرط مهما يكن صغيرًا.

يفكّر جابر في أنّه ربّما يحلُم. حلمٌ داخل حُلم. المدينة الخالية حلم. لامرئيّته حلمٌ. الحياة كلُّها حلم.

ـ أتذكّرُ تلك اللّيلةَ التي أمضيتَها في العراء، في مشروع الخضار، حين كنت تسمع أصواتًا وهمسًا من البعيد؟

ـ نعم، أذكرها.

ـ سنفترض أنّ أمّك لم تمت في اليوم التالي، وماتت بعد يومين، أو ربّما لم تمت في ذلك الوقت. تعالَ لنرى حياتك.

الهمسُ خلفه ما زال يسمعه. جابر الآن متأكّد من أنّهما ليسا وحيدين في المكان. لا يرى أحدًا في قاعة المسرح الرهيبة، لكنّهما ليسا وحيدين. يحاول أن يلتفت ليرى، لكنّ شيئًا يمنعه؛ شيئًا يقول له: لم تحن الساعة بعد!

يُضاء المسرح من جديد وتُسحَب السّتارة. تبدأ الشّخصيات تُرسَمُ، ويُخلَق الزّمن والمكان. جابر نائم في غرفته بعد اللّيلة المؤرقة التي أمضاها في حقل الخضار. اللّيلة التي سمع فيها همسَ أشخاص في المدى غير البعيد.

حياة ثالثة

إنّ كلّ ما أصبح شيئًا كان ذات مرّة لا شيء.

توماس مان

لم يستيقظ جابر حتّى الحادية عشرة صباحًا. أيقظتهُ أمُّه. «قم يا جابر، الفطور جاهز، ننتظرك أنا وأبوك».

استيقظ، وهو يشعر بصداع خفيف بعد نوم قَلِق. رأى حلمًا آخر. كان في الحلم يجري في طرقات البلدة. وكانت الطرقات تنتهي مسدودةً، فيعود ليأخذ طريقًا آخر ليجده مسدودًا. وحين قام من فراشه كان مبلَّلًا بالعرق. سأمرض بلا شك، يفكّر وهو يغيّر ملابسه لينضمّ إلى والديه.

لم يأكل كثيرًا. شرب الشاي مع بعض لقيمات من الجبن الأبيض. سألته أمه:

- ما بالك، يا ولدي، لا تأكل؟ هل أنت مريض؟

- يبدو أنّي سأمرض، يا أمّي.

فقالت لزوجها: اذهب أنت إلى الحقل هذه اللَّيلة واتركهُ. ألا تراه مريضًا؟

- نعم يا بنيّ، سأذهب أنا اللَّيلة ولتبقَ أنت هنا.

لا يريد جابر أكثر من هذا. لن يذهب إلى حقل الخضار بعد اللَّيلة الماضية التي مرّت ثقيلة جدًّا، وكادت تذهب بعقلهِ.

خرج عند الظهيرة ليشتري السجائر. كانت السُّوق مزدحمة قياسًا بأيّام أخرى.

- مرحبًا يا عمّ.

- أهلًا جابر، كيف حالك.

- الحمد للّه، أريد علبة سجائر من فضلك وجريدةَ هذا الصّباح.

- تفضَّل.

ذهب ليقرأ الجريدة في مقهى البلدة؛ ذلك الذي لا يبعد كثيرًا عن النهر. إنّ احتمال أن يلتقي أحد أصدقائه القدامى هنا كبير جدًّا. صحيح أنّه لا يحبّذهُ كثيرًا، لكنّه لن يعود إلى البيت الآن، فلا شيء ينتظرهُ هناك.

باءت كلّ محاولاته لإيجاد عمل بالفشل. في البداية، جرّب أن

يعمل في الاختصاص الذي درسه. وبعد أن تأكّدت استحالة هذا، بدأ يبحث عن أيّ عمل. ووعده بعض معارف أبيه القدامى خيرًا، وما زال ينتظر.

لم يكن المقهى مكتظًّا بعكس ما كان يتوقّع. طلب كأسًا من الشاي وبدأ يقرأ الجريدة. أخبار العالم كلّها سوداء. حروب في كلّ مكان، وقتل ودمار. قرأ في الصفحة الثقافيّة عن افتتاح جامعة في البلدة بحضور وزيرة التّعليم. جامعة في البلدة أمر جيّد، يفكّر. عند السّاعة الثالثة ظهرًا من يوم الغد، تفتتح الجامعةَ وزيرةُ التّعليم. إنّها امرأة. سيكون الحشد غفيرًا، يفكّر جابر مبتسمًا. أشعل سيجارة أخرى وتابع القراءة، وحين قرأ اسم الوزيرة، توقّف قليلًا. يعرف هذا الاسم. مرّ عليه في مكان ما، لكنّه لا يذكر. ما جدوى إن عرف الاسم أم لا. أحيانًا نشغل عقولنا بأمور تافهة لأنّنا لا نملك شيئًا نفعلهُ.

عاد إلى البيت بعد ساعتين وقد أحسّ بنشاط. وحين حان وقت الغداء أكل بشهية ملحوظة. تقول الأمّ: حمدًا للّه أنّك تتعافى.

- لم يكن مرضًا، يا أماه، لعلّهُ تَعَبٌ فقط. أحسّ الآن بنشاط. حمدًا للّه.

يأكل الأب صامتًا. ينظر جابر إليه ويفكّر: ليس عدلًا أن أدعه يذهب اللّيلة إلى حقل الخضار.

- سأذهب أنا اللّيلةَ يا أبي إلى الحقل، أشعر بتحسّن.

- ابقَ اللّيلة يا ولدي، وفي الغد تذهب.

- بل اللّيلة، لست مريضًا أبدًا.

كان سعيدًا لأنّه لن يذهب اللّيلة إلى حقل الخضار، بل سيبقى لينام في فراشه. يفكّر جابر في السّبب الذي دفعه إلى طلب الذهاب والإلحاح عليه. في أحيان كثيرة، نتصرّف بغرابة؛ نتصرّف بطريقة معاكسة تمامًا لما نريد. شيء يشبه عقاب النّفس بسبب ذنب خفيّ.

جاءت ابنة خالته في المساء قبل أن يغادر، تريد أن تخبر أمّه بشيء. وحين فتح لها الباب لم يعرفها. انتشلته الصبيّة الجميلة من ورطته، وقالت: أنا ابنة خالتك. «أهلًا بك»، وقبلها من وجنتها. رائحة عطر تختلط برائحة مسامها الأنثويّة. ما أطيب هذه الرّائحة.

كبرتْ كثيرًا واستدار جسدها. ينظرُ إلى جسدها وهي تجتازه إلى

الداخل، ويحس بأنّه ما زال حيًا. يحسُّ بجمالها، ويتذوّقه، ويتألّم.

دخل وانضمّ إلى أمّه وابنة خالته. ربلتا ساقيها المرمريّتان تسحرانه، وصدرها الذي سمحَ خلف فستانها المُشجَّر يجذب عينيه كمغناطيس. انتبهت الأمّ إلى نظراته، فقالت: ابنة خالتك أصبحت عروسًا جميلة يا جابر. أحسّت البنت بالخجل واحمرّ وجهها، وكذلك جابر، الذي غمغم بكلمات وقال: هذا صحيح. ونظر إلى عينيها، فازداد خجلُ الفتاة.

حين غادرت الفتاة، قالت الأمّ:

- ما رأيك يا بنيّ؟

- رأيي في أيّ شيء؟

- في ابنة خالتك.

- فتاة جميلة.

- ما رأيك في أن أخطبها لك.

- ليس الآن يا أمّي. سأخبرك عندما أقرّر.

وسأله والده، قبل أن يغادر إلى حقل الخضار عند الثامنة:

- ألا تغيّر رأيك يا بنيّ، فأذهب أنا اللّيلةَ؟

- لا، يا أبي، أنا بخير. يمكنني الذهاب.

لو أنّه يدري ما كان ينتظره اللّيلة لَما خرج من بيته أبدًا.

كان حقل الخضار هادئًا في ساعات اللّيل الأولى. بقيت الحركة مستمرّة في طرقات البلدة غير البعيدة نسبيًا. أضواء السّيّارات تتساقط متقطّعة على الطريق العام حتّى الحادية عشرة، ثمّ يغرق الحقل في الصّمت.

لا رغبة لديه في النوم. استلقى على فراشه وبدأ يراقب النجوم. السّماء، في هذه اللّيلة الصافية، حبلى بالنجوم. ينظرُ إليها ولا يفكّر في شيء. سلام وسكينة هنا قلما نجدهما في أيّ مكان آخر في هذه الحياة.

أعدّ كأسًا من الشاي بعد منتصف اللّيل وبدأ يُدخّن. بقي مسترخيًا حتّى الواحدة صباحًا. سيقوم بجولته الأخيرة في كامل الحقل ليتأكّد من أن لا قوارض تقترب، ثمّ يعود لينام.

عند طرف الحقل الجنوبيِ، ذلك الطَّرفِ البعيد عن البلدة، عاد يسمع الهمس من جديد، تمامًا كاللَّيلة الماضية.

عاد بحذر إلى فراشهِ واستلقى، ثمَّ استدرك وابتعد قليلًا إلى الجهة الشماليَة القريبة من البلدة، وجلس على الأرض. بدأ يشعر بالندم لأنَّه منع أباهُ من المجيء عوضًا عنه اللَّيلة. ربَّما اعتاد الأب على أجواء كهذه، ولو أنَّه هو من جاء ليحرس الحقل اللَّيلة لكان الآن نائمًا، لا يؤثِّر فيه لا همس ولا هواجس.

بدأ الفضول يتسلَّل إليه. هل يمكن أن يعود إلى بيته عند الفجر ولا يدري ما سرّ هذه الأصوات التي تأتي من بعيد؟ لا، لن أبرح مكاني. ما شأني إن عرفت مصدر الأصوات، أم لم أعرف؟ ما الذي ستُضيفهُ إلى حياتي إن رأيت أشخاصًا يتهامسون، أو مخلوقات من كوكب بعيد. سأبقى في مكاني، ولن أتحرَّك.

حين يهبُّ النسيم قويًا، تصبح الأصواتُ أكثرَ نقاءً ووضوحًا. تتساقط كلمات في أذنيه خفيفة كمن يستمع إلى مذياع من مسافات بعيدة. سأذهب لأرى، وليطالغني الجحيمُ هناك.

قام ومشى قليلًا، ثمَّ عاد وغيَّر رأيه. هذا التشتُّت بين المعرفة واللامعرفة؛ بين الفضول وعدم الاكتراث؛ يقرِّر أنَّه سيتقدَّم ليرى مصدر الصَّوت، ثمَّ يتراجع.

وقف وقد قرَّر أخيرًا: سأذهب.

تبع جهة الصَّوت جنوبًا. المشكلة أنَّ السَّهل منبسط. صحيح أنَّ هناك بعض المساحات زُرعت فيها أشجارٌ مثمرة، لكنَّ المساحة العظمى زُرِع فيها خضار أو محاصيل صيفيَّة. لا يمكنه أن يختبئ خلف أيّ شيء ليرى. فقد تراه المخلوقات التي يسمع أصواتها قبل أن يراها؟ وهنا المشكلة.

تبدو الأصوات أكثر وضوحًا كلَّما تقدَّم إلى جهة الجنوب. يمشي حَذِرًا حتَّى لا يُصدر أيّ صوت. وصل إلى حقل من أشجار الزيتون، فبدا أنَّ الصَّوت يأتي من داخلهِ. يكشف ضوء القمر جزئيًا طريقَه، والحذرُ في خُطاه البطيئة يكمل مهمَّتهُ.

احتمى بإحدى الأشجار حين رأى نارًا تبعدُ أمتارًا قليلة. ما زال غير قادر على السَّماع بوضوح تامّ، والرؤيةُ معدومةٌ. ذهب إلى جهة اليمين، ثمَّ توغل قليلًا واحتمى بشجرة.

يمكنه الآن أن يرى. ثلاثة رجال أشعلوا نارًا في بضعة أغصان يابسة وجلسوا على الأرض.

يسمع بوضوح الآن وقلبه ينبضُ كشلال هادر. إن اكتشف الرجال وجوده فسيؤذونه مهما يكن سبب وجودهم. ربَّما كانوا سكارى، وهذا أسوأ. فكِّر في العودة، لكنَّه كان يسير نحو قَدَره، فلا يحيد.

يتناقش الرجال فيما بينهم. لا تدلّ طريقةُ حديثهم على أنَّهم سكارى على الإطلاق، بل العكس. هذا ليس لقاءً ودِّيًا يتسامرون فيه. يا آلهة الجحيم، هذا اجتماع منظَّم.

كان الأكبرُ سنًّا بينهم يقول: «سأعيد التَّعليمات للمرَّة الأخيرة قبل أن نفترق. لن نلتقي غدًا حتَّى موعد التَّنفيذ. وهناك، لن يقترب أحدنا من الآخر. في حال حوصر أحدنا يجب أن يحتفظ بطلقة أخيرة لينتحر. أسوأ شيء هو الوقوع في أيدي السُّلطات، لأنَّها ستجبركما على الاعتراف، ثمَّ تقتلكما. هل هذا مفهوم يا رفيقيَّ». فقال الرجلان بصوت واحد: «نعم».

ـ لا أخطاء غدًا، الخطأ يعني الموت أو فشل المهمَّة. ستصل المرأة عند الثانية ظهرًا إلى مديريَّة المنطقة، وستبقى الوزيرة مع مدير المنطقة وعساكره، ثمَّ تتَّجه مع حراسها في الثالثة إلى الجامعة لتفتتحها. بعد الافتتاح، ستلقي كلمة أمام الجمهور. سأكون أنا في الصفوف المتوسِّطة للناس، وأنت في الصفوف الأخيرة ـ ويشير إلى الرجل إلى يساره ـ أمَّا أنت، فستنتظر في السَّيَّارة خلف المبنى. وحين تُنهي كلمتها، وخلال تصفيق الجمهور، ستكون ساعة الصفر. سأطلق النار عليها من مسافة قريبة. أنت في الصفوف الخلفيَّة ستطلق النار أيضًا عليها لتشتيت الانتباه. في هذه اللَّحظات، أكون قد صرتُ قربك. أمَّا أنت ـ وأشار إلى الرجل الثالث ـ فستقود السَّيَّارة خلف الصفوف الخلفيَّة، وتقترب منَّا لنقفز فيها ونغادر خلال لحظات التشتُّت بين الحراس والحشد. هل من أسئلة.

ردَّ الرجلان: لا.

سيقتلون الوزيرة. يا آلهة السَّماء، أيّ أقدار ساقتني اللَّيلة إلى هنا.

وقف الرجال وتأهبوا للمغادرة. التصق جابر بالشجرة ودار عكس جهة مسيرهم، وظلَّ على هذه الحال حتى ابتعدوا واختفى أثرهم. لم

يجرؤ على التحرُّك من مكانه فترة طويلة. بقي ملتصقًا بالشجرة أكثر من عشرين دقيقة، ثمَّ عاد حَذِرًا إلى مكانه في حقل الخضار.

يتذكَّر جابر ما قرأهُ في الجريدة صباح اليوم عن حفل افتتاح جامعة في البلدة، ستحضره وزيرة التَّعليم.

وما شأني إن قتلوا الوزيرة أو حتَّى حاكم البلد، سأكون في بيتي تلك الساعة. سأعتبر أنِّي لم أسمع شيئًا. لا بد من أنَّهم ينتمون إلى حزب مُعارض. يمكن أن تكون الوزيرة لصة ومرتشية، وتستحقّ الموت.

ماذا سأفعل الآن يا إلهي، أيّ دوامة أدخلتُ نفسي فيها. لن أفعل شيئًا، هذا ليس شأني. لا علاقة لي بالموضوع، لكنِّي سمعت وعرفت أنَّهم سيقتلونها. ربَّما تكون المرأة جميلة. يا إلهي، في الغد سيقتلون إنسانًا، وأنا على علم بذلك، ولن أحرِّك ساكنًا.

الصمتُ في العراء الآن مُطلَق، وقد اقتربت السَّاعة من الرابعة صباحًا. لم يغمض لهُ جفن وهو يفكِّر في قتل المرأة في الغد.

انتفض واقفًا. يتذكَّر الآن اسم الوزيرة الذي قرأهُ في الجريدة. لا، هذا مستحيل. لا يمكن أن تكون هي. لكن الاسم اسمُها؛ اسمُها الذي يعرفهُ جيِّدًا، وعلى مدار خمس سنين. أيُعقل أن تكون عينَها؛ الرئيسةَ الأعلى للجامعة؛ تلك المرأةَ الطيِّبة التي أبطلت قرار طرده، وأنقذتهُ.

يمكن أن يكونوا سمُّوها وزيرةً، لما تُعرَف به من قوَّتها وسلطتها. لم يتابع أخبار السياسة لأكثر من ستَّة أشهر. لقد عيَّنوها وزيرة في هذه الفترة، بلا شك.

لا يمكنني أن ألتزم الصَّمت. لا يمكنهم أن يقتلوا امرأة بكلّ هذا الجمال، بكلّ هذه الطِّيبة. لا يمكنني أن أسكت. المرأة أنقذتني، يجب أن أفعل شيئًا.

سأعود الآن إلى البيت. لملم حاجياته وانطلق مسرعًا. وصل إلى البيت وأيقظ أباه. قال له: سأذهب إلى المدينة في أمر ضروريّ.

ـ ما الأمر يا بنيّ؟

ـ سأخبرك حين أعود. قد أتأخَّر هناك بعض الوقت، لا تقلق عليّ.

ـ حسنًا، ومتى تذهب؟

ـ الآن، في حافلة السَّاعة الخامسة.

حافلة السّاعة الخامسة صباحًا هي المحبّبة لديه. لا يوجد فيها عادة الكثير من الرُكاب. كان الفجر يولد خلف الجبال الشرقيّة حين انطلقت الحافلة. صوتٌ في أعماقه يقول: لا تذهب. اتّصل بمكتب الوزيرة، وأخبره، لكن لا تذهب لتقابلها. وحين تصل إلى المدينة، أجرِ اتّصالًا من هاتف عمومي، وبهذا لن يعرفوا من أنت، ولا خطر عليك في المدينة الكبيرة حتّى وإن كانت الخطوط مراقبة.

لكنّي سأنقذُ حياتها، فكيف لا أقابلها، ستشكرني لأنّي ردَدت لها معروفها. لا يمكن مقارنة ما قدّمته إلي بما سأقدّمه إليها. ربّما ستساعدني في إيجاد عمل ما في البلدة، أو حتّى في المدينة. سأقابلها.

نام بعد أن انطلقت الحافلة بدقائق. كان يفتح عينيه للحظات ثمّ يعود يغفو. لم يعد يدرك إن كان ما يفكّر فيه حلمًا يتسلّل بين أجفانه، أم أنّ عقله الواعي هو الذي يرى.

حلم بأنّه محاط بكثير من البشر في ساحة عامّة؛ ساحةٍ تشبه ساحة المدرسة في البلدة. كان البشر حولهُ بملامح قاسية وحزينة، ينظرون إليه سريعًا ثمّ يبتعدون. كان الوقت نهارًا، لكنّ الشمس غائبة مع أنّه لا توجد غيوم في السّماء. بحث عن الشمس كثيرًا ولم يجدها، حتّى سأل أحدهم: من فضلك، أين اختفت الشمس.

الرجلُ الذي سأله، وكان يرتدي ثيابًا بالية، قال: لا بدّ من أنّك قادم جديد إلى المكان.

ما هذا المكان؟ كان الرجل يهمّ بإجابته حين استيقظ من غفوته. بحش بثقل في صدره.

كلّما اقتربت الحافلة من مشارف المدينة، ازداد إحساسه بالثقل في صدره. يحسّ بأنّ جبلًا قد جثم وجعل تنفّسه عسيرًا، وازدادت ضربات قلبه حدّةً. يأتي الصّوت من أعماقه من جديد: لا تذهب. أجرِ اتّصالًا، وعد إلى البلدة.

وصلت الحافلة إلى مدخل المدينة عند السّابعة والنّصف. هذا جيّد، لديّ متّسع من الوقت. عليه الآن أن يستقلّ حافلة أخرى ليصل إلى الوزارة. لكنّه يستدرك بأنّه لا يعرف أين يقع مبناها في المدينة.

وصلت الحافلة إلى تجمّع الحافلات. ذهب وسأل سائق حافلة

أخرى: «من فضلك يا عم، أين تقع وزارة التَّعليم؟»

إنَّها في نهاية الحيّ الرَّابع، في الجهة الأخرى من المدينة. عليك أن تأخذ الحافلة هناك رقم ثلاثة عشر.

وأشار بيده إلى الحافلة.

وصل جابر إلى أمام وزارة التَّعليم قرابة الثامنة والنِّصف. لا أثر للحياة فيها. لا يوجد مراجعون، ولا يسمع أيَّ أصوات. لا يوجد أيّ إنسان هنا. لا بدَّ من أنَّهم سيفتحون الأبواب عند التَّاسعة. هذه وزارة، وليست محلّ بقالة.

تقترب السَّاعة من التَّاسعة والسُّكون مطلق هنا. لا شك في أنَّه الإنسان الوحيد في الشَّارع. جلس على الدَّرج الرُّخاميّ ينتظر.

يا آلهة السَّماء، يفكّر جابر، اليوم هو العطلة الأسبوعيَّة. هذا ما يفسّر صمت الشَّوارع هنا. الآن، ما العمل؟ نظر مجدَّدًا لعلَّه يجد حارسًا للمبنى يسأله. المبنى مُقْفِرٌ تمامًا.

عاد يمشي مشتَّتًا ويفكّر كيف يوصل رسالته إلى الوزيرة لتأخذ حذرها. الحلّ الوحيد هو إبلاغ دائرة الأمن. لا، لن أدخل دائرة الأمن.

عاد مرَّة أخرى إلى مبنى الوزارة لعلَّه يرى أحدهم. ما زالت الوزارة خالية من الناس كقصر مهجور. لو أنَّه يملك رقم هاتف الوزيرة.

ـ صباح الخير، يا سيّدتي.

ـ صباح الخير.

ـ أنا جابر الذي أنقذتِه من الطرد من السَّكن الجامعيّ قبل أقلّ من عام، هل تذكرينني؟

ـ نعم، أذكرك يا جابر.

ـ حسنًا، سأردّ لك معروفك أضعافًا. في حفل تدشين جامعة البلدة، هناك ثلاثة رجال يخطّطون لاغتيالك.

ـ شكرًا يا جابر، سأبلغ المسؤولين، وحين نلقي القبض عليهم سأكافئك على صنيعك.

ـ شكرًا لك، فهدفي هو إنقاذك فقط، لا يجوز لامرأة حسناء مثلك أن تموت مبكرًا.

ـ شكرًا يا جابر، هذا لطفٌ منك.

كان يبتسم وهو يتخيّل حديثه مع الوزيرة. ربّما ستعيّنه في الوزارة قريبًا من مكتبها، وهذا يعني أنّه سيراها كلّ يوم. يا آلهة السّماء، كم هذا رائع!

«لماذا تقف هنا يا رجل، كيف يمكنني مساعدتك؟» يلتفت جابر إلى جهة الصّوت. رجلٌ بملابس فقيرة، وفي يده أدوات تنظيف. يصمتُ جابر وقد خُلق الرجل أمامه من العدم:

ـ لا شيء. كنت أتيت مراجعًا، ثمّ استدركت أنّه يوم العطلة الأسبوعيّة.

ـ نعم، يا بنيّ، لا أحد هنا. تعال غدًا عندما تفتح الوزارة أبوابها.

هل أسأله إن كانت الوزيرة ستمرّ بمكتبها اليوم؟

ـ من فضلك، أتعتقد أنّ الوزيرة ستمرّ بمكتبها اليوم؟

ينظرُ الرجل الخمسينيّ إليه نظرةً ملؤها الريبة والشك:

ـ وما شأنك والوزيرة؟

ـ لا شيء، كنت أتساءل فقط.

التفت وغادر المكان قبل أن يترك الفرصة للرجل للكلام.

التّاسعة والنّصف. يمرّ الوقت كالسّيف القاطع. يجب أن أفعل شيئًا. سأذهب إلى دائرة الأمن، فلا خيار آخر أمامي.

الدرج العالي، المؤدّي إلى مبنى دائرة الأمن، كان كافيًا أن يصيب الإنسان بالرُّعب. حرّاس الأمن، ببذلاتهم الرسميّة، كانوا يدخلون ويخرجون بالعشرات. لا يمكنني أن أقف هكذا طويلًا أمام نقطة حساسة كهذه. يناديه الصّوتُ من جديد: لا تدخل يا جابر، لكنّ جابرًا، كما ملياراتُ البشر، ذاهبٌ إلى قَدَره العبثيّ.

ـ من فضلك، يا حضرة الحارس، هل يمكنني مقابلة الضابط المسؤول؟

ينظرُ الحارس إليه كأنّه ينظرُ إلى حشرة علقت بملابسه:

ـ وما شأنك بالضابط المسؤول؟

ـ هناك أمر ضروري يجب أن أخبره به؛ أمرٌ يتعلّق بأمن الدولة. حياة أحد المسؤولين الكبار في خطر.

ينظرُ الحارس إليه وقد بدت الرهبةُ على ملامحه:

ـ تعالَ معي.

صعدا إلى الطابق الثالث. قرع أحدَ الأبواب ودخلا. الرجل، خلف مكتبه الواسع، يقرأ في ملفٍ ورقيّ أمامه.

ـ سيّدي الضابط، هذا المواطن هنا يقول إنَّ لديه أمرًا مهمًّا يتعلَّق بأمن الدولة.

انتفض الرجل واقفًا وابتعد عن مكتبهِ:

ـ هل فتَّشتهُ أيُّها الحارس.

ـ لا، يا سيّدي.

ـ يا أحمق، كيف تُدخل رجلًا عليّ هكذا وتقول إنَّ لديه ما يتعلَّق بأمن الدولة من دون تفتيشه.

ـ عذرًا سيّدي.

اقترب الحارس من جابر، وأداره من كتفيه وألصقهُ بالحائط، وبدأ يفتِّشهُ. وحينها فقط، بدأ جابر، وقد شلَّه الرُّعبُ والمفاجأة، يدرك خطأه. لكن الوقت قد فات الآن.

ـ لا يحمل أيّ شيء خطير يا سيّدي.

ـ حسنًا، ابقَ أنت قرب الباب، وأنت أيُّها المواطن هاتِ ما عندك.

كان الرجل ضخم الجثَّة. يكفيه أن يدفع جابرًا دفعة صغيرة ليقلبه أرضًا. وراح جابر ينظر في يديه العملاقتين، ويفكِّر: أيُّ جحيم قاد نفسه إليه.

ـ تكلم يا هذا، أتيت تخبرني شيئًا. هيَّا.

ـ حسنًا، يا سيّدي الضابط.

وقصَّ جابر كلَّ ما رآه في حقل الخضار ليلة أمس على الضابط. أخبره بأنَّ الوزيرة كانت الرئيسة الأعلى للجامعة عندما كان طالبًا قبل أقلّ من عام، وهي من ألغى قرار طرده من السَّكن الجامعيّ:

ـ إنَّ لها دَينًا في رقبتي يا سيّدي الضابط، وها أنا أردُّه إليها، وأنقذ حياتها.

وصرخ الضابط: يا آلهة السَّماء، الأوغاد يخطِّطون لاغتيال

الوزيرة.

بقي جابرُ واقفًا لا يدري ما يفعل، والضّابط هو الآخر يفكّر فيما يقوم به. حمل سمّاعة الهاتف وطلب رقمًا: «أعطني السّيّد الوزير. نعم، أنا مدير دائرة الأمن». ووضع السّماعة جانبًا وخاطب الحارس: «خذه إلى الغرفة المجاورة وابقَ معه». أخذ الحارس جابرًا إلى الغرفة المجاورة. كانت الغرفة أصغر من سابقتها، فيها عدد من الكراسيّ ومكتب قديم. جلس جابر وقد بدأ يحسّ بدُوار خفيف، بينما بقي الحارس قربه، لا يرفع عينيه عنه في أيّ لحظة.

يحسّ جابر بأنّه مُحتجَز كمجرم قيد التحقيق. يطرد الفكرة سريعًا. هي إجراءات احتياطيّة. هذه دائرة الأمن في المدينة، وليست دارًا للسينما. يعزّي نفسه وقد فَقَدَ المبادرة وأصبح مصيره متعلّقًا بمزاج رجل. لا يجرؤ على فتح فمه ليسأل الحارس لماذا يحتجزونه. يتصرّف كأنّه يوافق على ما يجري؛ يوافق عليه، لأنّه لا يمتلك خيارًا آخر.

اتّصل مدير الأمن في الغرفة الثانية بوزير الداخليّة، واتّصل الأخير بوزيرة التعليم ليخبرها بالأمر. وبعد ربع ساعة، كان الوزيران في مبنى إدارة الأمن.

دخلا غرفة مدير الأمن، فوقف الأخير وحيّاهما. أفسح مجالًا لوزير الداخليّة ليأخذ مكانه، لكن الأخير دعا المرأة لتجلس خلف المكتب.

«أين هو ذاك التّعِس»، يصرخ وزير الداخليّة في وجوه مرؤوسه.

ـ إنّه في الغرفة المجاورة، يا سيّدي.

ـ أحضره في الحال.

ـ أمرك، سيّدي.

تدخّلت وزيرة التّعليم وقالت: «من فضلك، القضية تتعلّق بسلامتي الشّخصيّة، وأنا من سيباشرها». سطوة المرأة الحسناء ونبرة صوتها الهادئة والثابتة كانتا مسيطرتين على كلّ شيء في المكان.

ـ حسنًا سيّدتي، كما تريدين.

ـ من فضلك، يا مدير الأمن، أحضر الرجل بهدوء. عامله معاملة حسنة، لنرى ما لديه.

ذهب مدير الأمن وعاد بجابر، الذي كان قد انتظر في الغرفة المجاورة لأكثر من ثلاثين دقيقة. كانت أفكار سوداء تراوده، وتوسوس إليه بأنَّه معتقل هنا. ثمَّ يعزّي نفسه بأنَّ إجراءات الأمن صارمة في مسائل كهذه. وحين دخل الغرفة ورأى المرأة جالسة خلف المكتب، أحسّ للمرَّة الأولى بأنَّه دخل دائرة مغلقة.

عرفته الوزيرة على الفور. لا يمكنها أن تنساه، وقد ارتبط وجوده بالخبر الأجمل التي عرفته في حياتها حتَّى اللَّحظة. فوجه هذا الشاب ارتبط بالمخابرة الهاتفيَّة التي تلقتها من الطبيب ليؤكّد لها أنَّها غير مصابة بالسرطان.

حين رأته الوزيرة ابتسمت وقالت له: «أذكرك يا جابر»، فرُدَّ إلى جابر روحُهُ حين ابتسمت. يا آلهة السَّماء، إنَّها تذكرني، ولن يؤذيني أحد هنا.

قامت الوزيرة من خلف المكتب واقتربت منه تصافحه. ملمس يدها الحريريُّ جعل جابرًا نصفَ ثمل. «هل يمكنكما أن تتركانا وحيدَين». ينظر وزير الداخليَّة إليها. «كيف أتركك هنا وحيدةً معه».

ـ أنا أعرف ما أفعل. انتظراني في الغرفة المجاورة.

لم يملك وزير الداخليَّة إلَّا أن يلبّي رغبتها، فانسحب مع الرجلين إلى الغرفة المجاورة.

ـ أخبرني بكلّ شيء، بصدق، يا جابر. لن يؤذيك أحد هنا.

وأعاد عليها رواية كلّ شيء، وقد جفَّ حلقه وأخذته سطوتها وسحرها. كانت ترتدي فستانًا أصفرَ كشف الكثير من مفاتن جسدها الفتيّ. يحدّثها جابر وينظر إلى الأرض، ثمَّ يختلس النَّظرَ إليها بين الفينة والأخرى. في النهاية، قالت له: «شكرًا، يا جابر».

ـ إنِّي أردّ إليكِ الجميل، سيّدتي الوزيرة.

حين انتهى من حديثه، عادت المرأة من جديد خلف المكتب واتَّصلت بالغرفة المجاورة. جاء وزير الداخلية ومدير الأمن والحارس، ثم خرجت مع الوزير ومدير الأمن قليلًا، وخاطبت الأخير قائلة: سيبقى عندكم. عاملوه بالحُسنى حتَّى نتحقَّق من أقواله. فالاحتمال الأكبر هو أنَّه صادق. لا تعذيب، ولا تحقيق، ولا أيّ إساءة. أتفهمني؟

ـ أفهمك، سيدتي الوزيرة.

ـ فيما بعد، أحضروا له طعامًا.

ـ أمرك، سيِّدتي.

غادرت الوزيرة مع وزير الداخليَّة من دون أن تقول أيّ شيء لجابر.

يفكِّر مدير الأمن: لا يمكن وضع الرجل في السِّجن، الوزيرة طلبت منه، بصراحة، أن يُحسن معاملته. حسنًا، سيتركه في الغرفة المقابلة مع حارسين.

أخذوا جابرًا إلى الغرفة المجاورة برفقة حارسين، وقف أحدهما قرب الباب، والثاني قرب النافذة الوحيدة.

لا يدري جابر لماذا يحتجزونه، وقد أخبر الوزيرة بالحقيقة. لماذا لا يتركونه لحال سبيله، فيعود إلى البلدة بعد أن قال لهم كلّ شيء؟

تتجاوز السَّاعة الحادية عشرة صباحًا بقليل. لا يدري جابر ما يفعل، وأين ينظر، وفيما يفكِّر. الحارسان يُحصيان عليه أنفاسه. عيونهما لا تنزاح عنه لحظة واحدة، وكلَّما نظر إلى أحدهما أحسّ بماء بارد يجري في جسده.

في البداية، كان يخشى حتَّى النظر إليهما. يفكِّر في أنَّهما غير موجودين. ينظرُ إلى الحائط أمامه. لو أنّ هناك لوحة زيتيَّة معلَّقة على هذا الحائط ليتأمَّلَها، ليشغلَ نفسه بها. الحائط، كما كلُّ الغرفة، خالٍ ومحايد.

أخيرًا، تجرَّأ ونطق بعد ساعتين:

«هل يمكنني إشعال سيجارة؟» أجابه الحارس بإيماءة من رأسه بالموافقة، فبدأ يدخِّن. لو أنَّهم يتركونه وحيدًا لما أحسّ بكلّ هذا الضِّيق. لا بأس في أن يُغلقوا الباب بالمفتاح في سبيل أن يتركوه هنا بمفرده.

الساعات العشر التي سيمضيها جابر هنا، سيذكرها دائمًا في حياته القادمة، لن ينساها لحظة. لن ينسى هذا الرُّعب الصَّامت الذي امتدَّ ساعاتٍ طويلةً، وتسلَّل إليه من خلف نظرات حارسين لا يقولان شيئًا ولا يفعلان شيئًا. فقط ينظران إليه، ويحدِّقان فيه، فيشعر بنفسه عاريًا أمام العالم.

فكَّر في أن يحادثهما لعلَّه ينسى المكان والزمان، لكن نظراتهما الزُّجاجيَّة أحبطت محاولته قبل ولادتها. يريد أن يخلع حذاءه وقد

أحسّ بقدميه نارًا مشتعلة، وأن يستلقي على الكنبة الصغيرة البيضاء التي تمزَّقَ قماشُها في غير موضع منها. يريد أن يفعل أيّ شيء ولا يستطيع. أمضى عشر ساعات في مواجهة زوجين من العيون الباردة.

يمكنه أن ينام. هذا صحيح، فالنوم غير ممنوع. بل إنَّ النوم سيخلّصه من نظراتهما لبعض الوقت. أسند رأسه على الكرسي وأغمض عينيه. ما زال الحارسان صامتين. بقي مغمض عينيه لدقائق. لكن، كيف يأتيه النوم في مكان كهذا.

فيما بعد، سيفكّر في أنّه لو أدخلوه السجن مع المجرمين واللُّصوص لما أحسّ بكلّ هذا الضِّيق، وبأنَّ هذا الوقت الذي سيمضيه في هذه الغرفة سيتحكم في حياته كلّها. سيغدو مرجعًا أسودَ لكلّ شيء.

الثالثة ظهرًا. لا بد من أنّهم سيقبضون على الرجال الآن وتنتهي محنتُهُ هنا. لكن، ماذا إنَّ استطاع الرجال قتل الوزيرة. يا آلهة السَّماء المقدَّسة، أيّ مكان أتيته بقدمَيّ.

عند السّاعة الخامسة، طلب الذهاب إلى دورة المياه. رافقه الحارسان. يفكّر: لا بأس في هذا. لكنّهما طلبا منه أن يُبقي باب المرحاض مفتوحًا. ينطق جابر للمرّة الأولى بنبرة غاضبة: هذا مستحيل، كيف لكما أن تطلبا منّي التعرّي أمامكما. قال أحد الحارسين كأنّه لم يسمع كلمات جابر: أبقِ الباب مفتوحًا.

لن ينسى جابر هذه اللّحظة. أجبراه على أن يقضي حاجته أمام أعينهما التي كانت تراقبهُ. لو أنّه امتلك سلاحًا ناريًا في تلك اللّحظة لما تردّد أبدًا في قتلهما بدمٍ بارد؛ في قتل كلّ مَن في هذا المكان.

حاول أن يستر عريه بيديه، فاقترب الحارس ظنًّا منه أنَّ جابر يخفي شيئًا، وحذا حذوَه الحارسُ الثاني. «اسمع يا هذا، طُلِبَ منّا ألا نؤذيك، لكن إن تصرفتْ بحماقة فطلقة واحدة تكفي لإسكاتك إلى الأبد». سحب جابر يده، فبات عاريًا تمامًا. وحين عاد إلى الغرفة بكى بصمت، وأسند رأسه على الكرسيّ.

غيّر الرجال الثلاثة خطّتهم. بعد أن تركوا حقل الزيتون وباتوا على الطريق العامّ، قال زعيمهم: أعتقد أنّنا يجب أن نغيّر خطّتنا، فيها ثغرة قاتلة.

ذهب الوزيران ليجتمعا بمدير المخابرات العامّة. وزيرة التّعليم مصرّة على حضور حفل الافتتاح. يحاول مدير المخابرات العامّة ثنيها عن عزمها. يقول لها: «يا سيّدتي، إنّ في هذا خطورةً حقيقيّة على حياتك، نحن لا نعرف من هم المتورّطون، ولا نعرف حتّى أسماءهم، ومهما تكن خطتنا محكمة، فالخطر قائم. لماذا لا ترسلين نائبك، أو أيّ مدير في الوزارة»؟

تنظرُ الوزيرة إلى عينيه، وتقول: لست أنا من يتراجع مهما يكن السّبب. إنّني مستعدّة لتنفيذ خطتك بحذافيرها، لكنّي سأكون في التدشين، وكأنّي لم أسمع بقصّة الاغتيال.

كانت الخطّة تقضي بزرع عشرات عناصر الأمن بين الجمهور قبل ظهور الوزيرة، ومحاولة معرفة المشتبه فيهم. لن تلقي الوزيرة خطابها مباشرة، بل ستؤخّره ساعة كاملة. وحينها، سيصاب المواطن العادي بالملل ويعود إلى بيته أو عمله. أمّا الذين سيبقون، فسيكون بينهم المتورّطون، بلا أدنى شك.

وصلت وزيرة التعليم إلى مبنى مديريّة المنطقة، ترافقها ثلاث سيّارات من الأمن العامّ. سيصل سائر عناصر الأمن قبل دقائق من الساعة الثالثة وينضمون مباشرة إلى الجمهور الذي سينتظر ساعة كاملة.

نزلت الوزيرة من السّيّارة يرافقها حراس ثلاثة. نظر الحراس حولهم يمسحون المكان بأعينهم قبل أن تترجّل، لكنّهم لم يشكّوا في أمر السّيّارة التي كانت تقف في الجهة الأخرى من الشارع.

بدت السّيّارة كأنّها خالية من أيّ شخص، بعد أن أمال الرجال مقاعدهم وانزلقوا حتى اختفت رؤوسهم.

حين ترجّلت الوزيرة وبدأت تصعد الدرج، اخترقت الطلقة الأولى رأسها من الخلف، ثمّ أصابتها طلقتان في رأسها وصدرها. كانت المرأة ترتدي قميصًا أبيضَ. وحين سقطت على وجهها، سال خيط من الدم

القاني ورسم خطًا مائلًا فوق كتفها. وتناثر شعرها واختلط بالدم الذي ملأ بقعة صغيرة حولها.

حاول حارسها الشَّخصي بعد الطلقة الأولى أن يحميها، لكن المهاجمين كانوا أسرع. ولم ينتظر الحراس في السَّيَّارتين الأخريين وفتحوا النار على سيَّارة المهاجمين التي انطلقت بأقصى سرعتها وطاردتها سيارتا الحراس، الذين عندما فتحوا النار على المهاجمين، قتلوا الرجل الذي كان في المقعد الخلفي. فانطلق السَّائق مسرعًا كالمجنون. ولم يطل الوقت كثيرًا حتَّى اخترقت رصاصات الحراس إطارات سيَّارة المهاجمين.

ترجَّل المهاجمون وبدأ تبادل إطلاق النار. قُتل حارس على الفور. ثمَّ أحد المهاجمين، وبقي رئيسهم حيًا، ولمَّا نفدت ذخيرتُهُ، انتحر.

دخل مدير الأمن الغرفة الصَّغيرة، بعد عودته من البلدة، والشرُّ يتطاير من عينيه. حين رآه جابر هبَّ واقفًا في حركة لاإراديَّة. لم يطلب منه أحد الوقوف. نحن بغريزتنا، بخوفنا من السُّلطة التي تمتلك بيدها حيواتنا، نقف حين نراها متجسِّدة؛ نقف لنثبت لها أنَّنا مواطنون صالحون لعلَّها لا تؤذينا؛ أو أقلُّه تؤذينا بشكل مخفَّف.

يصرخ مدير الأمن في جابر: يا ابن الأفاعي، ضلَّلتنا بخطَّة وهميَّة.لقد قُتِلت الوزيرة.

سقط جابر على المقعد وقد أحسَّ بأنَّ كلَّ شيء في حياته قد انتهى الآن. يتمنَّى أن تنتهي حياته في هذه اللَّحظة، وقد أدرك أنَّه قد سقط في يد السُّلطة، وأنَّ أيَّ قوَّة، أرضيَّةً كانت أم سماويَّة، لن تُخلِّصه من بطشها، ومن غضبها.

ـ يا سيِّدي المدير، أرجوك اسمعني: أقسم باللَّه العظيم إنَّني أخبرتكم بكلِّ شيء، بالحقيقة كاملة. ليس ذنبي إن كان المهاجمون قد غيَّروا خطَّتهم. في إمكانكم أن تحقِّقوا معهم لتتأكَّدوا من أنَّ هذه كانت خطَّتهم في حقل الزيتون.

ـ نحقِّق مع مَن، أيُّها الشَّقي، لقد قُتلوا جميعًا.

يا ربَّ السَّماء، الآن قد أُغلقَت الدائرة حولي، وانتهيت.

صرخ المدير في الحارسين: خذاه وجهزاه للتَّحقيق.

أمسك به الحارسان وأخذاه في ممرٍّ طويل، ثمَّ هبطوا ثلاثتهم

أدراجًا كثيرة. يفكّر جابر في أنّ الحارسين يأخذانه إلى مركز الأرض. بدأت الحرارة ترتفع كلّما هبطوا أدراجًا جديدة. الرطوبة هي الأخرى بدأت تصبح خانقة. تأتي الرّوائح من العمق كثيفة ومركّزة. خليط من إفرازات بشريّة وعفونة وصدأ. الهواء ثقيلٌ هنا، ثقيلٌ جدًا. يحسّ جابر بأنّه يخترق شيئًا سائلًا بقوام كثيف.

الأدراج لا درابزين لها، تُفتَح على مساحات معتمة تشبه الهاوية في الظلام. يسير الحارسان أمامه وهو يتبعهما. يفكّر في أن يهرب منهما، لكن أين سيهرب. ليس إلّاها الهاوية، أصبحت خلاصًا.

توقّف الحارسان وفتحا بابًا ودفعاه. دخل غرفة صغيرة فيها ضوء صغير معلّق في السقف. أجلساه على كرسيّ وأوثقا يديه بحوافّه. بدأ الحارس الواقف إلى يمينهِ يثبّت يده اليمنى، فلم يستطع ربط الحزام ويده الأخرى مشغولة بالسّلاح. يمدّ جابر يده اليسرى التي ما زالت حرّة ويمسك الحزام ليساعد الحارس. والحارس، بدوره، يثبّت الحزام، وينظر مستغربًا إلى جابر، الذي يبتسم بمرارة.

أوثقاه بجانبي الكرسيّ ووقفا قرب الباب ينتظران. وحين اعتادت عيناه على الرؤية في الظلمة الجزئيّة، بدأت ملامح المكان تظهر تباعًا، كما تظهر المدن في الضباب ليلًا لسائق شاحنة.

عُلّقت على الحائط كلّابات كتلك التي تُعلّق فيها جثثُ الحيوانات بعد ذبحها. مطارقُ صغيرة ونوعٌ من الكفاشات. الحائط مزروع بأدوات صغيرة كتلك الموجودة في ورشة حدادة.

أمامه على الحائط الجانبيّ اصطفّ، بشكل هندسيّ، عددٌ من العصيّ، لكلّ منها سُمك وحجم متفاوتان عن الأخرى.

ثمّة حِبالٌ وما يشبه الأحزمة العريضة بدبابيس معدنيّة، كانت ملفاة على الأرض، اصطبغ بعضُها بالأحمر. يفكّر جابر في أنّ رائحة الدم البشريّ هنا قاتلة.

تقدّم أحد الحراس وتناول كماشتين من على الحائط ووضعهما على الطاولة، ثمّ أحضر مطرقة وبعض الأسافين المدبّبة. يا الهة السّماء، ما الذي سيفعلونه بي. ينظر إلى الحارسين لعلّه يفهم شيئًا من تقاسيم وجهيهما، لكنّها باردة ومحايدة.

جاء مدير الأمن وجلس على الكرسي قبالة جابر:

ـ بيدك أن تجعل الأمر سهلًا عليك، أو تجعله جحيمًا. أخبرني بالحقيقة: ما علاقتك بتلك المجموعة؟ مَن هم الأعضاء الذين شاركوا في التخطيط وما زالوا فارّين؟ مَن هو الرأس الكبير لها؟ ما خططكم المستقبليَّة؟ إن تعاونتَ معنا، فسنجد لك أسبابًا مخفِّفة في هذه القضية؟

ـ صدِّقني يا حضرة المدير، لقد أخبرتك بكلّ ما أعرفه. لا علاقة لي بهذه المجموعة أو بغيرها. حظّي العاثر هو من جعلني أستمع إلى حديثهم في حقل الزيتون، فجئت لأردّ إلى الوزيرة جميلًا صنعَتْه لي. أنا فقيرٌ من عائلة فقيرة، همّي هو إيجاد عمل لأساعد والدي، وقد أنهيت دراستي الجامعيَّة منذ مدَّة ليست بالقصيرة. كنت آمل أن تساعدني الوزيرة لأنّي سأنقذها. أقسم إنّي لا أعرف شيئًا عن القضية.

نظر مدير الأمن إلى الحارسين وأومأ إليهما، فذهبا خلف جابر. دفعا بكرسيّه حتّى أصبحت رجلاه تحت مستوى الطاولة تمامًا. فسحبا يديه على سطحها، وأوثقا شدَّ الحزام.

يداهُ الآن ممدَّدتان على راحتيهما فوق الطاولة.

تناول مدير الأمن فجأة مطرقة صغيرة وشيئًا يشبه الإزميل الثخين، ثبّته في ثوانٍ على ظفر يد جابر، وطرقه بالمطرقة.

كان الألم فظيعًا. أحسّ جابر للحظات بأنّ جسده كلَّه مثبّت في ذاك الظفر. اتّكأ المدير عائدًا إلى وضعيَّة جلسته السّابقة. وجابر ما زال ينظر إلى ظفره الذي اصطبغت بقعة تحته بالأحمر القاني.

كلّما مرّ الوقت ازداد الألم. النبض في جسده كلُّه ذهب إلى الظفر. ألَمٌ لَم يخبره من قبل. الدُّموع تنهمر من عينيه من دون أن يحسّ بها، تتساقط على ساعديه المثبّتين.

ـ والآن، هل لديك ما تقوله؟

ـ أقسم باللّـه يا سيّدي، لقد أخبرتكم بكل الحقيقة. لا أعرف شيئًا آخرَ.

تمتدّ يد المدير من جديد بسرعة وتلتقط كمّاشة. يثبّت مع العنصرين راحة كفّه، ويقتلع بالكمّاشة ظفرًا من اليد الأخرى السليمة، وينزعهُ عن اللّحم الحيّ. كان الحارسان قد حجبا بجسديهما الرؤيةَ عن جابر فلم يدرِ ما حدث. أحسّ بألم آخر أشدّ وأقوى، لكنّه يجهل ما فعله

المدير.

حين استقام الحارسان، رأى جابر بقعة الدمَ التي أغرقت جزءًا من الطاولة قرب يده التي فُتحَت فيها تحت الظفر أنسجةٌ حيّة.

صرخ جابر ألمًا، والمدير يقهقه أمامه. الكمّاشة الممسكة بالظُّفر ما زالت في يده. يقربُ الظُّفر الذي كان حيًا قبل لحظات إلى وجه جابر ويمسح الدم عنه بخدّه.

حين يقرّب المدير الظفر منه، يرى جابر أجزاء من الخلايا الحيّة عالقة به بعد انتزاعه. يفكّر في أنّ هذا اللّحم كان جزءًا منه قبل قليل. ما إحساس الإنسان حين يقطع الجلّاد يدَهُ، ويراها تُنزَع منه وتسقط على الأرض. ثمّ، هل يسمحون له بلمسها بعد أن تنفصل عن جسده. هل يدفنونها ككائن بشريّ، أم يرمونها في أقرب حاوية للقمامة؟

يخدشُ المدير خدّ جابر بالظفر؛ ظفرِه الذي كان حيًا قبل لحظات. يمرّره على وجهه ليُحدث جرحًا. يحسّ جابر بالألم، لكنّه شيء لا يُذكَر أمام إصبعه القتيلة. يقهقه المدير ضاحكًا:

ـ أما زلت مصمّمًا على الكذب؟ سنتابع حتّى تخبرنا بأن نتوقّف.

ـ حبًا باللّه يا سيّدي، سأعترف. قل لي بماذا تريدني أن أعترف وأنا مستعدّ لأن أؤيّده، لكن توقّف عن تعذيبي، حبًا باللّه.

ـ أتسخر منّي يا ابن العاهرة؟ أنا أخبرك بما يجب عليك قوله!

أشار المدير إلى الحارسين، فأحضرا زجاجة صغيرة. فتحها، وسكب بعض قطرات فوق اللّحم الحيّ الذي سُلخ عنه الظفر قبل قليل. توقّف قليلًا، ثمّ أضاف قطرات أخرى. يحسّ جابر بنار تشتعل في اللّحم المكشوف. عيناه تقطران دمعًا لاإراديًا. يصرخ ألمًا ويتمنّى أن ينتهي هذا بسرعة ويقتلوه. السّائل الحمضيّ في الزجاجة، كان عذابًا حقيقيًا. يأتي الحارسان ببعض الماء ويغسلان الإصبع من المحلول الحمضي. وينتظر المدير قليلًا ثمّ يسكب السّائل من جديد.

بدا التعذيب منهجيًا ومستمرًا. لم يعد المدير يسأل جابرًا إن كان يريد الاعتراف. كان يمارس التعذيب كأنّه يمارس عملًا فنيًا. يصرخ في الحارسين إن هما سكبا ماءً أكثر من المطلوب فوق الإصبع المدمّاة. يقطّر القطرات ببطء وحذر فوق اللّحم الورديّ كأنّه يضبط اللّون الزيتيّ المُعَدّ للوحة فنّيّة. كان مستغرقًا في عملِه.

استدار إلى ناحية الحارسين فجاءا. ثبّتا يده الأخرى، وبخفّة اقتلع ظفرًا آخر. لم يصرخ جابر كأنّه اعتاد على الألم. تأوّه بعد أن خبا صوته وخانه. يراقب الإصبع الثانية كيف ينزف منها الدم بغزارة. هذه المرّة لم ينجح المدير في اقتلاع كامل الظفر، بل كسره كسرًا، وبقي جزءٌ منه معلّقًا بالإصبع؛ جزء رفض الانفصال القسريّ عن الجسد، فقاوم.

أعاد المدير محاولة اقتلاع ما بقي من الظّفر محاولًا التعويض عن تقصيره في إتمام مهمّته. انتزعت الكمّاشة الظفرَ وجزءًا كبيرًا من اللّحم تحته، حتّى بان العظمُ أبيضَ فضيًا.

عاد الألم أقوى ممّا سبق. انهارت دفاعات جابر وبدأ يبكي بصوت مرتفع. وعندما قطّر المدير بضع قطرات من الحمض فوق الإصبع الثانية، فقد وعيه وسقط رأسه إلى الأمام.

سرعان ما عاد إليه وعيه وقد أحسّ ببرودة شديدة. قذفوه بماء بارد حتّى يصحو.

لا يبدو المدير في عجلة من أمره. أخذ إسفينًا وثبّته على الإصبع التي ظهر شيء من العظم تحتها، ثمّ طرقه بالمطرقة. سمع صوت تحطّم العظم واضحًا.

يصرخ جابر في وجه المدير: يا ابن الأفعى، لن أنسى هذا ما حييت، لن أنسى وجهك إلى الأبد.

بدأت عينا جابر تتّسعان. لم يعد ينظر في أصابعه المدمّاة، بل في عينَي المدير الذي أربكته نظرات جابر، فوقف وقال مخاطبًا الحارسين: سنتابع بعد قليل. وخرج من الغرفة.

الصمت ثقيل الآن. لم يعد الحارسان ينظران إليه، وساد صمت احترامًا للألم. كلّما نظرا إلى عينيه وجدا شيئًا غريبًا يولَد فيهما؛ شيئًا لا يشبه ما خبراه قبلًا في عيون المُعذَّبين.

عاد المدير بعد ربع ساعة وسأل جابرًا إن كان يريد الكلام. ظلّ جابر صامتًا، ينظر إلى عينيه ولا يزيح نظراته عنهما. يعود الألم من جديد فتُكسَرُ عينا جابر ناظرًا إلى أصابعه المدماة.

يشير المدير إلى الحارسين فيلتفا خلف جابر، يمسكانه من رأسه ويضغطان على فكّه في منتصفه حتّى يُفتح فمه عنوة. يرى جابر سكّينًا

حادَّة وكلّابًا حديديًا في يد المدير. يُدخل المدير الكلّاب حتّى يلتقط لسان جابر ويسحبه إلى الأمام. يصرخ جابر ويغمغم، وقد فهم أنَّ المدير سيقطع له لسانه. يتحرَّك ويحاول الكلام. «حسنًا، حسنًا، تودّ الكلام»، يقول المدير ويحرّر لسان جابر. «سأعترف، سأعترف»، يردّد جابر. «حسنًا، هذا جيّد، بدأت تتصرَّف كشخص واعٍ»، يقول المدير.

ليس لدى جابر أيُّ فكرة عن الاعتراف الذي سيدلي به. فكّر بسرعة وقال: نعم، لقد خطّطنا معًا لقتل الوزيرة.

ـ من قائد العمليّة؟

ـ أنا كنت الرأس المدبّر.

ـ كيف توقَّعت أن تفلت من قبضتنا بعد أن تقدّم إلينا معلومات كاذبة؟

ـ كنت أتوقَّع أن تتركوني في حال سبيلي بعد أن زوَّدتكم بالمعلومات.

ـ إلى أيّ حزب تنتمون؟

الآن أُسقطَ في يد جابر، لا يدري بما يجيب المحقّق، والأسوأ أنَّه غير متأكّد من اسم أيّ حزب معارض للحكومة، بل هو غير متأكّد من أسماء سائر الأحزاب في الدولة. يعرف اسم الحزب الحاكم فقط. يبتسم جابر ولا يدري بما يجيب. لو أنَّه يقول للمحقّق: نحنُ من حزب «الخبز للجميع»، فما عساه يكون ردُّ فعل مدير الأمن. تصبح ابتسامته عريضة الآن وتقترب من خطر الضحك. يقول أخيرًا:

ـ نحن لسنا تنظيمًا حزبيًا، بل فقط أربعةُ أشخاص نودّ القيام بأعمال تخريبيّة.

ـ ما هو اعتراضكم على سياسات الحكومة؟ ما هي مطالبكم؟

يا ربّ السَّماء، ما هي مطالبهم، كيف سيجيب الآن؟ يقول أخيرًا:

ـ مطالبنا هي «الخبز للجميع».

في هذه اللَّحظة، كان الحارسان يتهامسان ضاحكين بصوت منخفض، ويشير الحارس إلى الثقب في سترة زميله ويضحكان. وحين سمعا جملة جابر «الخبز للجميع»، ضحكا بصوت عالٍ.

يصرخ المدير: أيُّها الأحمق، أنت تسخر منّي، سترى الآن كيف

تسخر من السُلطة.

أراد جابر المسكين أن يهدّئ روع المحقِّق بأيّ اعتراف، فجلب غضبًا إضافيًا لهذا الجلّاد.

يشير المدير إلى الحارسين، فيُحضران مصباحًا كحوليًا صغيرًا. يفكّر جابر: ما عساهم يفعلون الآن؟ أشعل المدير المصباح حتّى أصبح اللّهب أزرقَ. وبدأ يحمّي إسفينًا مقبضه من الخشب. وعندما أصبح رأسه أحمرَ، ألصقه بيد جابر مباشرة. ارتفعت أبخرة من اللّحم المحترق وفاحت رائحة تشبه رائحة الموت.

فاق الألم كلَّ حدّ، وذهب بما بقي في جابر من تعقّل وانكسار. رفع يديه بما بقي لهُ من قوّة حتّى رفع الطاولة ودفعها. لم يتسنَّ للمدير، الذي باغتهُ تصرُّف جابر، فعلُ شيء، فسقط مع كرسيّه إلى الخلف. ركض الحارسان ليمسكا بجابر، فاحتمى بالطاولة وجعلها حاجزًا بينه وبين جلّاديه.

في هذه اللّحظة، دخلت الوزيرة الغرفة.

عندما فتحت الباب وظهر كامل جسدها في الغرفة، شلّت المفاجأة جابرًا، فسقطت الطاولة أرضًا وتحرّرت يداه من الأحزمة.

رعب جابر الآن مُطلَقٌ.

تتقدّم المرأة وتبدأ ملامحها بالتّشكُّل. رسم الدم فوق قميصها الأبيض خطًّا عرضيًا، والتصق بشعرها الأسود، فجفّ وشكّل خُصلًا صلبة زادت في بشاعة المنظر.

يراها الآن بوضوح. الطلق الناريُّ الذي اخترق رأسها من الخلف، خرج من محجر عينها اليسرى، فترك تجويفًا في دماغها. يمكن لجابر رؤيةُ الحائط خلف الوزيرة من خلال عينها المفتوحة.

الطلقُ الناريُّ الثاني، الذي خرج من أسفل ذقنها، فتح فوَّهةً أكبر، وبان فكُّها السُفليّ وقد فَقَدَ جزءًا كبيرًا من العظم. الطّلق الثالث اخترق صدرها من الجهة اليمنى، وخرَّب جمال ذاك الصّدر الأموميّ الصارخ. تبدو أجزاء من حمّالة الصّدر وقد تمزّقت، هي الأخرى.

يأخذ فجأة المديرُ عصًا من المجموعة المعلّقة على الحائط، يقلبها في يدهِ فتصبح ثعبانًا أسودَ فيه بقعٌ صفراء. يسقط الثُّعبان على الأرض ويزحف إلى جهة جابر. يرى جابر المشهد ولا يتحرّك. يتسلّق

الثُعبان قدمَه، ثمَّ بطنَه، ويلتفُ حول رقبته في التفافات متتالية لا تنتهي. يلتفُ ويضغط، وجابر يفقد القدرة على التنفُس. يحسّ بأنَّه سيموت في لحظات قليلة. لم يقاوم الثُعبانَ لأنَّ الموت سيكون خلاصًا من هذا العذاب. يحسّ بأنَّ روحه بدأت تفيضُ في فراغ المكان، حين تأتي الوزيرة، وتقطع بضربة واحدة رأس الثعبان بالسكين.

رأس الثُعبان في يدها وهي تضحك. تقذفه في الفراغ وتلتقطه فيصبح تفاحة حمراء. تتمايل قليلًا في مكانها. يسحب المدير عصًا أخرى يقلبها في يده فتصبحُ نايًا. ينفخ المدير في الناي فيأتي لحنٌ جنائزيٌ حزين، كأنَّه قائد أسطوريّ لفرقة موسيقيَّة مَلَكيَّة. يرتل الحارسان وسط شموع تحترق. تتمايل الوزيرة وتبدأ تتعرّى ممسكة برأس الثُعبان. تخلع قميصها الأبيض وترميه للحارسين.

ثمَّ تخلع سروالها الأسود وترميه. هي الآن عارية إلَّا من ملابسها الداخليَّة. كانت تتعرّى معطية ظهرها للرجال الأربعة.

تستدير وقد تحوَّلت ابتسامتها إلى ما يشبه الصَّمت، وتقترب من جابر. جسدها الأبيض العاجيّ ما زال أقوى من الموت. يا آلهة السَّماء، كيف يمكن لجمال شبه كامل أن يموت. يرى الآن بوضوح ما فعله الطلق الناري بصدرها الأموميّ الباذخ. تمزَّقت حمالة الصَّدر في جانبها الأيمن السُفليّ، تمامًا تحت المنتصف. القماش الأبيض الممزَّق للحمالة البيضاء اختلط بأنسجة الصدر المتهتِّكة وتداخل معها. يذكر جابر الآن كيف كانوا يهرسون اللَّحم فوق حجر صوان ثمَّ يلفُونه في قماش شاشيّ أبيض قبل أن يخلطوه بالبرغل.

جزء من القماش الممزَّق للحمالة دخل التجويف الذي أحدثه الطلق الناريُّ، وانهارت الأنسجة قرب الحافَّة العلويَّة للتجويف. ما زال الصَّدر الأيسر محافظًا على قوامه الملوكيّ الشامخ. ينقل جابر نظرة بين جهتَي الصَّدر، بين الحياة والموت.

تقترب الوزيرة من جابر وهو صامت لا يتحرَّك. تفتح يديها، وهو يعتقد أنَّها تريد أن تعانقه. لو أنَّها جاءت تعانقه عندما رآها في كامل وجودها الحيّ هناك في مكتبها، لرمى رأسه فوق صدرها وبكى في فعل إنسانيّ، هو الأقدم فيما مارسناه نحن البشر. الأقدم حين ارتمينا فوق «آلهة أم» لنبكي ضعفنا وقلّة حيلتنا أمام الكون العظيم. الآن هو يبكي أيضًا؛ يبكي موت الأمّ الإلهة؛ موت الحياة في صدرها الخصب؛ موت الحياة في جفاف ينابيعها.

تقترب أكثر فيتحوَّل إحساسه بالحزن إلى رعب مطلق. التجاويف الثلاثة في جسدها خلقت ثالوثًا متجسّدًا للموت. ينظرُ في أرضيَّة الغرفة هربًا من رؤية الصدر المثقوب بوضوح وقد بات أمامه مباشرة.

ترفع بيدها رأسه. تمرّ عيناهُ فوق الثقوب في جسدها تباعًا، في صدرِها وفكّها وعينِها. تقترب من أذنه وتهمس: لقد أنقذتك، فلماذا قتلتني. تريد الوزيرة أن تبكي، ثمَّ تستدرك بأنَّ لا عين لها لتبكي.

تريد أن تجفِّف دمعها فتخترق إصبعها موضع العين المفقودة. جابر يصرخ: لا، لا.

حين فتح جابرٌ عينيه كان الحارسان يهزّانه. أحدهما صرخ في وجهه: استيقظ يا هذا، وتوقّف عن الصُراخ. يدخل مدير الأمن الغرفة في اللّحظة نفسها، فينسحب الحارسان إلى الخلف، ويفسحان له الطريق ليتقدّم إلى ناحية جابر.

وقف جابر حين رأى المدير. ينظر في يديه ليرى مواضع الأظافر التي اقتُلِعت قبل دقائق. ينظر في يد المدير ليرى الناي.

ما زال الفصل بين الحلم والحقيقة صعبًا. تجول نظراته في جدران الغرفة وفي الأرضيّة. لا يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول. أهي غرفة التّحقيق أسفل الدّرج الذي لا ينتهي، أم الغرفة الصغيرة إلى جانب مكتب المدير؟ هل المدير أمامه هو الرجل عينهُ، الذي اقتلع أظافره قبل لحظات. أيتقدّم ويقتله بيديه الحرّتين، أم يركع أمامه ويطلب الرحمة؟

«سترى الآن الخيط الواهن بين الحقيقة والحلم. سترى كيف تتساوى الحقيقة والحلم في تأثيرهما في النّفس البشريّة. سيبصم فيك هذا الخلم بصمتهُ كأنّه واقعٌ وحقيقة. سيجعلك وحشًا»، يقول الرجل الكبير مبتسمًا، وجابر ينظر إلى أصابعه.

يتقدّم المدير نحوه صامتًا. يمد يده إلى جابر مصافحًا ويقول: «شكرًا لك أيُها المواطن الصالح، لقد أنقذت حياة وزيرة بمعلوماتك التي قدّمتها عن المخرّبين». يفكّر جابر في أنّ المدير يهزأ منه، أو ربّما هي طريقة جديدة في التّحقيق، تأخذ المتُهَم إلى الرّاحة والسكينة، ثمّ تفاجئه فيعترف.

- لن تستطيع الوزيرة رؤيتك اليوم بعد التوتُر والإرهاق اللذين أصاباها، لكنّها ستقابلك في الغد عند الحادية عشرة في مكتبها. سترسل إليك سيّارتها الخاصّة عند التّاسعة صباحًا.

لا يدري بما يجيب، فوجد نفسه يقول: وهل تعرفون بيتي في البلدة؟

- نحن نعرف عنك كلّ شيء أيُها المواطن. الوقت الآن قد تأخّر، أتود العودة إلى بلدتك بسيّارة من المديريّة، أم تفضّل البقاء اللّيلة في فندق على حساب الوزارة؟

يتشكّك جابر في كلام المدير. لن ينام ليلته في الفندق، فربّما وضعوا له كاميرات مراقبة ليترصّدوا أحاسيسه وأفكاره. فيقول: أفضّل العودة إلى البلدة.

بقي جابر غيرَ مصدّق حتّى انطلقت السّيّارة وغادرت المدينة. كان السّائق صامتًا، أشعل سيجارة وأعطى جابرًا واحدة. راديو السّيّارة يبث أغاني قديمة، ارتبطت بطفولة جابر وشبابه في البلدة. تخترق السّيّارة حجاب اللّيل، وتترك المدينة خلفها غارقة بأنوارها. يفكّر جابر في أنّ ما مرّ به اليوم يشبه حُلمًا قديمًا رآه؛ يشبه شيئًا كذلك الإحساس بمساواة المستقبل بالماضي، في شريط سريع يمرّ بالأبيض والأسود. شيء يشبه المعرفة الكلّيّة.

بقيت تراوده الشكوك حتّى أوصله السّائق إلى أمام بيته تمامًا. لم يسأله عن عنوانه في البلدة، إنّهم يعرفون كلّ شيء عنه.

كان والداه جالسين في حديقة المنزل ينتظرانه. ركضت الأمّ تحتضنُهُ وهي تبكي: «أين كنت يا ولدي، تجاوزت السّاعة الثانية فجرًا».

ـ كنتُ في المدينة يا أمّي، وقد أخبرت أبي.

الأب صامت، ينظر إليه كأنّه يحسّ بأنّ أمرًا عظيمًا قد حدث.

أضافت الأم: جرى إطلاق نار في البلدة واعتقالات كثيرة، خشينا أن يصيبك مكروه.

ـ أنا بخير يا أمّي، سأنام الآن، ففي الغد سأسافر مجدّدًا إلى المدينة.

دخل جابر غرفته. نام ليلته أرقًا. ينام لدقائق ثمّ يستيقظ، وأدواتُ التعذيب في الغرفة أسفل الدّرج، الذي لا ينتهي، ماثلةً أمامه.

ستخبره الوزيرة فيما بعد، من خلال دموعها، في لحظة ضعف تتفوّق فيها الأنوثةُ على السّلطة والجبروت، بالقصّة كاملة. ستخبره بكلّ تفاصيل هذا اليوم. كيف أُلقي القبضُ على رجل وقُتل اثنان. ستخبره بخوفها وهي تنتظرُ في المبنى ساعةً كاملة محاطةً بعشرات الحراس قبل أن يكتشفوا الفاعلين ويطاردوهم؛ ستخبرهُ بأنّها في اللّحظة التي خرجت فيها من البلدة في نهاية النهار سالمة، لم تكن ترى إلّا صورتهُ أمامها.

في صباح اليوم التّالي، جاءت سيارة عند التّاسعة صباحًا وأخذته ليقابل الوزيرة.

حين أوصله السّائق إلى مكتبها، طلب منه مدير مكتبها الانتظار لأنّها في اجتماع. جلس جابرٌ ينتظر. كان قد استيقظ في الصّباح الباكر وحلق ذقنه. حاول أن يظهر في مظهر لائق، لكنّ ثيابه لم تُسعفه كثيرًا. وحين نظر إلى المرآة قبل أن يغادر منزله، لم يكن يدري أنّه لن يرى وجهه بعد اليوم بتلك الهيئة، ولن يرى عينيه بعدها بمثل هذا الصفاء.

«أهلًا جابر»، تقول الوزيرة، بعد أن دخلت الفسحة المؤدّية إلى مكتبها مصافِحةً إيّاه. يحسّ برطوبة يدها، وبقشعريرة في جسده الضعيف.

«من هنا»، وتشير إليه ليتبعها، وتضع يدها خلف ظهره في حركة تحبُّب أربكته كثيرًا فكاد يتعثّر بالسّجادة الملوّنة الفاخرة عند الباب المؤدّي إلى مكتبها.

لم ينتبه كثيرًا للمكان الباذخ الجمال، والمقاعد الجلديّة واللّوحات، والمكتب الخشبيّ العريض. كان كلُّ كيانه معلّقًا بشخصها الآسر، وشعرها وعينيها وجسدها. ينسى للحظات أنّه هنا يمكن أن يطلب منها أيّ شيء؛ أن تجد له وظيفة جيّدة، أو أن تمنحه باسم الوزارة منحةً للدراسة في الخارج. كان صامتًا ينظرُ خلسة إلى وجهها العذب الرقيق.

أعاده صوتُها إلى الواقع، «لقد أنقذت حياتي يا جابر. لولا قدومُك بالأمس لكنت الآن ربّما ميّتة». ذكّرته كلمتها الأخيرة بجسدها في الحلم وقد اخترقته رصاصات ثلاث. يحاول أن يبعد الصُّورة عن خياله حتى لا ترى الوزيرة في وجهه أيّ علامة غريبة، ولا ينجح. ينظر إلى الأرضيّة الرّخاميّة وقد وجدها الطريقة الوحيدة التي يخفي فيها وجهه:

ـ لن أنسى أنّكِ أبطلت قرار طردي من السّكن الجامعيّ، وأنقذتني قبل امتحاني الأخير بأشهر قليلة. صدّقيني، كنت سأنقذكِ حتّى ولو كلّفني ذلك حياتي.

جابر صادق في كلّ كلمة قالها للوزيرة. لقد اجتمع في شخصها المنقذُ والجمال.

ـ حسنًا يا جابر، ليس لديّ الكثير من الوقت. أنت تعرف المشاغل والعمل.

ـ نعم سيّدتي، معك حقّ، أعتذر إن كنتُ سبّبت لك أيّ إزعاج.

ـ لا إزعاج ابدًا، أنا من طلبت لقاءك. كيف يمكنني مساعدتك؟

ـ لا شيء يا سيّدتي، فعلتُ ما فعلت لأنقذ إنسانًا أحسن إليّ، لا لأتلقى مقابلًا.

يخجل جابر أن يطلب منها عملًا أو منحة دراسيّة. تنظر في عينيه ثمّ تقول: «لا تخجل، اطلب منّي شيئًا، شيئًا معقولًا أستطيع تلبيته»، وتبتسم.

ينبض قلب جابر كمضخة بُنيت فوق سدّ. إشارتُها التي فهم فيها بعضَ الموارِبة أربكتهُ أكثر من أن تساعده.

ـ كنت أفكّر إن كنت تستطيعين مساعدتي...

ويتوقّف للحظات، تخذله الكلمات هنا.

ـ أساعدك في أيّ شيء. أكمِل يا جابر.

ـ في إيجاد عمل.

ـ أنت لم تعمل بعد؟

ـ لا، يا سيّدتي.

ـ ما هي شهادتُك؟

ـ اقتصاد.

ـ حسنًا، أمهلني بضعة أيّام وسأتّصل بك.

ـ شكرًا لك.

تقف الوزيرة وتقترب منه، تمدّ يدها مصافِحة. يجعله ملمس يدها مرّةً أخرى يشعر بالخجل أو بشيء يشبه الحاجة إلى شيء واستحالتُه وقربَه في الوقت عينه.

ـ سيعيدك السّائق إلى البلدة. في غضون أيّام، أتّصل بك، أو أرسل السّائق مباشرة. مع السّلامة.

ـ مع السّلامة، سيّدتي.

في الأيّام التالية في البلدة لم يفعل الكثير. كان يبقى في غرفته حتّى ساعة متأخّرة من النهار. يخرج أحيانًا لشراء السجائر. كان يشتري الصحف أحيانًا ليبحث عن عمل، أمّا الآن، فلا داعي بعد أن وعدته

الوزيرة.

مرّ أسبوع ولم تتّصل به الوزيرة أو مدير مكتبها. لا بدّ من أنّها مشغولة الآن أو نسيت أمري تمامًا. هكذا يحدث غالبًا. في اللّحظات الحميميّة نكون مندفعين عاطفيًا فنقدّم الوعود وكلُّنا إيمان بضرورة تحقيقها، وبمرور الوقت نندم على وعد قطعناه في لحظة فيضان المشاعر. يمكن أن تكون الوزيرة لامت نفسها بعد أيّام: كيف قطعتُ له وعدًا. ثمّ تلتزم الصّمت لعلّ جابرًا يحذو حذوها.

عندما مرّ الأسبوع الثاني ولم يتّصل به أحد، بدأت ذكريات غرفة التحقيق تراوده بشكل مستمرّ. لقد كان حلمًا، هذا صحيح، لكنّه كان من القوّة بحيث إنّ جابرًا، عندما يستعيد أحداثه، يشعر برغبة جامحة في قتل مدير الأمن وحارسيه من دون تردُّد، إن أتيحت له الفرصة.

جاءت ابنة خالته لزيارتهم أكثر من مرّة. لم يعد ينظر إليها بالطريقة نفسها، وكثيرًا ما كان يبقى في غرفته حتّى ذهابها. اختُصِرت صورةُ المرأة في عينيه في شخص الوزيرة، فلم يعد يكترث كثيرًا لمن بقي من نساء. ولقد انتبهت ابنة خالته لبروده، فكفّت عن المجيء.

تسألهُ الأم: ماذا حلّ بك يا بنيّ، أراك غريب الأطوار منذ زيارتك الأخيرة للمدينة؟

ـ لا شيء يا أمّي، البحث عن عمل يشغل تفكيري، هذا كلّ ما في الأمر.

ـ ستجد عملًا يا بني، الحياة ليست عملًا فحسب. أتعتقد أنّي لم أنتبه لبرودك مع ابنة خالتك.

ـ ليس برودًا، لكنّي مشغول التفكير في إيجاد عمل، لا يمكنني أن أبقى عاطلًا أكثر.

مرّت أسابيع ثلاثة. قطع جابر الأمل نهائيًا باتّصال الوزيرة به. وبدأت حاجته إلى المال تثقل عليه. يحسّ بالخجل عندما يترك له أبوه مبلغًا من المال في غرفته من دون أيّ كلمة. قرّر أن ينزل إلى السّوق في اليوم التالي ويعمل أيّ شيء، حتّى إن كان حمّالًا أو أجيرًا في مخبز، أو جامع قمامة.

خرج في الصّباح إلى السّوق ليبحث عن عمل. أصابه منظر الحمّالين بالرعب. يحمل أحدهم كيسًا بزنة خمسين كيلوغرامًا لمسافة

عشرة أمتار ويلقيه في الشاحنة ليتسلّمه آخر، ثمّ يعود من جديد بكيس جديد. عشر ساعات من العمل المستمرّ، جيئةً وإيابًا. وعندما سأل أحد المحالّ عن أجر الحمّال اكتمل رعبه، فهو لا يحصل في يوم عمله إلّا على قروش قليلة؛ أي ما يكفي ثمن الطعام والسّجائر. طرد الفكرة، أجّلها إلى الغد، وهو يعلم بأنّه في الغد سيعود يؤجّلها مرّة أخرى. جميعنا نفعل ذلك للتهرُّب من واجب ثقيل.

حين عاد إلى البيت، أخبرته أمّه بأنّ شخصًا اتّصل من وزارة التّعليم وترك له رسالة: في التّاسعة صباحًا من يوم الغد، ستأتي سيارة تأخذه من البلدة.

قضى ليلتهُ يفكّر في لقائه الوزير صباح الغد. لم يَنَم حتّى الرابعة صباحًا، وهو يتخيّلها خلف مكتبها الوثير في فستان أبيض كشف عن كتفيها وساعديها. لا، ربّما ستكون في ثوب أسود. لا يُعقَل أن يراها دائمًا بالألوان نفسها. أو ربّما ستكون مرتدية بنطالًا وسترة زرقاء قاتمة. هذا يلائم لون بشرتها الحليبيّ. شعرها ربّما ستجمعهُ في الأعلى فتكشف عن رقبتها كاملة وتتسرّب عن النَّسق بعضُ الشعيرات تلامس الأذنين لتزيد في سحرها وفي عذابه. يصحو من أحلامه للحظات ويتذكّر الفارق الشاسع بينهما. هي وزيرة في الدولة، وهو عاطل عن العمل، فقير من بلدة بعيدة. يعودُ إلى أحلامه، يذكر التاريخُ بعضَ العلاقات غير المتكافئة بين طرفيها؛ يذكر ملكًا وخادمة أو أميرةً وسائس خيل. يضحك من خيالاته، ويحاول النوم من جديد.

يجافيه النوم ثانية. كيف كانت طفولتها؟ ربّما كانت قاسية كطفولته. وُلدت لأسرة كبيرة العدد في إحدى ضواحي المدينة؛ أسرة فقيرة الحال ربما. في سنوات دراستها، لم تكن مجتهدة في صفّها، توبّخها المعلّمات دائمًا لتقصيرها في الدروس. وفي المنزل، كانت ثيابها دائمًا مستعمَلة بنصف عمر، تحصل عليها من أختيها الكبيرتين، أو ربّما من بائعي الألبسة المستعملة. وبدأ نجمها يسطع في الجامعة. جمالها وفتنتها كانا جواز سفرها إلى عالم الكبار. أقامت علاقات مع مسؤولي الجامعة، ثمّ وصلت بعلاقاتها إلى مستوًى أعلى، وزراء مثلًا. عُيّنت فور تخرُّجها أستاذة في الجامعة، ثمّ رئيسةً أعلى للجامعة، فوزيرةً.

كيف كانت طفولتها؟ ربّما العكس تمامًا، وربّما شيء آخر. لو يستطيع جابر أن يعرف حياتها كلّها. لو أنّ شريطًا سينمائيًا يمرّ أمام عينيه الآن يروي قصتها. لكنْ، ما الفائدة من ذلك. لنفترض أنّه عرف أدقّ تفاصيل حياتها، حتّى علاقتها بزوجها وطفلها؛ علاقتها بمرؤوسيها وأصدقائها؛ علاقتها بجسدها الباذخ الجمال وبروحها التي تتخفّى خلف قضبان الجسد. ما الفائدة؟

لا يعلم جابر الآن بأنّها انفصلت عن زوجها قبل تسميتها وزيرة بفترة قصيرة، لسبب لا تعلم به حتّى هي. ستقول إن سألها أحدهم عن السبب: ببساطة، أحسّست بأنّي أريد الانفصال عنه، فلم أنتظر طويلًا.

غفا جابر أخيرًا وهو يفكّر في أنّ سلطتها هي التي أعطتها هذا

الزخم كلّه في خياله، لا جمالها.

حلق ذقنه في الصّباح واستحمّ. لم تُقنعه من جديد ثيابُه شبهُ البالية، والتي سيرتديها للمرّة الثانية وهو يذهب للقائها، سيبحث فيما بعد، عن هذه الثياب كثيرًا في منزل والديه ولن يجدها. سيبحث عن نفسه بين الجدران ومقاعد الخشب القديمة ولن يجدها. سيذكر هذه اللّحظات كثيرًا فيما بعد.

في الطّريق إلى المدينة، بقي السّائق صامتًا كعادته. لا بدّ من أنّ هؤلاء الأشخاص الذين يعملون لدى رجالات الدولة، قد تعلّموا الصّمت كضرورة للعيش، أو ربّما هم يعبّرون بصمتهم عن غضبهم حين يصبح الكلام جريمة يحاسب عليها القانون.

أخبره مدير مكتبها بأنّها تنتظره في الداخل. قرع الباب، فجاء صوتها من العمق: تفضّل. وخلافًا لكلّ توقّعاتِه، كانت ترتدي سروالًا أسودَ وقميصًا أزرقَ بلون البحر. قامت من خلف مكتبها وصافحته. ولم تعد إلى مكانها، بل جلست قبالته على الكرسي. لا يقوى على أن يرفع عينيه عنها، وقد كشفت ثيابها عن مفاتن جسدها أكثر من أيّ مرّة. يفكّر جابر: أتنتبه لعينَيّ كيف تعرّيانها؟ أم تتعامل معي بحيادية مطلقة. لا تشي نظراتها إليّ بأيّ خصوصيّة، لكنّي أحسّ أحيانًا بعينيها غريبتين عنها. عينان حالمتان لا أثر للسّلطة والجبروت فيهما.

ـ نسيت أن أسألك في اللّقاء الأوّل، أتريد عملًا في المدينة، أم في بلدتك؟

ـ ليس مهمًّا المكان، يا سيّدتي، يمكنني العمل هنا في المدينة، أو في البلدة، لكنّي أفضّل المدينة.

يفكّر في أنّه حين يعمل في المدينة سيكون قريبًا منها، حتّى وإن لم يَرَها. يكفيه الإحساس بالقرب منها. يا للشقاء البشريّ.

ـ هكذا يكون الأمر أسهل. وجدت لك عملًا مناسبًا في المدينة.

عيناهُ معلّقتان بشفتيها الآن وهي تخبره بطبيعة عمله. يا آلهة السّماء، ليكُن عملًا سهلًا، لا جهدَ عضليًا فيه. ينتظرها لتخبره بنوع العمل، لكن الهاتف يرنّ قبل أن تخبره بالأمر:

«ألم أقل لك إنّي لا أريد أيّ مقاطعات الآن»، توبّخ مدير مكتبها.

ـ لا هواتف، ولا مراجعات على الإطلاق، أتفهم؟

تغلق الهاتف وتعود قبالته. يحسّ ببعض الارتياح. تخصّص الوزيرة له وقتًا كاملًا، وتطلب من مدير مكتبها عدم تحويل أيّ مكالمة إليها.

ـ اسمعني جيّدًا يا جابر. سأعيّنك، بقرار منّي، عضوًا في اللّجنة الفرعيّة لشؤون الطلّاب في الجامعة، ونائبًا لرئيسها.

تقول الوزيرة ذلك، وتنظرُ في عينيه مباشرة. يا آلهة السّماء، هذا عمل كبير، كبير جدًا. لم يكن جابر يطمح، في أقصى تخيُّلاته، إلى أكثر من موظّف بسيط في مؤسّسة ما، أو ربّما مراقب للدوام في شركة من شركات الدولة. وها يُعرَضُ عليه منصبُ عضو في اللّجنة الفرعيّة، ونائب للرّئيس. تلك اللّجنة التي تتحكّم في كلّ قرارات الجامعة بحقّ الطلّاب، وتستطيع إبطال أيّ قرار أو تثبيته. إنّها أعلى حتّى من اللّجنة الفرعيّة للسّكن الجامعيّ؛ تلك التي حاولت طرده. هذا منصب يحمل الكثير من المسؤوليّة.

«يحمل المنصبُ الكثير من المسؤوليّة»، تتابع الوزيرة، «لكنّي أثق بك. ما رأيك؟»

لا يدري جابر ما يقول. ذلك منصب سيُدخله عالمًا يراهُ أسودَ ظالمًا؛ منصبٌ سيساويه بجلّاديه في الماضي. لا، لن يقبل، سيُخبرها برفضه الآن. يمكنه أن يطلب منها عملًا بسيطًا؛ عاملَ تنظيفات في الوزارة مثلًا، أو أيّ شيء آخر.

يأتي المستخدَم بفنجانَي قهوة لهما. يشغل جابر نفسه بالقهوة عنها. كيف سيرفض مَكرُمتها. ربّما ستعتبر رفضه إهانة. هو ضائع تمامًا.

«ما رأيك»؟ ترفع الوزيرة نبرة صوتها، وقد أزعجها تردُّد جابر بعد أن منحتهُ شيئًا لم يحلم به طوال عمره.

ـ موافق بالتأكيد، يا سيّدتي، لكنّي أخشى ألّا أكون أهلًا لواجب كهذا.

ـ لا عليك، ستتعلّم. اللّجنة، برئيسها ونائبه الذي سيكون أنت، مرتبطةٌ شخصيًا بي. ستُرفع التقارير إليّ في النهاية بعد أن تصل إلى إدارة الجامعة.

سيكون على اتّصال مباشر بها، يبتسم. يا لها من سعادة. يمكنه أن يعمل أيّ شيء ليراها تباعًا. لا يدري أين يذهب بابتسامته التي عرّتهُ

أمامها.

ـ شرف عظيم ثقتُك بي يا سيّدتي. سأكون عند حسن ظنك.

تقف الوزير وتصافحه:

ـ سأوقّع قرار تعيينك اليوم، عليك الالتحاق بعملك في غضون خمسة أيّام.

ـ شكرًا لك من أعماق قلبي، يا سيّدتي.

ـ اسمع، يا جابر، يمكنك أن تأتي إليّ في أيّ وقت تريد، سأساعدك ما حييتُ إن كان ذلك في استطاعتي. لقد أنقذت حياتي.

حين أخبر والديه بانتقاله الوشيك إلى المدينة بعد حصوله على عمل، بكت الأمّ:

ـ كيف ستتركنا يا ولدي وحدنا هنا.

ـ سأعود في أيّام العُطل لأزوركما. لا يمكنني أن أرفض عرضًا كهذا، يا أمّي.

ـ وفّقك اللّه يا بنيّ، أما كان في إمكانك إيجاد عمل هنا.

لم يخبر والديه بقصّة الوزيرة وإنقاذه لها من الاغتيال. قال إنّه تقدّم إلى العمل وقبلوه. وبقي الأب صامتًا. كان صمتُه يُثقل على روح جابر. كان صمته أعمقَ من أيّ كلمة تُقال.

أعطاه الأب مبلغًا من المال ليتدبّر أمره في البداية.

ـ لن أتغيّب كثيرًا يا أبي، سأزوركما تباعًا، صدّقني.

لا يدري جابر في هذه اللّحظة أنّه لن يفي بوعده أبدًا. سيرى والديه مرّات قليلة جدًا لسنوات طويلة.

ـ انتبه لنفسك يا بني. المدينة حوت كبير.

سافر في اليوم التالي مع الفجر. وحين وصل إلى المدينة، بدأ يبحث عن شقّة صغيرة فورًا، فوجد واحدة بسعر مناسب، عبارة عن غرفتين صغيرتين ومطبخ وحمام. كانت كافية لهُ.

ذهب في اليوم التّالي إلى الجامعة لتسلُّم عمله. استقبله رئيس اللّجنة الفرعيّة لشؤون الطلّاب استقبالًا باردًا، أو هكذا أحسّ جابر. سيتأكّد فيما بعد من إحساسه. كان يشرح لهُ طبيعة عمله على مضض.

غريب أمر هذا الرجل، لم يأخذ جابر مكانه، فلمَ يعامله هكذا. ما لا يعرفه جابر أنَّ النائب القديم كان صديقًا مقرَّبًا إلى الرَّئيس، ولم يَرُقْ له قرار الوزيرة نقل النائب وتعيين جابر مكانه.

عكف جابر في شهره الأوَّل على قراءة كلِّ الأنظمة الداخليَّة والقوانين والعقوبات لكلٍّ من الجامعة واللِّجان الفرعيَّة، كما اطَّلع على كثير من القضايا التي ناقشتها اللِّجان في السنوات الأخيرة. كان يبقى في مكتبه حتَّى ساعة متأخِّرة من اللَّيل.

أقام علاقات وديَّة مع الجميع، بمن فيهم الرئيس الأعلى للجامعة. وحده رئيس اللَّجنة كان يتجاهلهُ ولا يظهر تجاهه أيّ ود، وأخبره بأنَّ هناك قضية في اليوم التَّالي، فقال جابر:

- لم أقرأ ملفَّ القضيَّة، أيمكنك تزويدي بنسخة.

- لا داعي لأن تقرأ، ستوافقني في الرأي، وانتهى الأمر.

قال الرئيس ذلك، وترك جابرًا من دون أيّ كلمة أخرى، لكن ما لن يعرفه أنَّ جابرًا بحث عن ملف القضية ووجده، وقرأه مرَّات كثيرة، وفهم كلَّ نقطة فيه.

اجتمعت اللَّجنة في اليوم التَّالي. الرَّئيس وجابر وأربعة أعضاء. كانت القضيَّة عن طالب ضُبط في حالة غش في امتحان. التزم جابر الصَّمت ليرى كيف تسير الأمور. لم يكن فارق السّنّ كبيرًا بينه وبين الطَّالب. فقط ثلاث سنين أو أقلّ. وملابسهُ تدلّ على أنَّه متوسّط الحال.

سأل أعضاءُ اللَّجنة الطَّالب أسئلةً كثيرة، والأخير كان يجيب عنها.

يحسّ جابر الآن بمعنى السُّلطة. مصير هذا الطَّالب مُعلَّق بكلمة من فمه مع الآخرين. يكفي، بحسب قوانين اللَّجنة، أن يعترض الرَّئيس أو نائبه على إجماع اللَّجنة ليُرفع القرار بعدها إلى الرَّئيس الأعلى للجامعة، فينظر فيه ثمَّ يعيده ثانية إليها. وإن عادت القضيَّة إلى حالتها السَّابقة بعدم الوصول إلى قرار، تُرفَع إلى الوزيرة لتقرِّر بنفسها، وهي حالات نادرة جدًّا.

صوَّتت اللَّجنة بعدم كفاية الأدلَّة على قيام الطالب بالغش وإسقاط القضيَّة، ووافق الرئيس على قرارها، لكنَّها تنتظر الآن قرار

جابر. وقد استبقه الرَّئيس وقال: نائبي يوافقني في الرأي، القضيَّة منتهية لعدم كفاية الأدلَّة.

وفي اللَّحظة التي وقف فيها الرَّئيس والأعضاء للمغادرة، قال جابر: «مهلًا، أيُّها الزملاء، أنا أعترض على قرار اللَّجنة». فنظر الرَّئيس إليه غيرَ مصدِّق:

ـ ماذا تقول؟

كرَّر جابر الجملة عينها: أنا أعترض على قرار اللَّجنة، الطَّالب مذنب.

ما لم يعرفه جابر أنَّ الطَّالب رشى أعضاء اللَّجنة ورئيسها بالأمس، لذلك صوَّتوا لمصلحته.

فخرج رئيس اللَّجنة غاضبًا من القاعة، يتبعه الأعضاء.

لا يدري جابر بأمر الرَّشوة. صحيح أنَّه مقتنع تمامًا بأنَّ الطَّالب مذنب بعد أن درس ملفَّ قضيَّته أكثر من ثلاث ساعات، لكن تبرئته كانت أقرب إلى المنطق. الحكم بذنبه يعني حرمانهُ الدراسةَ عامًا كاملًا. بكلمة أخرى، يعني كارثة حقيقيَّة للطَّالب الذي بدا عليه أنَّه بين متوسِّط الحال وفقير. وربَّما الرشوة التي قدَّمها ستجعلهُ معدومًا أشهرًا طويلة.

الغريب، الآن، أنَّ جابرًا نفسه وقف أمام اللَّجنة التي حكمت بطرده. المنطق يقول إنَّ عليه التعاطفَ مع الطَّالب الذي يرى فيه صورته قبل عام تقريبًا. لكنَّه سيصر على قراره. وستعود القضيَّة من مكتب الرَّئيس الأعلى للجامعة مع توصية مبهَمة بإعادة دراستها. وستبرِّئه اللَّجنة للمرَّة الثانية، وجابر سيعترض. وعند عودتها من مكتب الوزيرة، سيكون الحكم بمسؤوليَّة الطَّالب، وسيُحرَم الدِّراسةَ عامًا كاملًا. لقد ناصرت الوزيرة جابرًا. وهو انتصر على رئيسه.

يتحوَّل جابر الآن إلى شخص آخر.

بدأت علاقتهُ تتوطَّد برئيس الجامعة بعد أن ذاع صيتهُ بأنَّ الوزيرة عيَّنتهُ شخصيًا. كانوا يتهامسون: لا بدَّ من أنَّه يعرفها معرفة شخصيَّة، أو ربَّما تربطهما قرابة دم بعيدة. ولم يبالغ أحد في افتراض علاقة حميمة بينهما، وخصوصًا أنَّها تكبره بثماني سنين، في أقلّ تقدير.

ازداد وجوده في مكتب الرَّئيس الأعلى الجامعة، حتَّى أنَّ الرَّئيس كان يسأل عنه إن تغيَّب يومًا عن المجيء. وقد كان ينقل إليه كلَّ ما

يدور في كواليس اللّجان، وكلّ ما يسمعه في الجامعة عن الطُلّاب والأساتذة والموظّفين. لقد أضحى عينَ الرّئيس الخفيّة.

كان يبقى في مكتبه حتّى ساعة متأخّرة معظمَ الأوقات، يراجع ملفّات قضايا قديمة ويفتش عن الثغرات فيها.

في الاجتماع الشهريّ لمجلس الجامعة، التقى رئيسَ اللّجنة الفرعيّة للسّكن الجامعيّ، ذلك الذي حاول طرده قبل أقلّ من عام. يقترب الرجل من جابر مصافحًا، فيتصنّع الأخير عدمَ الانتباه ويتابع طريقه. أمّا رئيس اللّجنة فيُصاب بالذهول، ثمّ الرعب. رجل يتجاهل يدًا ممدودة من رئيس لجنة فرعيّة، لا بدّ من أنّ قدميه راسختان في المكان.

في القضيّة الثانية التي عُرضت على اللّجنة، بدأ جابر يتصرّف كأنّه الرّئيس لا نائبه. كان الرّئيس يوافقه في قراراته، ويخشى غضبه الذي سيكون غضب الوزيرة بلا شكّ، ولم يدرِ أيٌّ من الذين يحيطون به أنّه منذ تعيينه، قبل أشهر ثلاثة، لم يرَ الوزيرة.

كان مشغولًا بسلطته الجديدة، حتّى إنّه بدأ ينسى الوزيرة؛ تلك المرأة السّاحرة.

اتّصلت به في مكتبه تطمئنّ عليه بعد أربعة أشهر من تعيينه.

ـ كيف حالك يا جابر؟

ـ في أحسن حال، يا سيّدتي، والفضل لك.

ـ في الأسبوع القادم، مرّ بمكتبي.

ـ أمرك يا سيّدتي، سأكون هناك.

ما الذي تريدهُ منّي الوزيرة؟ ربّما اشتكاني أحدهم إليها، أو أنّها تريد رؤيتي فقط. يبتسم جابر وقد أحسّ بحماقة أفكاره.

تعود صورتها الآن أقوى. لا تبعد عنه أكثر من نصف ساعة سيرًا على الأقدام. كيف لم يفكّر في زيارتها قبل ذلك، لم يخابرها أبدًا، بل انتظرها لتتّصل به. لا بدّ من أنّها تعتبره ناكرًا للجميل.

كان الطلبة يخطّطون للتّظاهر داخل الحرم الجامعيّ غدًا احتجاجًا على رفع رسوم الدّراسة، ثمّ الخروج من الحرم الجامعيّ نحو مركز المدينة، حيث من المتوقّع أن ينضمّ إلى الحشد الكثيرون. أخبرهُ

بذلك أحد أعضاء اللّجان، الذي حصل على المعلومة من أحد أقربائه الطلّاب. أخبره الرجل ليتقرّب إليه، بعد أن ذاع صيتُ قسوتهِ في قرارات اللّجنة، وعدم اكتراثه لمن هم أعلى منه. والسّبب طبعًا، كما يرى الجميع، هو علاقتُه المتينة بالوزيرة.

اتّصل بالوزيرة مباشرة.

ـ عذرًا لإزعاجك، سيّدتي.

ـ أهلًا جابر، هل ستعتذر عن موعدك الأسبوع القادم؟

تقول الوزيرة وقد ظهر في صوتها ما يشبه العتب. من يسمعها تتكلّم مع جابر لا يعتقد أنّها وزيرة تكلّم مرؤوسًا أدنى منها سلطةً بمراحل.

ـ لا يا سيّدتي، لكن يجب أن أراك اللّيلة.

ـ ما الخبر يا جابر؟

ـ أمر ضروريّ سيحدث غدًا. لا يمكنني الحديث عبر الهاتف.

السّاعة تتجاوز الثامنة مساءً والوزيرة، بلا شك، غادرت مكتبها. لم يفكّر في ذلك. كلّ همّه الآن أن يخبرها بالأمر قبل طلوع شمس الغد.

ـ لكنّي لستُ في مكتبي الآن، وأحسّ بأنّي مرهَقة جدًا. ألا يمكن تأجيل الأمر إلى الغد؟

ـ أستميحك عذرًا يا سيّدتي، لولا أنّ الأمر في غاية الخطورة لَما أزعجتك في هذه السّاعة. يمكنني أن أخبرك عبر الهاتف.

ـ لا، يا جابر، إن كان الأمر خطيرًا فلا تتفوّه بكلمة عبر الهاتف. أين أنت الآن؟

ـ ما زلت في مكتبي.

ـ انتظر هناك، سأرسل إليك سائقًا.

ـ أمرك، يا سيّدتي.

خرجا من المدينة إلى الضواحي. لم يتفوّه السّائق بكلمة. قال له، فقط، إنّ الوزيرة تنتظره، والتزم الصّمت. دخلت السّيّارة سُور فيلا في أطراف الضواحي. نزل السّائق وفتح الباب لجابر، وأخبر الحرّاس أمام البوّابة بهويّة الزائر، فأدخلوه ورحّبوا به: «أهلًا بك، يا سيّدي، تفضّل». يشعر جابر بالسُّلطة تدخل تحت مسامه وتغيّر شكله إلى الأبد.

فتحت الخادمة لهُ الباب:

ـ تفضّل يا سيّدي. سيّدتي ستأتي حالًا.

منظر الفيلا من الداخل يشبه قصور عصر النهضة. تُحَفٌ ونحاسيّات وزجاج ملوّن. البذخُ والجمال هنا أمرٌ لم يخبره جابر أبدًا. جلس على أريكة جلديّة ينتظر.

ترتدي الوزيرة سروالًا سكّريًا فضفاضًا وقميصًا أحمر بلون الدم. تتقدّم نحوه وتصافحهُ معاتبة: أربعة أشهر ولا اتّصال. ملمس يدها الرّطب الدافئ يُشعره بالارتباك، وكلامها يُغرقهُ في الخجل. يحس بالدم يصعد إلى قمّة رأسه، ثمّ يقول: لم أودّ إزعاجك، يا سيّدتي، وأنا أعلم بأنّ مشاغلك كثيرة.

ـ اجلس يا جابر.

كانت تجلس على كرسيّ ليس بعيدًا عنه، فسألته:

ـ أخبرني يا جابر، ما الخطب؟

ـ أبلغني أحدهم، في اللّجان، بأنّ اعتصامًا طلابيًا يُخطّط لهُ ظهر الغد، تتبعه مظاهرة احتجاجيّة ضدّ رفع رسوم الدّراسة داخل الحرم الجامعيّ، بعدها ستغادر المظاهرة إلى مركز المدينة.

«ماذا؟» تقول الوزيرة وقد تغيّر لون وجهها، ومال إلى الغضب.

الآنَ، سيرى وجه الوزيرة كما لم يرَه من قبل. تقف وتنظر إليه قائلة:

ـ من يتجرّأ على فعل ذلك؟

عيناها تلمعان غضبًا، وبدأت تذرع المكان جيئةً وإيابًا، ثمّ حملت سمّاعة الهاتف فجأة لتتّصل بأحدهم. قفز جابر من مكانه:

ـ أرجوك، يا سيّدتي، لا تتّصلي بأحد الآن.

فاجأتها جرأة جابر، فتركت السّماعة وراحت تنظر إليه.

ـ اعذريني إن تجاوزتُ حدودي، لكن دعينا نناقش الأمر بهدوء.

يحسّ جابر بنفسه أصبح ندًّا لها، وهي الأخرى تحسّ بحضوره القويّ في المكان. كان يقف أمامها ببدلة سوداء بعد أن تحسّنت أحوالهُ الماديّة، وبدأ يهتمّ بهندامه.

- كيف تمنعني من إجراء اتّصال؟ هل فقدتَ عقلك يا جابر؟

- أرجوك، يا سيّدتي، اسمعيني لحظة واحدة فقط، ثمّ افعلي ما بدا لكِ.

تنظرُ إليه، وهو ما زال واقفًا أمامها، تفصل بينهما مسافةٌ قصيرة جدًا، وهي جالسة على كرسي جلديّ أبيض اللّون.

- إن اتّصلتِ بأيّ مسؤول أمنيّ الآن، وزيرِ الدّاخليّة أو مدير الأمن أو حتّى رئيس المخابرات العامّة، فستخسرين نقطتين. أوّلًا ستعتمدين في حلّ مشكلة صغيرة على الآخرين، وهذا ليس الأفضل. ثمّ إن تدخّلت الشرطةُ أو المخابرات فستتضخّم المسألة وتأخذ طابعًا أكبر. ربّما يؤوّلها البعض سياسيًا، وهذا ما لا تريدينه. لا نريد أن يشار إلى الجامعات، وأنت على رأسها، بأنّها مصادر قلق للدولة.

لا تريد الوزيرة الاستماعَ إليه وسماعَ وجهة نظره، فتفقد بعضًا من سطوتها، لكنّها في الوقت نفسه تجد كلامه منطقيًا جدًا. فما الحلُّ، إذًا؟ ينظر إلى عينيها مباشرة، كما لم يفعل من قبل:

- حسنًا، لقد رتّبتُ كلّ شيء.

تنظر الوزيرة إليه وتتساءل: أهذا هو جابرُ الخجول، الذي كان يرتجف خوفًا في المديريّة قبل أربعة أشهر؟ أهذا هو جابر الخجول الذي وقف أمامها قبل عام مستعطفًا حين طردته اللّجنة من السّكن الجامعيّ.

تبتسم ابتسامة أنثى الآن؛ أنثى جاء فارس يُخلّصها من محنتها.

- رتّبتُ كلّ شيء، ولم يبقَ إلّا أمور ثلاثة لا يمكنني القيام بها وحدي.

- ماذا تقصد؟

- أنت، يا سيّدتي، من سيقوم بها. أنت من سيساعدني.

- ما هي؟

- سأوضّح مفرزة الأمن في الجامعة تحت تصرفي المطلق غدًا، وأنا من سيباشر التحقيق مع المخطّطين للاعتصام بنفسي. كما ستبقى كلّ مداخل الجامعة ومخارجها مغلقةً، عدا الباب الرّئيس لنضمن أنّ الجميع سيمرّون من هناك.

ـ وما الذي ستفعله؟

ـ حسنًا، استطعتُ معرفة الرؤوس المدبِّرة للعصيان. سيتمّ اعتقالهم تباعًا عند دخولهم الحرمَ الجامعيّ. سأحقّق معهم بنفسي لأعرف إن كان ما خطّطوا له عملًا طائشًا، أم مخطّطًا دبّر له أشخاص آخرون خارج ملاك الجامعة.

ـ وهل حصلتَ على صُوَرهم الشّخصيّة. لا يمكن أن تطلب البطاقات الشّخصيّة لمن قد يفوقون عشرة آلاف طالب.

ـ كلّ ملفّاتهم الشّخصيّة هنا.

ويشير جابر إلى ملفّ أزرق بيده مبتسمًا.

الوزيرة مذهولة. خطّط جابر لكلّ شيء. أيُّ شيطان هذا الذي يقف أمامها.

ـ سأحقّق معهم في مفرزة الأمن، ثمّ أخبرك بالنتائج، لتقرّري.

تقول الوزير ممازحة: ألن تقرّر بنفسك؟

ـ يا سيّدتي، سأرد لك فضلك مرّة أخرى غدًا. أنت تعلمين بأنّ مظاهرة كهذه يمكن أن تهزّ الحرم الجامعيّ. أريدك بعيدة عن هذا. أنا من سيوقف كلّ شيء قبل قيامه. فقط عند اتّخاذ القرار ستتدخلين.

هبطت الوزيرة بجسدها على الكرسي ومدّت ذراعيها فوق حافتيه. تبدو الآن كمَن يستعدّ ليعانق أحدهم. شربوا عصيرًا مثلّجًا أحضرتهُ الخادمة، واتّصلت برئيس اللّجنة الفرعيّة لأمن الطلّاب، تخبره بأنّ جابرًا سيتولّى مفرزة الأمن غدًا. يسألها الأخير: وهل بدر منّي أيُّ تقصير، يا سيّدتي؟

كانت ستجيبه: نعم، أيُّها المغفّل، هذا جابر يكتشف أمرًا خطيرًا من صُلب اختصاصك. وعندما لم ترد على سؤاله، قال مباشرة: أمرك سيّدتي. كما اتّصلت بالرّئيس الأعلى للجامعة وأخبرته بضرورة إبقاء الأبواب الثانويّة مغلقة، فلم يناقشها الأخير في قرارها.

ـ أُخبركِ تباعًا غدًا بكلّ شيء.

ـ شكرًا لك يا جابر.

ـ سأترككِ الآن. عذرًا لإزعاجك سيّدتي.

ـ شكرًا لك يا جابر.

وقف يغادر المنزل فاقتربت منه تصافحه. مسَّ كتفَهُ، وهو يعبر الباب، صدرَها مسًا خفيفًا، فأحسَّ بتيَّار كهربائيّ يخترق جسده. نظر إلى الأرض الرُّخاميَّة خَجِلًا. وضعت يدها على كتفه وقالت: شكرًا لك يا جابر. ابقَ مخلصًا لي وأخبرني بكلّ شيء.

ـ سأفعل ذلك دائمًا، يا سيِّدتي.

ينتابه إحساس سريع مفاجئ، يمرّ كشُهب سريع في كبد سماء. حين تضع راحتها على كتفه، يحسّ بها ثقيلة.

ألقي القبض على ثمانية طلّاب في صباح اليوم التّالي. لم يستغرق التّحقيق معهم وقتًا طويلًا حتّى اعترفوا. كانوا يخطّطون للخروج بالمظاهرة خارج الحرم بين الواحدة والثانية، بحيث يكون الشّارع مزدحمًا بالطلبة والعاملين العائدين إلى منازلهم.

كان أحد الطلّاب صديقًا لجابر، وتأخّر تخرُّجه عامًا. عرفهُ على الفور، وهو عرف الطّالب، الذي قال: «أهذا أنت يا جابر»، وفتح يديه ليعانقهُ، فيأتي حارسا أمن ويوقفانه. يقول جابر: اسمع، لن أرحمك حتّى وإن كنت أخي.

حاول الطّالب الموارِبة حين سأله جابر عن أسماء زملائه الذين سيشتركون في المظاهرة، فصفعهُ الأخير. ينظرُ الرجل إليه غيرَ مصدّق ما يجري، فاقترب منه ليتأكّد من هويّته، وقد بات غيرَ مصدّق أنّ عديمَ الرحمة هذا هو جابر الفقير. فعاجله الأخير بركلة من حذائه قلبتهُ أرضًا، وصاح به: لا تقتربْ منّي مرّة أخرى، وأخرجَ سلاحًا صوّبه نحوه قائلًا: في المحاولة الثانية للاقتراب منّي، سأقتلك.

«هنا، تصل إلى السُلطة فتغدو وحشًا، ستقتصّ من الجميع: مَن ظلموك ومَن لم يظلموك. الظلم، يا هذا، هَرَمٌ منظّم. ينتقل من الرأس إلى القاعدة. نظام ينتقل من جيل إلى جيل. هكذا فقط، تحيا كلّ الديكتاتوريّات وتستمرّ»، يقول الرجل الكبير.

كان جابر قاسيًا مع كلّ الطلبة الموقوفين. ضربهم جميعًا وأهانهم. بدأ يتحوّل إلى وحش حقيقيّ. كانت نظراته تُخيفهم فيعترفون. جاء اسم أستاذ جامعيّ مع من خطّطوا، يعرفه جابر، والجامعة كلُّها تشهد بنزاهته. لم يشفع هذا كلُّه لهُ. استدعوه إلى التّحقيق، فاعترف، وكان اسمه بين الأسماء العشرين الذين قدّمهم جابر في تقرير إلى الوزيرة.

عند الثالثة ظهرًا، اتّصل بالوزيرة في مكتبها:

ـ صباح الخير، يا سيّدتي.

ـ صباح الخير، يا جابر، ما الأخبار؟

ـ لقد انتهى كلّ شيء قبل أن يولد. لديّ عشرون اسمًا لمتورطين في التّخطيط للعصيان.

ـ وكيف هي الحال في الجامعة؟

ـ الجامعة الآن ساكنة سكونَ المقابر.

تبتسم الوزيرة: أحسنت يا جابر. سنحتفل اليوم. عندما أراك ستسلمني التقرير.

حسنًا، هل أمر بك الآن في الوزارة لأسلّمك إيّاه؟

ـ لا، ليس في الوزارة. عند الثامنة، سأرسل إليك سائقًا يأتي بك إلى منزلي.

أمضى السّاعات التّالية في مكتبه يفكّر في الوزيرة. قالت: سنحتفل بهذه المناسبة. ماذا قصدت؟ وهل سيكونان وحيدين في الاحتفال؟ كلّما مرّ قوامها في خياله وهي جالسة خلف مكتبها، أحسّ بأنّه ما زال صغيرًا أمامها. وأجبر نفسه على التفكير فيها على أنّها رئيسته في العمل فحسب. لم ينجح دائمًا، بل كان يفصل أحيانًا الأنثى عن سلطتها. يتخيّلها مجرّد موظّفة في مكان ما. الغريب أنّه حين يُسقط عنها سلطتَها، يغدو إحساسه بها باردًا.

خرج يمشي قليلًا في حدائق الجامعة. وصل إلى منطقة السّكن الجامعيّ؛ ذاك البناء الذي عاش فيه سنوات أربعًا. كان بعض الشباب والفتيات يمرّون أمامه؛ عشّاق صغار يسرقون من الزّمن لحظة شاردة من أجل قبلة سريعة. يذكر جابر الآن تلك الفتاة في الجامعة التي أحبّها بصمت لسنتين، وحين قرّر أن يصارحها بحبه اختفت. قال له بعض زملائه فيما بعد إنّها تزوجت، وسافرت إلى بلد بعيد.

عاد إلى مكتبه. راجع التقرير للمرّة الأخيرة، وخرج ينتظر السّائق.

الوزيرة هي مَن استقبلته عند الباب هذه المرّة. كانت ترتدي ثوبًا أسودَ يكشف قليلًا عن ركبتيها، وكامل كتفيها. تصافحهُ محتفظة بيده في يدها مدّةً أطول:

ـ تعالَ يا جابر. لقد كنتَ اليوم بطلًا حقيقيًا.

يُربكه ملمس يدها. يربكه جمالها الذي صبغ المكان عطرًا. تجلس هي على كرسيّها الجلديّ ويجلس قبالتها:

ـ أخبرني، كيف قمت بذلك وحدك ووصلت إلى عشرين ممّن خططوا؟

المنطقة المحيطة بالصدر كانت من النوع الشفَّاف. كلَّما هرب بنظره إلى مكان آخر يعود وينظر إلى صدرها. يفكّر في أنَّها ربَّما تنتبه لنظراتهِ فيذوب خجلًا، أو ربَّما تقصَّدت أن تُظهر نصف صدرها شبهَ عار لينظر. لا، هذا تفكير أحمق. ماذا لو أنَّ المرأة تتصرَّف بطبيعيَّة تمامًا، ثمَّ ترى نظرات جابر الذئبيَّة تنهش لحمها الأبيض، ستقول عنه إنَّه خائن للنعمة. يتمنَّى أن تنتهي السَّهرة الآن ويعود لينام في شقَّته الصَّغيرة.

قامت ليجلسا إلى طاولة في المساحة المفتوحة بين المطبخ الرَّخاميّ وغرفة الأرائك الجلديَّة:

ـ لا خدم اليوم، كلُّهم ذهبوا. أنا من سيحمل أطباق العشاء.

ـ يمكنني مساعدتك، يا سيِّدتي.

ـ لا، أنت ستبقى جالسًا في مكانك. الاحتفال اليوم على شرف انتصارك.

ـ بل سأساعدك.

ينقل الأطباق والكؤوس إلى الطاولة. كان أحيانًا يحتك بها فينتفض. أحسّ بأنَّها تتصرَّف بطبيعيَّة مطلقة حين تحتك به. إنَّها السُّلطة، يفكّر، تمنح الثِّقة بالنَّفس، حتَّى في هذه الأمور.

سكبت كأسين من النبيذ وملأت له صحنه، ثمَّ كرَّرت الأمر لنفسها:

ـ بصحة نجاحك اليوم يا صديقي.

تلك المرَّة الأولى التي تسمِّيه فيها صديقي.

بعد أن شربت كأسين بَدَتْ في روح مرحة. كانت تضحك وتمزح. هذا التغيير منح جابرًا بعض الرَّاحة، فبات هو الآخر أقلَّ تحفُّظًا. أخبرها كيف صفع واحدًا من زملائه ليعترف، فضحكت بصوت عالٍ. تنحني على الطاولة ضاحكة فيلمع صدرها الأبيض كلؤلؤتين عملاقتين.

انتهى العشاء، وبدآ يعيدان الأطباق إلى المطبخ. بقيت أطباق قليلة حملها جابر وعاد. كانت المرأة في هذه اللَّحظة تحمل الفوطة التي مسحت بها الطاولة. لم تنتبه لجابر يمرّ من أمامها فاصطدمت به، وهو، في ردّ فعل لاإراديّ، أمسكها من خصرها حتى لا تسقط أرضًا. كان ما زال يمسك بخصرها حين قال:

ـ عذرًا، يا سيِّدتي، هل أنت بخير. أمسكت بك كي لا تقعي أرضًا.

تنظر في عينيه وقد انتفت المسافة بين جسديهما. جابر حائر لا يدري ماذا يفعل، ويتمنّى أن تنتهي اللّحظة سريعًا. ترك يديه تسقطان والمرأة ما زالت ملتصقة به، وتنظرُ إلى شفتيه. فجأة، أحاطت بيديها حول رقبته. ملمس صدرها الدّافئ يغطّي مساحة كبيرة من جسده. بقي ساكنًا للحظات لا يدري ما يفعل. لم يدرِ كيف أحاط بخصرها فجأة، وجذبها إليه. ينظرُ إلى شفتيها، ثمّ يقبّلها قبلة طويلة. وكشجرتين اقتلعتهما العاصفة غرقا متعانقين على الأرض الرّخاميّة.

حين استيقظ فجرًا، كانت الوزيرة تتمدّد عارية قربه على السّرير الواسع. ينظرُ حوله. يتفحّص أثاث الغرفة الذي لم يرَه حين دخلها. يذكر تفاصيل اللّيلة مع المرأة، فيحسّ بشيء غريب. ثقل ما على صدره. شيء غريب هذا الإحساس الآن. كان مجرّد التفكير في أن يحتضنها كافيًا ليشعل نارًا في جسده وروحه. والآن، ها هي عارية تمامًا أمامه، ولا يشعر بشيء.

يتمنّى جابر أن يغادر المكان بسرعة؛ أن يفتح النافذة ويقفز إلى الحديقة، ثمّ يطلق ساقيه للريح، فلا يتوقّف إلّا أمام منزل والديه في البلدة.

سأقوم بتجربة. مدّ يده يمسح بطنها النّحاسيّ وصولًا إلى صدرها، تتحرّك الوزيرة قليلًا في اتّجاهه، وتغمغم بشيء وهي نائمة. نصفها العلويّ الآن يغطّي صدره وكتفيه. وضعت رأسها على صدره، ونامت من جديد.

بدأ جابر يكره المكان. يكره وجوده هنا، وعدم استطاعته المغادرة. لو أنّها امرأة عاديّة، زميلته في العمل أو الدّراسة، لأيقظها:

ـ عليّ المغادرة الآن.

ـ ألن تبقى قليلًا.

ـ لا أستطيع، يجب أن أغادر.

لكنّه مع الوزيرة لا يجرؤ حتّى على إبعاد جسدها البضّ عنه قليلًا ليُشعل سيجارة. سطوتها وسلطتها ماثلتان هنا، حتّى وهي نائمة.

أمضى ساعات ثلاثًا مستيقظًا يراقب نومها. ما أجمل المرأة فيها. جسد باذخ لا عيب فيه. منحوتة رخاميّة من عصور قديمة. يتبعثر شعرها الأسود، يغطّي جزءًا من صدرها، ويترك الآخر مكشوفًا. جسد

أمومي خصب أمام عينيه، لطالما حلم به. والآن يشعر بيديه، وبكامل جسده كأنَّه قطعة من جليد.

أزاح الشعر عن صدرها ففتحت عينيها:

ـ هل استيقظتَ منذ زمن طويل؟

«عشر دقائق ربَّما»، يكذب جابر. مررت أصابعها على شفتيه والتصقت به. استدار نحوها وقبَلها قبلة طويلة، وغرقا من جديد.

كانت السَّاعة الثامنة حين نهضت من السَّرير. خجلت من عريها فجأة، فالتفَّت بملاءة السَّرير وغادرت الغرفة. دخلت الحمَّام فخرج هو الآخر ينتظرها في غرفة الأرائك.

حين خرجت من الحمَّام، عادت كما كانت في عينيه: المرأةَ السَّاحرة.

ـ عليَّ الذهاب، يا سيِّدتي، إلى الجامعة الآن.

ـ حسنًا، وأنا سأحضِّر نفسي للالتحاق بعملي.

اقتربت منه وعانقته.

انتشر خبر توقيفه المشاركين في المظاهرة كما تنتشر النار في الهشيم. الجميع يحاولون التودُّد إليه والحديث معه. أصبح ذكر اسمه في الجامعة كافيًا لبث الرُّعب في النُّفوس. وبدأت تظهر قصص عن وحشيَّته في التعامل مع الموقوفين، بعضها صحيح والبعض الآخر مبالغات لا صحَّة لها.

لم تتأخَّر الوزيرة كثيرًا في قرارها. اتَّصلت عند الثانية ظهرًا بالرَّئيس الأعلى للجامعة وأملَته عليه، فأصدر أمرًا بفصل كلّ المتورّطين من الجامعة فصلًا نهائيًا، وإنهاء خدمة الأستاذ الجامعيّ. لم يعلّق أحد على القرار، ولم يتجرَّأ أيٌّ كان على وصفة بالتعسُّفيّ والظالم. الطلَّاب، في أحاديثهم، كانوا يضعون اللَّوم كاملًا على الطلبة المتمرّدين. الخوف والقهر جعلا كلًّا منهم يشكّ في أقرب الناس إليه، بعد أن تأكَّدوا من أنَّ في الأمر وشايةً. أحدهم أبلغ جابرًا بأسماء المخطّطين للاعتصام في اليوم السّابق، فاعتقلهم.

مر اليوم ثقيلًا. لم تتَّصل به الوزيرة. فكّر في أن يتَّصل بها، لكن ماذا سيقول لها. لا يمكنه أن يتَّصل بها ليخبرها بأنَّه سيمرّ بها اللَّيلة. قد تكون مشغولة، أو تعتبر تصرُّفه وقاحة وتطاولًا على سلطتها.

ذهب في اليوم التَّالي متأخّرًا إلى مكتبه في الجامعة، بعد ليلة طويلة كان يقاوم فيها الرغبة في الاتِّصال بالمرأة. قرأ البريد الوارد إليه. لا شيء مهمًّا. مشكلة بين طالبة وأستاذ. وشيء عن كافتيريا الجامعة. أغلق البريد، وبدأ يفكّر: ما السّبب الذي منعها من الاتِّصال به مساء الأمس.

عند الحادية عشرة صباحًا، اتَّصل الرئيس الأعلى للجامعة بجابر في مكتبه.

ـ صباح الخير يا جابر.

ـ صباح الخير، يا سيّدي الرَّئيس.

ـ أريد رؤيتك لأمر ضروريّ، تعالَ إلى مكتبي إن لم تكن مشغولًا.

ـ لست مشغولًا أبدًا، سآتي في الحال.

يبالغ الرَّئيس الأعلى للجامعة في استقبال جابر. كان ينتظره عند

باب مكتبه:

- أهلًا جابر، تفضَّل.

يستغرب جابر الحفاوة والمبالغة هاتين.

- سمعتُ بما قمت به البارحة، نحن فخورون بك يا صديقي.

- شكرًا لك، يا سيّدي.

- اسمح لي بأن أهنّئك بمنصبك الجديد، أنت تستحقُّهُ.

يقول جابر: أيّ منصب هذا؟

يفكّر الرّئيس الأعلى للجامعة: تتصنّع الجهل بقرار الوزيرة، أيّ شيطان جاءنا بك:

- أليس لديك علم.

- لا علم لي بشيء.

- لقد عيّنتك الوزيرة نائبًا لي ورئيسًا للجنة المشتريات في الجامعة.

لم تخبره الوزيرة بهذا القرار، ربّما أرادته مفاجأةً له.

- مبروك، يا صديقي، أنت تستحقّ. مكتبك الجديد سيكون قرب مكتبي. وهكذا، سأراك كلّ صباح.

- شكرًا لك، يا سيّدي.

- أرجوك كفَّ عن مناداتي بسيّدي، فقط صديقي.

- حسنًا.

رئيس لجنة المشتريات منصب كبير، ثمّ عيّنته نائبًا للرّئيس الأعلى للجامعة. يفكّر جابر في أنّ عليه أن يتّصل بالوزيرة، وقد وجد العذر، فسيشكرها.

في مكتبه الجديد، لم يضيّع الوقت. بدأ يدرس كلّ ملفّات الشّراء لأعوام خلت. كلّما قرأ فيها أكثر اكتشف حجم الرّشى والفساد في الجامعة. فيما بعد، سيحاسب المرتشين. الآن، عليه أن يفهم اللّعبة جيّدًا بنفسه. لن يسأل أحدًا المشورة، وأمامه هذا الكمّ الهائل من الوثائق.

اتّصل بالوزيرة ليشكرها:

ـ مساء الخير، يا سيّدتي.

ـ مساء الخير، يا جابر.

ـ شكرًا لك، يا سيّدتي.

ـ هل علمت بنبأ ترفيعك؟

ـ نعم، لكنّك لم تلمّحي إلى الأمر حين رأيتك آخر مرّة.

ـ أردته مفاجأةً لك.

ـ أتمنّى أن أكون عند حسن ظنّك.

ـ ستكون. كُنْ كما عرفتك مجتهدًا، سأتركك الآن يا جابر، لديّ ما أقوم به.

ـ شكرًا، سيّدتي.

ـ مع السّلامة.

لا يصدّق جابرُ ما يجري. لم تحاول الوزيرة حتّى التلميح إليه برغبتها في رؤيته. حسنًا، أنا الآخر لا أريد رؤيتها. لكن، ما معنى هذا؟ كيف لم تدعوني إلى لقائها. ذلك أفضل. السّاعات الثلاث التي أمضيتها مستيقظًا في سريرها، وكنتُ أرغب خلالها في الهرب إلى أيّ مكان. لا أريد رؤيتها، نعم، لا أريد. ربّما تنتظرني أنا لأطلب لقاءها، ففي النهاية هي المرأة وأنا من يجب عليه المبادرة. لا، هذا ليس صحيحًا. هي المرأة نعم، لكنّها السّلطة متجسّدةً، لن تشعر بالخجل أو باحتمال الرّفض إن هي رغبت في رؤيتي.

الصراع في أعماق جابر لا ينتهي. لا يريد رؤيتها بعد الغربة التي أحسّ بها في ليلتهما الوحيدة، ويتمنّى أن يراها من جديد. لا يمكنه الان فعل شيء، وقد ضيّع فرصة ذهبيّة حين اتّصل بها وبقي كالأبله صامتًا.

رنّ جرس الهاتف. لا شكّ في أنّه أحدهم، يحاول التودّد إليه. رفع السمّاعة وقال:

ـ نعم، من هناك؟

كان صوته يشي بضيق شديد، ترتجف الحروف حين تتّحد لتشكّل الكلمات.

ـ هذا أنا يا جابر.

يا ربّ السّماء، إنّها الوزيرة. لا يدري ماذا يفعل الآن. وقف حين سمع صوتها.

ـ نعم، يا سيّدتي.

ـ نسيت أن أخبرك بأنّ التّقرير الذي قدّمتهُ إليّ كان عظيمًا، عرضتُهُ على رئيس الوزراء ليقرأهُ، وهو بدوره سبحوّله إلى إدارة المخابرات العامّة للتحقُّق من انتماءات المتورّطين. رئيس الوزراء يُثني عليك.

يريد أن يقول لها: فلتذهب الوزارات إلى الجحيم، هي والتقارير والوظائف والأعمال. يريد أن يراها اللّيلة ولترسله السّماء بعدها إلى العذاب الأبديّ.

ـ شكرًا لك، يا سيّدتي، على هذه الثّقة التي منحتني إيّاها.

ـ أنت تستحقّ، يا جابر.

ـ شكرًا لك، يا سيّدتي.

ـ حسنًا، عليّ الذهاب الآن. افتح عينيك جيّدًا لتنقل إليّ كلّ شيء.

قل لها إنّك تودّ رؤيتها اللّيلة. افتح فاك وتكلّم. لا تبقَ جبانًا في وجهها؛ جبانًا في وجه السّلطة. حين فتح فمه ليقول لها شيئًا تابعت حديثها:

ـ آه، بالمناسبة، هل أنت مشغول اللّيلة؟

لا، ليس مشغولًا، جابر ليس مشغولًا يا امرأة. وحتّى إن كانت نهاية الكون هناك فسيأتي. سيأتي ويحمل الطعم المرّ عينه كما المرّةُ السّابقة.

ـ لا، يا سيّدتي، لست مشغولًا أبدًا.

ـ تعالَ إلى منزلي.

ـ حسنًا، سأكون هناك عند التّاسعة.

ـ حسنًا، سأنتظرك.

حين عانقها أحسّ بأنّ شيئًا من روحه عاد إليه. دفن رأسهُ في صدرها لثوانٍ وهمس إليها: اشتقت إليك.

احمرَّت وجنتاها قليلًا، ولم تَحَز جوابًا.

بقي مستيقظًا اللَّيلَ كلَّه، لم يغمض لهُ جفن. ماذا لو أيقظها الآن وأخبرها بأنَّه ذاهب.

يتخيَّل ماذا سيقول لها، وبمَ ستجيبه:

ـ ولمَ ذهابُك يا جابر؟

ـ اعذريني، لكنِّي أحسّ بغربة في المكان.

ـ كفاك تزهات الآن، واتركني أنَم.

أو ربَّما ذهب من دون إخبارها. سيتَّصل بها في الصَّباح معتذرًا. يا اللَّـه، أيّ ضياع يجتاح روحه الآن. عليه فقط أن يحتضن المرأة التي منحته كلّ شيء، وينام. ينظرُ إليها في ظلّ الضوء الصَّغير الأحمر القادم من زاوية الغرفة. تنام المرأة واضعة يدها على صدره. أيّ شخص سيرى المنظر من زاوية الغرفة سيقول إنَّها تحبّه وهما في انسجام مُطلق، بل ربَّما سيذهب أبعد من هذا ويحسدهما على هذه الطمأنينة التي تتسرَّب من اتِّحاد جسديهما في هذا اللَّيل الهادئ. لن يشك للحظة في الهوَّة العميقة التي تفصل بينهما.

يقترب منها، ويطبع قبلة صغيرة على كتفها لعلَّها تستيقظ وتخلِّصهُ من أرقه وأفكاره. تبقى المرأة نائمة. يُقال إنَّ الذين ينامون اللَّيل من دون انقطاعات هم أشخاص محظوظون، أو ربَّما أشخاص تعبوا نهارهم كلَّهُ، وبذلوا مجهودًا عضليًا كبيرًا، ولم يفكّروا كثيرًا، فناموا كأطفال صغار في غرفة دافئة. في الحالتين، هم محظوظون.

لا تستيقظ المرأة. ما زال جابر يصارع أفكاره. ما الذي يمنعني من النوم؟ ما الذي يمنعني من الاستمتاع بلحظة يحسدني عليها الكثيرون؟ فيما بعد، سوف يدرك أنَّ الجواب عن سؤاله بسيط للغاية: إنَّها السُلطة التي تمتلكها الوزيرة فتجعل حياته في حالة حَرِجه غير مستقرَّة أبدًا، كاستقرار بندول في وضع الشاقول المرفوع إلى الأعلى. إنَّه ثابت. هذا صحيح، لكن دفعة متناهية في الصِّغر ستعيده إلى وضع الاهتزاز. يمكن للوزيرة أن تسحقهُ في أيّ لحظة. صحيح أنَّ احتمال قيامها بشيء كهذا هو احتمال صغير، لكنَّه احتمال قائم. يكفيها في صباح الغد أن توقِّع قرار فصله من عمله، لتعيدهُ بعدها إلى حياته القديمة، وتقذفهُ خارج عالمها. ما هو الحلّ يا جابر؟ كيف تحصل على توازن يجعلك ترى الحياة كما تراها هي. إنَّها السُلطة. إن لم تحصل على

السُلطة يا جابر، فإنَّك ستبقى هكذا: تشعر بالعجز في حضور المرأة التي تعتقد أنَّك تحبّها.

بدأ جابر يمسك الجامعة بقبضة من حديد. جعله منصبه الجديد الرّئيسَ المُطلق لها. كان الرّئيس الأعلى وكلُّ رؤساء اللّجان لا يجرؤون على مناقشة قراراته، لخوفهم من سلطة الوزيرة، وقد بدأ الهمس عن علاقة حميمية تجمع بينهما، يتردّد في أروقة الجامعة.

بعد عدّة مناقصات لترميم أبنية في الجامعة وإعادة تأهيل كلّ من الحديقة الخلفيّة وخطوط الكهرباء، كسب جابر أموالًا طائلة من المقاولين. قام بذلك في منتهى الحذر، فلم يترك خلفهُ أيّ دليل على الرّشوة. ولم يشك أحد في نزاهته. والذين شكّوا لم يجرؤوا على رفع أصواتهم.

زرع عيونًا لهُ في كلّ مكان في الجامعة. بعضهم استمالهُ بالمال والبعض الآخر جاء من تلقاء نفسه، فقط ليلتصق بالقويّ. وكان يُحاط علمًا بكلّ شيء مهمّ تتردّد أصداؤه في الجامعة.

اشترى منزلًا متوسّط الحجم في الضواحي، وزار أهله للمرّة الأولى بعد مضيّ أكثر من عام على سفره. أراد أن يشتري بيتًا لأبويه، لكنّهما رفضا وفضّلا البقاء في بيتهم القديم. «لا أريد الخروج من هنا، يا ولدي. عشنا هنا عمرَنا كلّه، لن أخرج إلّا إلى قبري»، قالت الأمّ. حينها اشترى لهما البيت من مؤجرهما، واشترى لوالده دكّانًا صغيرًا. ولم تطل إقامته بالبلدة أكثر من بضعة أيّام.

بدأ يقيم علاقات برجالات الدولة، بحكم مشاريع الجامعة التي كان مسؤولًا عنها، وبينهم وزراء وضبّاط كبار في الجيش والأمن.

أخبرته الوزيرة، في آخر مرّة التقاها، أنّ اثنين من المخططين للاعتصام قد ثبت انتماؤهما إلى حزب محظور، وتمّ توقيفهما، وهذا الأمر سيفتح الباب أمام المحقّقين لكشف الكثير من الأسماء الأخرى. كانت الوزيرة فخورة به، وهي عزّابته، وكان مدير المخابرات العامّة ورئيس الوزراء مسرورين جدًّا منه. وكان جابر سعيدًا بسماع هذه الأخبار.

بدأت علاقته بالوزيرة تأخذ طابعًا روتينيًا، يزورها في منزلها كلّ عدة أيّام، ويغادره بعد الفجر بقليل.

في أثناء مراجعته ملفّات الشراء، وقع بين يديه ملفّ عن صيانة

وحدات التدفئة في مبنى السَّكن الجامعيّ. يذكر كيف طرده رئيس اللَّجنة الفرعيَّة للسَكن فيما مضى، ويذكر كيف كان يعامله في جلسة الطَّرد تلك كأنَّه حشرة. بدأ يتصفَّح الملفَ. شيء في أعماقه يدفعه إلى دراسته كاملًا.

يا آلهة السَّماء، لقد وقعتُ في يدي يا ابن الأفعى. إنَّ الفارق بين الميزانية المخصَّصة للمشروع والمصاريف كبيرٌ جدًا، كبير حتَّى إنَّه لا يمكن تجاوزه من دون السُؤال: أين ذهبت كلّ تلك الأموال.

اتَّصل برئيس اللَّجنة الفرعيَّة للسَّكن الجامعيّ:

ـ ثمَة أمر أريد سؤالك عنه بشأن السَّكن الجامعيّ؛ أمر يتعلَّق بالميزانيَّة. مُرَّ بمكتبي غدًا عند الواحدة ظهرًا.

ـ ولمَ الغدُ؟ يمكنني الحضور الآن. لم تتجاوز السَّاعة الثانية ظهرًا.

ـ الآن، أنا مشغول، غدًا عند الواحدة.

وأغلق السَّماعة. يفكّر جابر: فليُمضِ اللَّيلَ كلَّه مفكّرًا في سبب استدعائي له.

عند الثانية عشرة والنّصف من ظهر اليوم التَّالي، قال جابر لسكرتيره: أنا ذاهب إلى الوزارة في عمل مهمّ، إن سأل عنّي أحدهم، فسأعود عند الثالثة. لم يذكر اسم رئيس اللَّجنة الفرعيَّة للسَّكن الجامعيّ بحرف، وقد بقي ينتظره حتَّى الخامسة. لن يعود جابر حتَّى صباح اليوم التَّالي. فليُمضِ ذاك الرجلُ الذي طردني، ليلة أخرى مفكّرًا ومتوجّسًا، يقول جابر مبتسمًا.

في صباح اليوم التَّالي، حين وصل جابر إلى مكتبه، كان رئيس اللَّجنة الفرعيَّة للسَّكن الجامعيّ واقفًا ينتظرهُ:

ـ انتظرتك بالأمس وفقًا لموعدنا.

ـ عذرًا، يا زميل، فقد طرأت أمور مستعجلة في الوزارة.

ـ ولِمَ استدعاؤك لي.

كانت عينا الرجل اللَّتان شابَ بياضَهما الكثيرُ من الاحمرار، تشيان بحاله. لم يَنَمْ ربَّما لليلتين متتاليتين.

ـ لا شيء يستحقّ، يا رجل، فقط بعض الاستيضاحات.

حين دخلا المكتب، أخرج جابر الملفَ وقذفه على الطاولة أمام رئيس اللَّجنة. ينظر إلى عينيه مباشرة نظرةَ وحش أمسك بفريسته:

ـ ما هذا، يا زميل؟ أين ذهبت كلّ هذه الميزانيّة.

حين رأى رئيس اللَّجنة الملفَ تغيَّر لونه:

ـ لقد صرفنا بقية الميزانيّة في ترميم أشياء أخرى.

ابتسم جابر: حسنًا، هذا ممتاز، أين الفواتير؟

ـ لا أعتقد أنَّنا احتفظنا بها. إنَّه مشروع قديم.

ـ حسنًا، ستقول هذا أمام لجنة التَّحقيق في الوزارة، وهي من يقرّر، إمَّا ستفصلك من الخدمة، وإمَّا ستدفع بك إلى المحاكم الجزائيّة.

شحب لون الرجل ثمَّ وقف: أرجوك، يا جابر، أتوسَّل إليك، سأعطيك قسمًا من المال، لكن تخلّص من الملفَ.

ـ تحاول رشوتي أيُّها الحقير، انتهت المقابلة، الملفَ الأصليّ على مكتب الوزيرة الآن، وغدًا يتوجَّب عليك الذهاب إلى الوزارة للمثول أمام لجنة التحقيق.

ينظرُ جابر إلى عينيّ الرجل ويبتسم:

ـ اعذرني، يا هذا، أطبّق القانون؛ القانون عينه الذي طُبّق عليّ قبل فترة قصيرة.

بات الجميع يخشاه في الجامعة. اكتشف أكثر من قضية فساد، وحوّل أصحابها إلى لجان التَّحقيق المختصّة.

لم يمضِ على دخوله الجامعة سنتان حتَّى عُيّن رئيسًا أعلى لها. امتدَّت سلطتُهُ في أحيان كثيرة إلى الوزارة وإداراتها المختلفة. وقد توسَّعت شبكة معارفه كثيرًا، وبدأ اسمُهُ يتردَّد في اجتماعات مسؤولي الصفّ الأوَّل.

بعد تعيينه رئيسًا أعلى للجامعة، اتَّصل بالوزيرة ليشكرها:

ـ اشتقتُ إليكِ.

ـ حسنًا، تعالَ هذا المساء لنحتفل. أنت تشغل منصبي القديم الآن.

ما زال يفكّر في أن يقطع علاقتهُ بها. أحسّ بذاك فجأة وهو

يتجوَّل في حدائق الجامعة ليلًا. اللَّيالي التي يمضيها مؤرَقًا في سريرها كانت تطول حتَّى الفجر. لم يعد يحسّ بذاك الشغف حين يراها. لا يدري هو إن كان أحبَّها أم لم يحبَّها. إن كان أحبَّها وأفسدت سلطتُها ـ الماثلةُ بينهما حتَّى في السَّرير ـ ذاكَ الحبّ. يريد أن يخبرها بنهاية العلاقة، لكنَّه يخشى غضبها أو صدمتها التي ستؤدي إلى غضبها. كلّ النتائج ستؤدي إلى غضبها، وهو الشيء الذي لا يقوى جابر عليه. ما زال في غضبها دمارُه.

ممدَّدٌ في السَّرير وعيناه تتفحَّصان المكان. لو أنَّه يستطيع أن يطفئ ذاك الضوء الأحمر القادم من زاوية الغرفة لأحسّ بالرَّاحة. يعزيه الضوء أمامها حين يكشف جسدها العاري الوقح أمامه. تتمدَّد غير مكترثة لشيء، وهو صاحٍ يحاول أن يقتل الوقت. تتمدَّد ويطغى غريها على تفاصيل المكان. تلتفُّ حيثما شاءت وكيفما شاءت. كلّ الأشياء هنا تابعة لها، تشكّلها بحسب رغبتها، حتَّى وهي نائمة: الوسادة والملاءة والسَّرير، بل حتَّى جسده المُلقى هناك على طرف السَّرير. يمكنها أن تقذف الملاءة وأن ترتمي فوق جسده من دون استئذان لتنام ساعات، وهو غير قادر على الحراك. يمكنها أن تسحقه بجرَّة قلم.

لو أنَّها هي من يقطع العلاقة بهِ، فسيكون ذلك حلًّا ممتازًا لن يجلب غضبَها وسيُبقي على امتيازاته. لو أنَّه يصعد سلّم السُّلطة ليوازيها أو يتفوَّق عليها لقَطعَ علاقته بها من دون تردُّد. يا آلهة السَّماء، لو أنَّها تقول له ذات ليلة: اسمع، يا جابر، لم أعد أحسّ بشيء تجاهك. سنفترق. عندها سيتصنَّع الحزن قليلًا، وينتهي كلّ شيء.

أخبرتهُ في الصَّباح باحتفال تقيمهُ الوزارة في الأسبوع القادم مع وزارة الثقافة في دولة صديقة، سيحضره رئيس الوزراء وأغلب الوزراء.

ـ عادةً، لا يُدعى الرَّئيس الأعلى للجامعة، لكنّي سأتجاوز البروتوكول، وأوجّه إليك دعوة رسميَّة.

تتعلَّق بعنقه كطفل صغير وتُغرق وجنتيه وفاه بالقبلات. تهمس في أذنهِ وهو يجتاز عتبة الباب: لا تتأخَّر كثيرًا في المجيء. الحياة لا لون لها وأنت غائب عنّي.

تتقرَّب المرأة منه أكثر وتتعلَّق به في الوقت الذي يخطّط فيه لهجرها. يبتسم جابر: يا للسخرية، تأتي الأشياء التي ننتظرها أعمارًا،

فقط حين تفقد قيمتها.

نقل إليه أحد رجاله في الجامعة عن تجاوزات رئيس اللَّجنة الفرعيَّة لشؤون الطلَّاب؛ ذاك الذي كان رئيسَهُ المباشر حين عيَّنتهُ الوزيرة في الجامعة بداية. ما زال جابر يذكر سوء معاملة ذلك الرجل في إبان تعيينه. لم ينسَ، لكنَّه كان ينتظر اللَّحظة المناسبة.

سأل سكرتيره أن يحضِّر له تقريرًا عن آخر محاولة غشّ في امتحانات الجامعة. قرأ اسم الطَّالب، ثمَّ طلب من السكرتير رقم هاتفه. اتَّصل جابر به:

ـ معك الرَّئيس الأعلى للجامعة. اسمعني جيّدًا، اليوم عند الثامنة مساءً ستحضر إلى مكتبي. لا تَخَفْ، فإنِّي أودّ مساعدتك. قلت لك لا تخشَ شيئًا. لن تُطرَد من الجامعة إن أنت تعاونت معنا. انتهت المكالمة، عند الثامنة في مكتبي.

عند السَّابعة مساءً، كان جابر يقوم بجولته المسائيَّة. الجامعة شبهُ خالية. دخل الحدائق من الجهة الجنوبيَّة؛ تلك القريبة من السَّكن الجامعيّ. يمرّ به بعض الطلبة. يجهلون، بلا شكّ، هويَّته، يتفرَّسون في وجهه بفضول، ثمَّ يتابعون طريقهم. ينظرُ إلى الطَّابق السَّابع حيث كانت غرفته، وينتابه إحساس غريب، مزيج من الحنين والخجل وشهوة الانتقام. فكَّر في أن يصعد ليرى كيف أصبحت غرفته، لكنَّه طرد الفكرة الحمقاء وعاد إلى مكتبه.

وقف عند باب مكتبه ينتظر الطَّالب. ينهي السكرتير عمله عند الثالثة ظهرًا. جاء شاب في العشرين من عمره والخوف والقلق الشديد باديان على وجهه.

ـ لا تخشَ شيئًا. أنت تريد أن تبقى في الجامعة وألَّا تُطرَد، هل هذا صحيح؟

ـ نعم، يا سيِّدي الرَّئيس، أرجوكم لا تطردوني، أقسم باللَّه العظيم إنِّي لم أحاول الغش، لكنَّ المراقب...

قاطعه جابر: توقَّف عن هذا الهراء، أغلق فمك واسمعني.

أدخلهُ جابر مكتبه ورمى حزمة نقديَّة كبيرة على الطاولة، وقال له: خذ هذه. بدا وجه الطَّالب شاحبًا شحوبَ الموت:

ـ أرجوك يا سيِّدي، أنا لا افهم شيئًا ممَّا يجري.

ـ ستفهم الآن. بعد اطّلاعي على ملفّ قضيّتك، فأنت مذنب تمامًا. المنطق يقول إنّ اللّجنة ستوصي بفصلك عامًا كاملًا. في هذه الحالة، سأوقّع قرار طردك بنفسي. لنفترض أنّك رشوت رئيس اللّجنة ونجوت من الطّرد، سيصل ملفّك إليّ وسأطعن في قرار اللّجنة وأطردك بنفسي. في الحالتين أنت ستُطرَد. لكن إن قمت بما سأمليه عليك، أبطلتُ أيّ قرار يُتّخذ بحقّك وألغيت قرار طردك. أضف إلى ذلك أنّك ستحصل على مبلغ نقديّ، ولن يجرؤ أستاذ في الجامعة على معاقبتك بعد الآن.

ـ وما المطلوب منّي، يا سيّدي؟

ـ ستأخذ هذه النقود وتقدّمها رشوة إلى رئيس اللّجنة.

ـ أرجوك، يا سيّدي، لا تُدخلني في قضيّة أكبر من قضيّتي.

ـ أقفل فمك، وإلّا حَلّ غضبي عليك، وطردتك قبل انعقاد اللّجنة.

ـ أمرك، يا سيّدي.

الدّمعة عالقة في جفن الطّالب.

ـ سيقدّمك أحدهم إلى رئيس اللّجنة كصديق، ويمهّد لأمر الرشوة. ستعطيه المبلغ تمامًا قبل انعقاد اللّجنة بدقائق، أتفهمني؟

ـ نعم، يا سيّدي.

ـ ثمّ ينتهي الأمر. ستدخل قاعة اجتماع اللّجنة وتتصرّف بطبيعيّة. في الصّباح عند التّاسعة سيمرّ بك أحدهم في الكافتيريا ويأخذك لترى رئيس اللّجنة. حذارِ أن تحاول فعل أيّ شيء خارج اتّفاقنا، يمكنني أن أصل إليك وإن كنت في باطن الأرض.

ـ أعوذ باللّـه، يا سيّدي، سأكون مخلصًا لك.

ـ والآن، خذ هذه الورقة. اقرأ مضمونها جيّدًا لتفهم ما ستقول، ثمّ وقّعها.

يقرأ الطّالب مذهولًا. ينقّل عينيه بين الورقة وجابر، فيرى عينَي جابر جامدتين. قرأ الورقة كاملة، ثمّ قال: أرجوك، يا سيّدي، أنا طالب فقير لا قِبَل لي بهذا.

ـ أقفل فمك وإلّا أمرت أمن الطلّاب باعتقالك الآن بتهمة الاعتداء عليّ. أنت في وسط الدوّامة، لا يمكنك الآن الخروج.

وقّع الطالب على الورقة وهو يبكي.

ـ هل فهمت كلّ ما فيها؟

ـ نعم، يا سيّدي.

ـ اقرأها مرّة أخرى.

ـ لا داعي يا سيّدي، فالشرّ عمومًا سهل الفهم والتّطبيق.

عند الحادية عشر صباحًا كان جابر مع خمسة من عناصر أمن الطلاّب أمام قاعة اجتماع اللّجنة التي انعقدت للتوّ. انتظروا خمس دقائق، ثمّ فتح الباب مباشرة ودخل. وقف رئيس اللّجنة يصرخ: ما معنى هذا؟

ـ عذرًا منك يا زميل، لديّ هنا شكوى ضدّك من هذا الطّالب بمحاولة ابتزازه وتهديده.

ـ هذا غير صحيح.

يقول جابر لعناصر الأمن: فتّشوه.

ـ هذا ليس قانونيًا.

يقهقه جابر ضاحكًا: بل قانونيّ، أيُّها الرّئيس.

وجد عناصر الأمن رزمة نقديّة في أحد جيوبه.

ـ هذا ليس شيئًا، هذه نقودي، حملتها هذا الصّباح لأشتري بها شيئًا.

أخرج جابر عدّة أوراق وعرضها على رئيس اللّجنة، فانهار الرجل: هناك تطابق بين أرقام الأوراق النقديّة التي قدّمها الطّالب عند تقديم شكواه، والأوراق النقديّة في حوزتك.

نظر رئيس اللّجنة الفرعيّة لشؤون الطلاّب نحوه، وقال: فعلتها يا جابر.

ضحك جابر: ستذهب معهم بهدوء الآن، وهم سيقومون بتسليمك إلى السُّلطات المختصّة مع صور النقود، والنقود عينها، والشكوى.

حصل الطّالب على مبلغ جيّد من جابر، إضافة إلى نقود الرشوة المزعومة للرّئيس والتي عادت إليه بعدها. وأصبح عينًا أخرى لجابر في الجامعة.

اتّصل بالوزيرة وأخبرها بتهمة الرّشوة التي أدين بها رئيس

اللَّجنة الفرعيَّة لشؤون الطلَّاب، فطلبت منه الحضور مساءً لرؤيتها.

ـ اشتقتُ إليك كثيرًا. مرَّ بي مساءً.

ـ سأفعل، وأنا أيضًا اشتقت إليكِ.

لم يكن لديه أيّ خيار آخر. لا يستطيع أن يقول لها: «اليوم، أحسّ ببعض التعب»، أو «إنِّي مشغول بعض الشيء». إنَّ أصعب الأدوار التمثيليَّة تلك التي تفرض حبًّا في جسد جليديّ.

قرَّر في اللَّيل أن يصارحها بعدم استطاعته المتابعة. سيقول لها إنَّه لا يليق بها، وإنَّها، بمركزها الاجتماعيّ وجمالها، تستحقّ رجلًا أفضل منه. ابتسم لفكرته الصبيانيَّة. هذه الطريقة ستجرحها أكثر من الحقيقة عينها.

ينظرُ إلى الضوء الأحمر القادم من زاوية الغرفة، ويفكّر: ما عساه يقول لها. ربَّما سيقترح عليها ألا يبيت لياليه هنا عندما يراها. ربَّما هذا سيعيد مشاعره إلى سابق عهدها. لم تعجبه الفكرة المجتزأة، لا، عندما يصارحها، سيطلب منها الانفصال.

جسدها البضُّ الأبيض عارٍ قربه. ما زالت رائحة عطرها تفوح كلَّما تقلَّبت في نومها. أكثر ما يغيظهُ هو نومها الهانئ، لا تصحو ولو مرَّة واحدة في اللَّيل. اقترب منها، وقبل نحرها فبقيت نائمة. أمسكت بيده. احتضنتها وضمَّتها إلى صدرها العاري، ثمَّ بخفَّة، بين النوم والصحو، طبعت قبلة خفيفة على راحتها.

في الصَّباح، قبل أن يغادر، قالت له شيئًا، فانتفض واقفًا:

ـ لقد بدأتُ أخاف منك.

ـ تخافين منِّي! لماذا؟

ـ لا أدري كيف أشرح لك. ثمَّة شيء قد تغيَّر فيك، لم تعد تشبه ذلك الشابَّ البريء الذي جاء إلى إدارة الأمن العام وأنقذ حياتي.

ـ أنت تبالغين قليلًا.

يخشى جابر أنَّها انتبهت لرغبته في الانفصال عنها، فقالت ما قالت ملمّحة. لكن لتنتبه، لعلَّها هي من تنفصل عنه وتتركه في سلام. يستميت جابر ليثبتَ لها العكس الآن. يستميت ليثبّت لها أنَّه لم يتغيَّر. كان يتمنَّى الانفصال عنها بأيّ ثمن، والآن عندما شكّ في وجود احتمال

ضئيل للانفصال من جهتها، بدا كطفل صغير يدافع عن نفسه أمام أمّه. قالت له: يمكن أن أكون مخطئة. دَفْعُك برئيسَي لجنتين إلى التحقيق جعلني أشعر بالقلق قليلًا.

ـ لا تفكّري في هذا أرجوك. كنت فقط أقوم بعملي لأكون عند حسن ظنّك.

ـ حسنًا، يا جابر، فلننسَ الأمر.

تقترب منهُ وتتعلّق برقبته من جديد، تقبّله كما لم تفعل من قبل:

ـ لا تتأخّز في المجيء. ولا تنسَ احتفاليّة الوزارة في الأسبوع القادم.

كانت الوزيرة نجمة الحفل بلا منازع. فستانها اللَّيمونيّ الطَّويل, الذي غطّى كامل قدميها وكشف مساحة واسعة بين نحرها وصدرها، كان قِبلةً للعيون. تبحث بعينيها عنه بينما الجميع يتودَّدون إليها. اقترب منها رئيس الوزراء، وبدأ يهمس لها شيئًا، حين رأت جابرًا يدخل صالة الاحتفال.

سأقدّم إليك جابرًا، سيّدي الرَّئيس.

حسنًا، هذا جيّد.

أشارت بيدها إليه فرآها. مشى إليها كمن يمشي في ليل يهتدي بنجم. قالت معرِّفة:

ـ السيّد رئيس الوزراء. جابر، الرَّئيس الأعلى للجامعة.

ـ تشرَّفتُ وسُعدتُ بلقائك يا سيّدي رئيس الوزراء.

ـ أهلًا بك يا جابر، سمعت عنك الكثير من الأخبار السارَّة التي ساعدت حكومتنا في القبض على بعض المسيئين.

ـ هذا واجبي، يا سيّدي الرَّئيس.

انسحب جابر بعد دقائق وقد أحسّ بنفسه زائدًا بينهما، ووقف قرب إحدى اللَّوحات الفنّيّة. كلّ رجالات الدولة هنا. رأى وزير الداخليّة الذي اقترب منه وحيّاه:

ـ مضى وقت طويل يا جابر، كيف هي أحوالك.

ـ في أحسن حال، يا سيّدي الوزير.

ـ لا شكّ في أنّك علمت بالأحكام القضائيّة التي نالها رئيسا اللَّجنتين الفرعيّتين في الجامعة.

ـ نعم علمت بها.

ـ مرّ بمكتبي يومًا يا جابر.

ـ سأفعل يا سيّدي الوزير.

جاءت الوزيرة معاتبة: لماذا تركتنا وانسحبت؟

ـ أحسَّستُ بنفسي زائدًا بينكما.

ـ هل فقدتَ عقلك يا جابر. أنت هنا ـ بالنسبة إلي ـ أهمُّ شخص على الإطلاق.

ينظرُ إليها كأنَّه يراها للمرَّة الأولى. جمالها الأمومي السَّاحر، وتلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها؛ ابتسامة لا يجيدها إلا أشخاص حقيقيُّون، حقيقيُّون وصادقون. يفكِّر: ماذا أطلب أكثر من هذا، المرأة السُلطة تقدِّمني على رئيسها. تترك العشرات ممَّن يتحيَّنون الفرصة لمحادثتها، وتأتي لتنضمَّ إليَّ. الوزيرة لن ترى الدمعة التي تحجَّرت في جفن جابر، حجبها الضوء وضوضاء الصالة.

كانت الوزيرة تنتقل كفراشة بين المدعوين، وبينهم وزراء وضبَاط وشخصيَّات من المجتمع المدنيّ. تقف لحظات مع هذا، ثمَّ تتركهُ لتحادث غيره، وعيناها دائمًا تتَّجهان جهة جابر كلَّما سنحت لها الفرصة. كانت تقوم بواجبها كعرَّابة للحفل، لكنَّ الآخرين لم يهتمُّوا كثيرًا بدورها. كانوا يريدون البقاء معها أطول فترة ممكنة.

قبل نهاية الحفل بقليل، وقفت مع رجل لدقائق. أحسَّ جابر بشيء غريب تجاهه. لم يستلطفهُ بداية، والرجل لا يتوقَّف عن الحديث معها، وهي تبتسم وتنظر إليه مليًا. يحسّ جابر بشيء غريب الآن. ليست غيرةً، بل شيء يشبه الاقتراب من مأساة. بقي الرجل يتابع الوزيرة بعينيه فترة طويلة بعد أن انتقلت لتحادث غيره. وأحسَّ جابر بأنَّه يكرهه لسبب ما؛ سبب غير منطقي. الرجل أطول قامة من جابر وأكثر وسامة. لكنَّ جابرًا يفكِّر: ما أقبح هذا الرجل!

هنا أيضًا أنت تدافع عن نفسك، تدافع عن نفسك ضدَ من اصطفته الطبيعة بصفات لا تملكها أنت، مع أنَّ المرأة تصرَّفت معهُ تمامًا كما تصرَّفت مع الجميع، إلَّا أنَّه مختلف عن الجميع. تدافع عن نفسك ضدَ الصُدَف التي جعلته أطول منك وأكثر وسامة، كان يمكن للأمر أن يمرَ مرور الكرام، لكنَّه سينتهي نهاية غريبة.

افتراض شيء والبناء عليه سينتهيان إلى نتيجة، بغضّ النَّظر إن كان هذا الأمر صحيحًا أم لا. كلّ شيء في الحياة نتيجةٌ حتميَّة لسبب.

عندما انتهى الحفل، بقيت الوزيرة قرب جابر. ودَّعت المدعوين تباعًا حتَّى فرغت الصالة إلَّا من معاونيها وبعض العمَّال في الوزارة. تهمس في أذنهِ: هل ستمضي اللَّيلة معي؟ وكالعادة، يهزّ رأسه بنعم. لا خيار آخر لديه.

كعادتهِ في غرفتها، لم يغمض له جفن. شيء غريب هذا. لقد استيقظ عند السّادسة صباحا اليوم وهو مرهق ومُستنزَف جسديًا، لكنّه لا يستطيع النوم. حضورها الكثيف في فراغ الغرفة يمنعهُ، وإحساسهُ بسلطتها الدّائمة حتّى في نومها وصمتها جعله يقرّر: سأنفصل عنها ولترسلني إلى الجحيم إن أرادت. لم يعد الأمر يعني لي الكثير.

سيخبرها في الصّباح ويرجوها أن تتفهّم وضعه. هو لا يكرهها وما زال الودّ والامتنان لها يملآن قلبه، لكنّه لم يعد يستطيع المتابعة. نعم، سيخبرها بذلك في الصّباح.

جلسا يشربان القهوة. ما زالت تحدّق فيه كلّ الوقت: أأعجبك الاحتفال؟

ـ لقد كان رائعًا. لم أكن هناك لولا دعوتُك.

ـ كنت سأدعوك مهما تكن النتيجة. تلك مناسبة جيّدة لك لتلتقي كبار المسؤولين، وعلى رأسهم رئيس الوزراء.

ـ أريد ان أقول لك شيئًا، لكن افهميني أرجوك.

تتغيّر ملامح وجهها، وقد رأت الجدّيّة عليه. تُربكه حيرتها من جديد؛ تربكه سلطتها.

ـ ماذا في الأمر، يا جابر؟ أقلقتني.

يصمت للحظات ويقول: لقد كنتِ فاتنة في احتفال الأمس، وبدأتُ أغار عليك.

تعلو ابتسامة صادقة شفتيها، وتقفز من مكانها لتعانقه:

ـ كنت أعتقد أنّ الموضوع خطير. اسمعني جيّدًا: أنا أحبّك أنت فقط، بين كلّ رجال الأرض.

يبدو أنّ الدّائرة أغلقت وهو في داخلها. لن يستطيع مصارحتها بالحقيقة، وستبقى السّاعات التي يمضيها في غرفتها بعد أن تنام، صليبًا يحملهُ.

مرّ أسبوع لم يتّصل بها. لا أشياء مهمّة ليخبرها بها عن الجامعة، وهو يحاول التهرّب منها. كان يعلم بأنّها ستتّصل به قريبًا، ولن يمرّ أسبوع آخر قبل أن يزورها. فكرة أنّه سيضطرّ إلى البقاء صاحيًا في غرفتها لليلة أخرى ستودي بعقله.

لن يتراجع هذه المرّة، ولن يغيّر رأيهُ مهما رأى في عينيها من حبّ. سيخبرها وانتهى الأمر. هو لن يؤذيها. لن يجرح مشاعرها. الملايين في كلّ يوم على سطح الكوكب ينفصلون بعد قصص حب عاصفة. لن تكون قصّتهما البائسة الأولى، وليست الأخيرة.

إن انتظرها لتتّصل به وتدعوه إلى زيارتها، فهذا يعني أنّه سيمضي ليلة أخرى معها. لا يمكنه أن يفاجئها عند دخوله: عذرًا سيّدتي، الآن سننفصل. لا، هذا ليس منطقيًا. ستكون المرأة في انتظاره ليمضيا ليلتهما معًا، وهو سيهجرها. لا، هذا ليس مناسبًا.

إن اتّصل بها وطلب رؤيتها لأمر ـ خلافًا للعادة ـ فإنّها ستهيّئ نفسها لشيء مهمّ يخبرها به. نعم، هكذا أفضل. لن يفاجئها بالانفصال، وهي تفكّر في قضاء ليلة دافئة معه.

في نهاية الأسبوع الثاني، اتّصل بها: كيف حالك؟

ـ بخير، الحمد للّه، كيف حالك أنت يا جابر؟

ـ بخير، لا جديدَ في الجامعة. كلّ شيء على ما يرام.

ـ هذا جيّد جدًا.

ـ هل يمكنني رؤيتك اللّيلة. هناك أمر أودّ التّحدّث فيه معكِ؟

ـ اعذرني يا جابر، لن أستطيع، أنا متعَبة جدًا اليوم.

ـ هل أنت متوعّكة؟

ـ لا، لكنّي متعبة. سأتّصل بك لاحقًا، مع السّلامة يا جابر.

ـ مع السّلامة.

ما زال يمسك سمّاعة الهاتف بيده ويقربها إلى أذنه، لعلّها لم تغلق الخطّ وغيّرت رأيها: «حسنًا، يا جابر، لا همّ إن كنت مُتعبة. تعال اللّيلة، فأنا مشتاقة إليك». لكنْ لا شيء من هذا حدث. انقطع الخطّ، والسمّاعة بيده ما زالت معلّقة في الفراغ. لو أنّ أحدًا يرى جابرًا الآن، لرأى رجلًا مذهولًا ينظرُ إلى خط الأفق المرسوم أمامه، والسمّاعة في يده تشهد بكارثة اجتاحت كيانه.

يحوم جابر في المكان كمَن لسعته عقرب صفراء. يقوم عن كرسيه يذرع الغرفة مرّتين أو ثلاثًا، ويعود يجلس، ينتفض كالملسوع بعدها ويعاود الدوران. يحسّ الآن بأنّ جدران الغرفة تضيق عليه،

تتقارب فيما بينها حتّى تكاد تخنقه. لم تعد الأرض تحمله، ولا المكان. فكّ ربطة عنقه ورماها. يحسّ بأنّ الهواء لم يعد كافيًا. يخرج إلى المساحات المفتوحة، جنوبًا، حيث الحدائق العامّة للجامعة.

ما معنى هذا؟ الوزيرة ترفض طلبه زيارتها. فيما مضى، كانت هي من تطلب مجيئه، والآن، وفي أوّل مرّة يطلب رؤيتها، ترفض، والحجّة أنّها متعبة. قد تكون متعَبة حقًّا أو متوعّكة. لا، هي ليست متعبة، بل ترفض رؤيته. كنتُ أسعى لأن أدفعها لتطلب الانفصال عنّي، فما الذي أصابني حين رفضت رؤيتي. لعلّها تمهّد طريقًا للانفصال، وتلك كانت أمنيتي، فلماذا أدور الآن حول نفسي كالمجنون.

لا شك في أنّي أحبّها، وإلّا فما سبب هذه الحيرة والضياع الآن. لا، لستُ أحبّها. إنّها صدمة الرفض فقط. ساعات وأعود إلى حالتي الطبيعيّة.

لم يعد جابر إلى حالته الطبيعيّة بعد مرور سبع ساعات. إنّها السّابعة مساءً الآن. يفكّر في أن يتّصل بها من جديد بحجّة الاطمئنان على صحّتها. أيّ حماقة هذه؟ كيف أتّصل بها بعد أن رفضت رؤيتي صراحة؟

يتصنّع عدم الاهتمام، ستحقّق لي رغبتي. أيّ رغبة هذه. يبدأ بالصراخ في مكتبه: سأصاب بالجنون. دخل الحاجب الذي يبقى على باب مكتبه حتّى يغادر: أأنت بخير يا سيّدي؟

- اغرب عن وجهي يا رجل الشاعة، وإلّا قتلتك.

يخرج الرجل راكضًا وقد أحسّ بأنّه يواجه مجنونًا.

يجب أن أتمالك أعصابي. لست وحيدًا هنا. نادى الحاجب وطلب منه، بكلّ هدوء: أريد فنجانًا من القهوة لو سمحت. لهجة الرّئيس الأعلى للجامعة المهذّبة زادت في حيرة الحاجب واندهاشه.

كان يرشف القهوة حين مرّت الفكرة في رأسه كسهم ناريّ يخترق كومة من القشّ: يا ربّ السّماء، لا بد من أنّها وجدت رجلًا آخر.

تنتظر رجلًا آخر في سريرها اللّيلة. لا تكن أحمق. كنت معها قبل أقلّ من أسبوعين. وما المانع في أن ترى أحدهم وتستلطفه، ثم... يذكر الآن الرجل في احتفاليّة الوزارة؛ الرجلَ الذي وقفت الوزيرة معه لدقائق، وأحسّ بأنّه يكرهه. إنّه هو. يا الهة السّماء. إنّي أفقد عقلي

الآن. إن ظللتُ أتابع هكذا فسأرتكب حماقة. فلترتكب حماقة وقد غدت الحياة كلّها تُختصَر في شخص امرأة.

أخرج مسدسه الآليّ من درج المكتب، وتأكّد من أنّ المخزن ممتلئ بالكامل بالطلقات. لكنّه أعاده ووبّخ نفسه: ما هذا، ماذا تريد أن تفعل أيها المغفل؟ سلاح تقتل به أحدهم. هل فقدت عقلك؟

يدور في المكان كامرأة فقدت طفلها الرّضيع. لا يدري ما يفعل. حتّى بوجود رجل جديد، هكذا ستتخلّص منها، وستغدو حرًا. تعود الفكرة سادية مؤلمة مرّة أخرى. رجل في سريرها. هل ستقبّل راحتَي يديه كما كانت تقبّلني؟ هل ستغفو فوق صدره كما كانت تفعل معي. يا آلهة الكون الفسيح، إنّي أتلاشى. وضع رأسه على الطاولة وبدأ يبكي.

ينظر إلى ساعته. السّابعة والنصف. يرفع سماعة الهاتف من دون تفكير، ويطلبها:

ـ عذرًا لإزعاجك، لكنّي أحببت الاطمئنان عليك.

ـ أنا بخير، يا جابر.

ـ ما رأيك في أن أمرّ بك ساعة واحدة فقط؟ اشتقت إليك.

تخرج الكلمات من فمه عرجاء، وفي أعماقه براكينُ تغلي: أن أمرّ في التّاسعة، ما رأيك؟

ـ قلت لك إنّي مرهقة اللّيلة.

ـ لكنّي سأراك فقط، نحتسي شرابًا، ثمّ أغادر.

يعلو صوتها قليلًا؛ صوتُ السُّلطة والجبروت:

ـ قلت لك لا، ألا تفهم هذا؟

ـ حسنًا، تصبحين على خير.

تنتظر أحدهم. لو أنّها مرهقة لما رفضت زيارتي ساعة فقط، وصوتها يشي بكلّ شيء.

عاد إلى جابر بعضٌ من اتّزانهِ. الآن عليّ التصرُّف بحذر. سيصل الرجل عند التّاسعة كما كنت أفعل. أيّتها الخائنة، أنا من أنقذ حياتك. أهذه مكافأتي. عيناه تقولان الكثير الآن، وقد غدا وحشًا حقيقيًا.

وضع المسدس في جيبه، صرف الحاجب، وخرج من الجامعة. المساحة المحيطة بفيلا الوزيرة يعرفها عن ظهر قلب. قديمًا، قبل أن

يمتلك سيَّارة، كان يمشي ساعة كاملة عندما يغادرها فجرًا حتَّى يصل إلى الطريق العامّ، وهناك يأخذ سيَّارة أجرة. كان يرفض عرضها بتوصيلة السَّائق: المشي في الفجر، سيِّدتي، له سحره الخاصّ.

يقود سيَّارته كالمجنون حتَّى يصل إلى مفترق طُرُق قريب من فيلتها. يحسّ بأنَّه أخطأ في قدومه بالسَّيَّارة. وضعها في مكان معتم ومشى. دخل منطقة شجرية تطلّ على الفيلا حتَّى وصل إلى قبالة الباب الرَّئيس. يقف على بعد عشرات الأمتار تحميه الأشجار. وقف على البوابة حارسان.

لا يمكنه رؤية أيّ من نوافذ الفيلا من هنا، السُّور يقف حاجزًا منيعًا في وجهه. السَّاعة الآن الثامنة والرُّبع. يمكن أن يكون الرَّجل وصل باكرًا، عند السَّادسة مثلًا، أو أنَّه في الطريق الآن. يمكن أن يأتي في سيَّارته الخاصَّة، أو أن يأتي به السَّائق.

يقف جابر الآن خلف شجرة ببدلته الفاخرة الخفيفة في هذا المساء الخريفيّ المائل إلى البرودة. لم يأكل شيئًا، وهذا ما سيجعل إحساسه بالبرد مضاعَفًا.

السَّاعة التَّاسعة والسُّكون مطبق. الحارسان يشربان الشاي ويبدو أنَّهما لا ينتظران أحدًا. فجأة انتبه لشيء: السَّائق ليس هنا، ربَّما سيأتي بالرجل الآن. كيان جابر وروحه معلَّقان بالبوَّابة السَّوداء. سيظهر الآن غريمه متجسّدًا. ربَّما سيقفز إليه ويمسك برقبته:

ـ لماذا سرقت المرأة منّي؟

ـ لم أسرقها، هي من تركتك، هي من رفضتكَ، ثمَّ إنَّ الحياة كانت في بداياتها الأولى مشاعًا، الكلّ للكلّ، فلا حقد ولا حبّ ولا كراهية، بل حياديَّة مُطلقة وحياة، نحن من شوهها.

التَّاسعة والنّصف ولا شيء يتحرَّك. بقي جابر ينتظر حتَّى تجاوزت السَّاعة الحادية عشرة ليلًا. لو أنَّه يستطيع الآن أن يطوف على نوافذ الفيلا ليرى غرفة نومها. يا ربّ السَّماء، كيف أتأكَّد إن كانت تنام في حضن رجل آخر السَّاعة.

سيغادر الرجل صباحًا. إن بقيت هنا حتَّى الصَّباح فسأراه. أيّ حماقة هذه؟ في الصَّباح ستكشفك الشمس لكلّ عين هنا.

غادر المكان وهو يفكّر: هذا يوم جديد سأحياهُ وأنا معلَّق في

الفراغ.

لم يغمض لهُ جفن طوال اللَّيل. كان يعيد الاحتمالات عينها، يفاضل بعضها على بعض، ثمَّ يرفض النتيجة ليعود من جديد. ليس متأكّدًا من خيانتها ولا من صدقها. وحتَّى إن هو تأكَّد من خيانتها فما عساه يفعل. في إمكانها إرسالُهُ خلف الغيم إن شاءت. كلَّما فكَّر في هذا يحسّ بغيظه يتحوَّل إلى كُره لها.

كان يومهُ التَّالي في الجامعة عاديًا. حاول أن يشغل نفسه بكثير من الملفَّات والمهمات لينصرف عن التفكير فيها، لكنَّ المرأة كانت تظهر حيّة أمامه أنَّى ذهبت عيناه.

خرج من مكتبه وعاد إليه عشرات المرّات. مرّ بكلّ الأبنية في الجامعة وتفقَّدها. كان يدور في حلقة مفرغة تُعيده إلى مكتبه مع الفكرة القاتلة ذاتها: هل أمضت ليلتها في حضن رجل آخر؟

رنَّ جهاز الهاتف:

ـ ألو.

ـ ما بال صوتك هكذا يا جابر، هل أنت متوعّك؟

يا آلهة السَماء، إنَّها الوزيرة. بقي صامتًا للحظات، وقد شلَّت المفاجأة لسانه.

ـ ألو جابر، هل تسمعني، أما زلت هناك؟

ـ نعم، يا سيّدتي، أنا هنا.

ـ صباح الخير يا عزيزي، أحسّ بنشاط اليوم وقد أخذت كفايتي من النوم ليلة أمس.

يفكّر: في حضن الاخر!

ـ هل ستمرّ بي اللّيلة؟

ـ جوابهُ كان آليًا: نعم.

ما معنى هذا؟ تستخفّ بي المرأة الآن. بعد أن أمضت ليلتها في حضن رجل آخر، تدعوني إلى أن أمضي اللّيلة معها.

إحساس طاغٍ بأنَّه يكرهها يمرّ سريعًا في كيانه، ثمّ يعود يرفضه. وحش يترصّد فريسته.

أمضى نهاره كلّه يفكّر: كيف يمكنها أن تجمع بين رجلين، تلك الأفعى؟ أتكون صادقة، وكلّ استنتاجاتي عبارة عن أوهام محضة. لا، هذا مستحيل، لقد أمضت ليلتها مع رجل آخر، وتبقى صورة الرجل في سريرها ماثلة أمامه.

استقبلته كعادتها. لم يلحظ أيّ تغيير فيها. عانقته وقبّلته طويلًا.

أيّ ممثّلة بارعة أنت يا امرأة؟ يحاول هو الآخر أن يتصرّف بطبيعيّة ولا ينجح. يُطبل النّظر إلى عينيها لعلّه يقرأ شيئًا. تلاحظ المرأة تغيُّرًا:

ـ هل أنت بخير يا عزيزي؟

ـ نعم أنا بخير، لا عليك. تشغلني بعض أمور العمل.

ـ انسَ العمل، أنت في قلبي الآن.

كانت ليلة طويلة أمضاها في غرفتها؛ ليلة ليست كأيّ من الليالي السابقة. يجول بعينيه في الغرفة، يبحث عن أثر للرجل الذي كان هنا بالأمس. الضوء الأحمر تحوّل إلى وحش صغير يكشف جسدها العاري؛ جسدَها الذي كُشف، بكامل تفاصيله الصّغيرة، ليلة أمس أمام الآخر.

في الصّباح، حين دخلت الحمّام، فتّش الغرفة ولم يجد أيّ شيء. خرج إلى غرفة الأرائك، ثمّ المطبخ للغرض نفسه، وعاد إلى غرفة النوم وبدأ يفتح الخزائن والأدراج، حين باغتته: أتبحث عن شيء يا عزيزي؟

ـ لا شيء، كنت أبحث عن ساعتي.

اقتربت منه، وقبّلته قبلة طويلة وهي تبتسم: السّاعة في يدك يا جابر.

ضحك هو الآخر متصنّعًا.

عليه أن يتأكّد من وجود رجل آخر. سلوكها اللّيلة الماضية جعله يشكّ في وجود هذا الغريم. ربّما تؤدي دورًا تمثيليًا مُحترفًا فتُبقي على رجلين في حياتها في الوقت عينه. هي ليست مضطرّة إلى ذلك. يمكنها أن تخبر جابرًا بالأمر، ببساطة ومن دون مقدّمات: اخرج من حياتي، أحبّ رجلًا اخر الآن.

يفكّر: إنّ واظب على الاتّصال بها يمكنهُ تحديد اليوم الذي ستستقبل فيه الآخر، ببساطة حين ترفض لقاءه. لكنّ في ذلك خطرَ قبولها دعوة جابر إلى أن يمضي ليلة معها، وهو ما لم يعد يطيقه. لا يمكنه أن يقول لها: «أودّ القدوم اللّيلة». وتجيبه هي: «أهلًا بك، يا عزيزي». عندها سيتأكّد من أنّ الآخر لن يمضي ليلته معها. «آه، عذرًا، نسيت أنّي مشغول اللّيلة ولا أستطيع الحضور». لا، هذا غير منطقيّ أبدًا.

لم يبقَ إلّا حلٌّ وحيد: أن ينتظر أمام فيلتها كلّ مساء حتّى يرى الاخر يدخلها، عندها لن يبقى أيّ مجال للشك. المهمّة صعبة جدًا. كانت

سهلة لليلة واحدة، أمّا كونها ستصبح دائمة، فخطر رؤية الحراس له سيكون بمثابة كارثة. لا يوجد أيّ حلّ آخر.

راقب الفيلا ثلاث ليال ولم يرَ أحدًا يدخلها. المرّة الوحيدة التي خرجت فيها مساءً لاجتماع للحكومة كانت قد أخبرته به سابقًا. يا اللّه، المرأة حتّى اللّحظة صادقة ولا يوجد أيّ دليل على خيانتها.

بدأ جابر يفقد الأمل برؤيته دليلًا ماديًا. قرّر أن يراقب لليلتين إضافيّتين ثمّ يتوقّف عن هذا، إنّ متابعة ما يقوم به الآن أصبحت أقرب إلى الحماقة.

عاد السّائق، في اللّيلة الرّابعة بسيّارته عند الثّامنة والنّصف. أضواء السّيّارة التي كشفت جزءًا كبيرًا من المكان كادت تكشف مكانه. قلبه سيتوقّف خلال اللحظات التي تمرّ بها السّيّارة بمحاذاة البوّابة، حين سيرى الرجل الآخر يترجّل.

لا شيء من هذا. السّائق كان وحيدًا. نزل من سيّارته وانضمّ إلى الحرّاس. انتظر جابر نصف ساعة، كلّ شيء يشي بهدوء، الحرّاس والسّائق يشربون الشاي ويتهامسون. لا نيّة لأحد في الذهاب إلى أيّ مكان.

أربع ليال ولم يظهر الغريم المنتظَر. بدأ يحسّ بأنّه يُمضي وقته في انتظار المجهول؛ المجهول الذي لن يأتي. لن أذهب اللّيلة، في ذلك مضيعة للوقت.

في اليوم الخامس عندما اقتربت السّاعة من الثامنة، وجد نفسه يتّجه لاإراديًا إلى المكان نفسه. وصل عند الثامنة. كلّ شيء هادئ كما في الأيّام السّابقة. عند الثّامنة والرُبع سطع ضوء السّيّارة، قويًا وكشف جزءًا كبيرًا من الجوار. اختبأ جابر خلق شجرة. سيأتي السّائق وحيدًا كما في ليلة أمس. أيّ حماقة هذه التي أرتكبها هنا. وقفت السّيّارة أمام البوّابة وترجّل منها السّائق. يفكّر جابر في العودة الآن وعدم تكرار المحاولة.

لكنّه يفتح عينيه على اتّساعهما ولا يصدّق ما يرى. رجل آخر يترجّل من السّيّارة ويدخل مع السّائق من البوّابة. يحمل الرجل حقيبة في يده كتلك التي يحملها رجال الأعمال وبعض السياسيّين. بُعد المسافة النسبي والإضاءة غير الكافية لم يسمحا لجابر برؤية هيئة الرجل، ولا ثيابه، أو حتّى تقدير عمره، لكنّه يرى الشبه بينه وبين الرجل

الوسيم في احتفاليّة الوزارة. لا يمكنه التأكّد من ذلك. ربّما كان هو، ربّما لا، هذا ليس مهمًا الآن. كائنًا من يكون، إنّه الرجل الذي سينام في سريرها اللّيلة. لن يدري جابر أنّه، لو أتيحت له فرصة تفحُّص هيئة الرجل، فإنّه لن يعرفه أبدًا. فهو لم يرَه من قبل.

الخرّاس الذين وقفوا لم يبادلوا الزائر أيّ حديث. لا شكّ في أنّهم يعرفون من هو، وهي ليست المرّة الأولى التي يأتي فيها إلى هنا. دخل السّائق والرجل الآخر، وأغلقت البوّابة خلفهما. أيّتها الأفعى، الآن لا مجال للشكّ.

لا يوجد أيّ سبب بعد، يضطرّه إلى البقاء هنا الآن. يغادر المكان بخفّة حتى لا يثير أيّ ضجّة تكشفه بعد أن وصل إلى مبتغاه. لو أنّه بقي نصف ساعة إضافيّة، نصف ساعة فقط، لتغيّر كلّ شيء. لو أنّ الحزن أطبق عليه هنا وشلّ حركتهُ لنصف ساعة، لرأى شيئًا سيغيّر مجرى حياته.

الرجل الذي دخل مع السّائق، سيغادر معه بعد أقلّ من ثلاثين دقيقة. كان الرجل طبيبًا استدعتهُ الوزيرة لاستشارته بعد إحساسها بتوعُّك، هو عينهُ الصّديق القديم رئيس المشفى التّخصُّصي الذي جلب لها خبر عدم إصابتها بالسرطان قبل سنوات، وها هو مرّة أخرى يهمس لها بشيء آخر، فتبتسم.

قاد سيّارتهُ إلى الجبل القريب، وضعها في بداية الطّريق وترجّل. العالم كلّهُ يُختصَرُ بكائنين، المرأة الخائنة التي أنقذها من الموت، والآخر. مشى بين صفّين من الأشجار حتّى وصل إلى مكان مرتفع يرى منه المدينة. كانت المدينة تدخل مملكة اللّيل مُطمئنة. آلاف البيوت، عشرات آلاف البيوت تُعيدُ ترتيب الزّمن ليوم جديد. يحضّر سكّانها العشاء أمام مسلسل السهرة ويأكلون، وتغسل الأمهات الأطباق، والأزواج يدخّن كلٌّ منهم سيجارة ما بعد الطعام. الأطفال ناموا باكرًا استعدادًا ليوم دراسيّ جديد. البيوت يغمرها الدّفء والسّكينة. لو أنّ المرأة لم تغدر به، لو أنّهما أسسا أسرة دافئة كواحدة من تلك الأسر التي تعجّ بها بيوت المدينة. لم يكن ليمانع في أن يعيش ابنها معهما، ذلك الذي يدرس في مدرسة داخليّة في بلد بعيد. كان جابر سيحبّهُ كما أحبّها. الآن هو متيقّن من أنّه يحبّها بكلّ كيانه. كانت سلطتها الحاضرة بينهما أبدًا تُلقي غشاوة سميكة على عينيه، لكنّه يحبّها. قدّم إليها كلّ شيء، لكنّ المرأة اختارت أن ترُدّ الدّين، دمًا.

ينحدر الدَّمع البارد عن وجنتيه، وتتسابق العَبَرات لتتساقط فوق يده قبل أن تصل إلى الصخرة التي جلس عليها. مات أبوه ولم يطلب من أمّه القدوم للعيش معهُ. ثمَّ حين ماتت الأخيرة لم يعد يربطهُ بالمكان أيّ انتماء. بعد أن دفن الأمّ بحث عن ثيابه التي قابل فيها الوزيرة للمرّة الأولى كثيرًا ولم يجدها. فتَّش في كلّ مكان. كانت تطالعه أحيانًا أشياء ترتبط بطفولته فيرميها جانبًا. باع بيت أبويه ولم يعد إلى بلدته أبدًا. ألغى كلّ انتماء له لينتمي إليها، تلك التي قتلته بخيانتها.

ضاقت الحياة الآن حول رقبته، ضاقت حتَّى تكاد تخنقهُ. ما الذي سيفعلهُ الآن: إن صارحها: فإمَّا ستنكر، وإمَّا ستؤكّد وتقذفهُ خارج عالمها. وإن صمتَ، فسيرى الآخر في صدرها العاري كلَّما مرّ بها.

لو أنَّ جابرًا بقي في بيته أو مكتبه اللَّيلةَ لتغيَّرت حياتهُ.

اتَّصلت به الوزيرة في بيته لتدعوه إلى زيارته ولم تجده. اتَّصلت به في مكتبه ولم تجدهُ. في اللَّحظة التي كان يسير فيها ليأخذ سيَّارته المركونة في الطريق الفرعيّ تاركًا وراءه فيلتها، كانت المرأة ترفع سمَّاعة الهاتف وتنتظره.

لم يغمض لهُ جفن. يفكّر في أن يترك كلَّ شيء خلفه، ويعود إلى بلدته، يستأجر أرضًا ويزرع الخضار، كما كان يعمل مع أبيه في الماضي. لقد كسرتهُ المدينةُ والسُلطة. الآن هو يمتلك أموالًا طائلة ومنصبًا مرموقًا، لكنَّه فقد السَّلام.

مرّ النَّهار كئيبًا ورماديًّا. كان حُزنهُ يتحوَّل تدريجيًّا إلى غضب جارف. تتصارع الأفكار السَّوداء في رأسه كلَّما مرَّت صورتها عارية مع الآخر في خياله.

لو أنَّها صارحته: «اسمعني جيّدًا يا جابر، لم أعد أستطيع العيش معك فدعنا نفترق». كان سيحزن ربَّما، لكنَّه لن يحسّ بانكسار كهذا في روحه. سينساها، وهو الذي كان يفكّر في هجرها، وتتابع الحياة مجراها.

اتَّصلت به ظهرًا. حين سمع صوتها بدأ جسده بالارتجاف من قمَّة رأسه حتَّى أخمص قدميه، يفكّر: حمدًا للَّه، أنَّها ليست أمامي.

ـ اشتقت إليك، يا جابر.

يصمت جابر.

ـ ألو، هل تسمعني؟

ـ نعم يا عزيزتي.

ـ أقول لك اشتقت إليك.

ـ وأنا اشتقت إليك.

ـ تعال اللَّيلة، أنتظرك عند الثامنة.

دمه يغلي كمرجل. بالأمس، كانت معه واللَّيلة معي، أيّ أفعى أنت؟

ـ حسنًا، سآتي.

ـ لا تتأخَّر.

لن يذهب إليها اللَّيلة. ما الذي سيفعلهُ هناك وحضورها في المكان سيكون أقسى من حضور الموت والعذاب الأبديّ. يفكّر في أن يتَّصل بها عند السَّادسة ويخبرها بأنَّه متوعّك قليلًا، وأنَّه يودّ النوم باكرًا.

المعادلة الآن أصبحت شبه مستحيلة. لا يمكنه أن يبقى معها ليُبقي على نفسه داخل دائرة السُلطة، ولا أن يصارحها بمعرفته الكاملة بالحقيقة؛ حقيقةِ خيانتها. عندها ستقذفه خارج الدَّائرة. أيّ من الخيارين كان موتًا بطيئًا. لكنَّ بقاءه معها هو الأقسى والأكثر إيلامًا، بلا شك.

تقترب السَّاعة من السَّابعة. يا آلهة الكون. يحسّ الآن بالشَّوق العارم ليرتمي على صدرها الملوكي ويبكي كامرأة ثكلى. من أين يأتي هذا الإحساس. يمسك رأسه بيديه ويكاد يجنّ. الشَّوق إليها زادهُ شقاءً وكرهًا لذاتهِ.

سيراها، نعم سيراها ولتذهبِ القيم والأخلاق إلى الجحيم. سيراها ويخبرها بأنَّه يحبُها، حتَّى وإن كانت خائنة، وسيسامحها ويرجوها أن تبقى معه ولا تتركهُ للشَّقاء والعذاب.

لا، لن يعترف لها بشيء. لن يخطّط لشيء. ربَّما ستفاجئه الآن وتخبره بوجود الآخر. وعندها سينسحب من المكان كجيش مكسور فقد رايته.

استقبلتهُ كعادتها بقبلة طويلة. جسده يرتجف. أحسَّت بارتجاف يديه فاحتضنته وضمته إلى صدرها: ما بك يا حبيبي؟ جسدك بارد كلوح جليديّ.

ـ لا شيء مهمًا، يبدو أنّي سأُصاب بالزُّكام.

ـ لا عليك، تعال ندخل.

حضّرتْ له كأس برتقال: خذ هذا، سيساعدك.

ـ شكرًا لك.

ما هذا التصالح مع الذَّات الذي تحياه الآن؟ ما هذا السَّلام الداخليّ؟ تتصرَّف كأنَّ شيئًا لم يكن، وكأنَّها ليلة أمس لم تكن في حضن رجل آخر. هذا ليس تصالحًا ولا سلامًا. هذا استخفاف بهِ؛ استخفافٌ بكيانهِ ووجوده. يا آلهة السَّماء، هذا استخفاف برجولته. يكظم جابر غيظهُ، والصَّرخة تصل إلى شفتيه الجافتين: أيَّتها العاهرة!

ترتدي ثوب نوم أسود اللَّون كشف ما فوق ركبتيها العاجيَّتين. كتفاها العاريتان تستندان إلى ظهر كرسيّ الجلد الأبيض فتبدو في استرخائها ولامبالاتها كصورة قديمة. الأبيض والأسود يتناوبان في مشهد فريد أمامه. جسدها البضّ والكرسيّ الأبيض والفستان القاتم. يا

آلهة السَّماء، ما أجملها في هذه اللَّحظة. صدرها الباذخ يظهر خلف قماش الدانتيلا كإجاصتين ناضجتين لوَّحتهما الشمس، والماء العذب. يتراءى له أفقي صفراءَ اللَّون تشقّ طريقها ما بينهما.

تأخذه إليها، تضمُّهُ وتقول: لا ترحلْ باكرًا، سنأخذ كلانا إجازة من العمل لنمضي اليوم معًا.

يفكّر: ربَّما ستُبقيني لتخبرني بخيانتها. لو أنَّه يدري بما كانت ستخبره، لبكى مرَّتين: مرَّة الآن، ومرَّة حين يدري السبب.

ـ حسنًا سأفعل.

ـ رائع يا حبيبي، ستبقى معي نهارًا كاملًا.

تحسّ به متوتِّرًا. تحسّ بعينيه لا تستقرَّان في مكان حتَّى تقفزا في اتِّجاه آخر. تحسّ به غريبًا جدًّا اللَّيلة.

ـ ما خطبك يا جابر، أنت غريب اليوم؟

ـ لا شيء، يا عزيزتي، ربَّما ضغط العمل.

ـ إذًا، يوم الإجازة غدًا جاء في وقته.

يبتسمُ لها بوجه شاحب أصفر.

يأويان إلى السَّرير. جسدها الريّان يتموَّجُ كسمكة تسبح في ينبوع عذب.

تهمس في أذنهُ: أحبُّك، وهناك شيء آخر سأخبرك به.

يرى وجهها في ظلّ الضَّوء الأحمر السَّاقط من زاوية الغرفة. يترك النورُ ظلًّا صغيرًا خلف أنفها الإغريقيّ الجميل، ودائرةً مكتملة خلف نهدها الأبيض.

«سأخبرك بشيء يا حبيبي».

يرى لسانها يمتدّ في عمق فمها كثعبان أسود يخرج من كهف. «سأخبرك بشيء يا حبيبي»، ويرى اتِّحاد جسديهما الآن خطيئةً كبرى. يرى الموتَ يحوم في فراغ الغرفة الأحمر، كطير خراب يرفرفُ بجناحين أسودَين.

«سأخبرك بشي يا حبيبي». تفتح فمها فيخرج الثُّعبان. تزحف يديه على كتفيها لتضيقَ المسافة بينهما. تقتربان من رقبتها، وتطوقانها. اقتل الثُّعبان يا جابر، اقتلهُ. يداه تحيطان برقبتها. تميل برأسها لتقبّل

راحتهُ اليمنى فيمسه الثُعبان. اليدان تضغطان على الرَّقبة الآن، والمرأة تقاوم لتسحب شيئًا من الهواء.

« كنت سأخبركَ يا حبيبي»، وانقطعت الجملة في فحيح المرأة التي تقاوم الموت بعينين جاحظتين. لو أنَّه سمع بقية الجملة: «سأخبرك يا حبيبي بأنِّي حامل منك». لكنَّ يداه كانتا أسرع من الكلمات.

تنظرُ إلى عينيه قبل أن تموت؛ عينيه اللَّتين تحوَّلتا إلى عينَيْ وحش بشريّ. يصرخ لتسمع آخر جملة في الحياة: موتي أيَّتها العاهرة.

جسدها الجميل ممدَّد أمامه الآن بلا حياة. لقد قتلها. يا ربّ السَّماء، كيف قتلتها؟ كانت تستحقّ الموت تلك الخائنةُ. هي ليست خائنة. هي ليست زوجتكَ. والقانون سيجرّمك والسُلطة ستجرِّمك. وروحك بعد دقائق معدودة ستجرِّمك هي الأخرى.

عليه أن يغادر بسرعة. سيكتشفون موتها بعد ساعات وعليه أن يكون في مكان آخر. يبحث في المكان عن أثر تركه الآخر ليلة أمس، شيء كرائحة عطره، أو ربَّما هدية جلبها لها. بدأ يفتح الخزائن تباعًا. يرى ثيابها ولا شيء آخر. يبحث في كلّ مكان ولا يجد شيئًا يدلّ عليه.

يجلس إلى جانب الرجل الكبير لا ينبس ببنت شفة. يرى نفسهُ على المسرح العظيم بعد أن قتل المرأة. يحاول أن ينطق بشيء ما، لكنَّ الكلمات تولد دون شفتيه ميِّتة.

يرى نفسه يحوم في المكان كطائر شؤم. يجلس على الكرسيّ الصَّغير، منفصلًا عن كلّ شيء.

تُطفَأ الأنوار في الخشبة العملاقة. يعمّ الصَّمت قليلًا، ثمَّ تعادُ تضاء.

المرأة في شقَّتها تتابع برنامجًا إخباريًا. تفكّر في جابر الذي لم يتَّصل بها أبدًا منذ احتفاليَّة الوزارة. مرّ أسبوع ولم يفكّر حتَّى في الاطمئنان عليها. ما الذي يمنعهُ؟ تحاول أن تستعيد أحداث احتفاليَّة الوزارة لعلَّها تجد سببًا لجفائه الغريب. تفكّر في الأمر للمرَّة المئة ولا تجد سببًا واحدًا مقنعًا.

بعد الأسبوع الأوَّل، بدأت تظهر عليها علامات القلق والعصبيَّة. ستتَّصل به وتطمئنّ عليه. ربَّما كان مريضًا يتلقَّى العلاج، أو أنَّ أمرًا

طارئًا منعه عنها، لكنّها تغيّر رأيها وتخشى أنّه لا يريد رؤيتها حقًّا.

تشعر في الآونة الأخيرة ببعض التعب والإجهاد.

يدخل مدير مكتبها ليخبرها بقدوم زائر، فيراها شاحبة اللّون:

ـ هل أنت بخير، سيّدتي.

ـ لا بأس، مجرّد تعب بسيط.

ـ يمكنني الاعتذار من الزائر، فوجهك شاحب جدًا.

ـ تلمس بيدها خدّها الأيمن. حرارتها مرتفعة.

ـ نعم افعل، أحسّ بنفسي مرهقة للغاية.

تركت مكتبها باكرًا ذاك الصّباح. بقيت في سريرها اليوم كلّه، في المساء، أحسّت بنار في معدتها، فركضت إلى الحمام وأفرغت ما في أحشائها. صداع قاتل ومعدة متعبة. هذه ليلة ثقيلة.

«أنستدعي الطّبيب يا سيّدتي، وجهك أصفر وشاحب»، تسألها مدبّرة المنزل.

ـ لا داعي، في الصّباح سأكون أفضل.

ـ حسنًا، سأعدّ لك كوبًا من الشاي الدافئ.

يرنّ الهاتف، تحاول الخادمة أن تجيب على المكالمة. «سأجيب أنا»، تقول الوزيرة. تنهض من سريرها، ضعيفةً الجسد وواهنة، وترفع السمّاعة. إنّه جابر. تعود البسمة إلى شفتيها كأرض جدباء زارها المطر. تجيب باسمة. يطلب جابر رؤيتها هذا المساء. يا لحزنها، تريد بكلّ كيانها رؤيته، وتخشى أن يراها واهنة هكذا وغير جميلة.

ـ لا أستطيع اللّيلة.

تريد أن تنهي المخابرة بسرعة حتى لا تضعف أمام صوته الدّافئ في الجهة الأخرى. تعيد سمّاعة الهاتف وتبكي.

يرى جابر من مكانه قرب الرجل الكبير؛ يحسّ بأنّه يرى حياةً غريبة عنه؛ حياةً ربّما تتألّف في كليتها من قطع صغيرة كلُعَب الأطفال. يمكنك بحركة بسيطة أن تغيّر اللّون والشكل والغاية، وحتّى أن تقلبها رأسًا على عقب.

تبقى المرأة في سريرها وحيدة. تحسّ بضعفها الجسديّ وحزنها.

هي المرّة الأولى التي يسألها فيها أن يمضيا ليلتهما معًا. هي المرّة الأولى التي تحسّ فيها بأنّ كثيرًا من الحواجز بينهما قد سقط، وأنّهما رجل وامرأة كما شاءت الطبيعة. المرّة الأولى، لكنّها لا تستطيع رؤيته، فرفضت.

الهاتف مرّة أخرى. جابر يُصرّ على أن يراها. تستغرب إصراره هذا، وقد أخبرتهُ بأنّها متعبة. يمكنه أن يأتي في الغد. هي روح وكيان قبل كونها جسدًا. تشعر بالغضب قليلًا.

ـ قلت لك إنّي متعَبة اللّيلة، ألا تفهم هذا؟

وحين تنتهي المكالمة، تبكي من جديد.

في اللّيلة الثانية، شعرت ببعض التحسُّن، لكنّها ما زالت واهنة الجسد. سأطلب منه أن يأتي اللّيلة. لا بد من أنّه غاضب من رفضي ليلة أمس. لا يمكن أن أتركهُ يحسّ بأيّ ألم حتّى وإن أحسست أنا به.

تتّصل به. يرى جابر وجهها الصافي ووجهه الأصفر حين تطلب منه الحضور اللّيلة. ترقص فرحًا بانتظاره، وهو يغلي لأنّها أمضت ليلتها مع آخر؛ الآخر الذي نما في خياله وأصبح وحشًا.

تسقط دمعة فوق يديه وهو يراقب المسرح العملاق، بينما الرجل الكبير صامت تمامًا.

يرى نفسه أمام باب فيلتها يراقب القادمين، ويشعر بالخجل.

في اللّيلة الأخيرة، حين عاد السّائق بالسّيّارة مع الرجل الذي يحمل حقيبة سوداء في يده، يلتفت جابر ويعود إلى سيّارته. يقود السّائق الرجل إلى غرفة الوزيرة. «ما هذا، يا صديقة، لم يحن الوقت بعد للمرض. ما زلت في ريعان صباك». تبتسم الوزيرة لصديقها القديم؛ الطّبيب رئيس المشفى التّخصُّصي.

كانت قد أحسّت بالدُّوار مرّتين في عملها فغادرت باكرًا. بقيت سحابةَ اليوم في سريرها، وحين أفرغت ما في أحشائها، قالت مدبّرة المنزل: سأتّصل بالطّبيب، حالك سيّئة اليوم، لا يمكنني أن أبقى مكتوفة اليدين وأنتِ تتألّمين.

تبتسم الوزيرة لدعابة صديقها القديم. يقيس لها ضغط الدم والنبض. ثمّ يُجري اختبارًا بعد أن شكّ في شيء معيّن.

خرجت الوزيرة من الحمام وأعطت الطّبيب ما طلبه. خمس

دقائق وعاد الطبيب مبتسمًا.

ـ ما هذا، يبدو أنَّك لن تكوني وحيدة بعد الآن.

لم تفهم الوزيرة معنى الجملة مباشرة. اقترب منها وهمس في أذنها: يا صديقتي، أنت حامل.

يبكي جابر الآن. وجهه في هذه اللَّحظة، كمدينة هجرها سكَّانها وباتت خرابًا. الهمس خلفه ما زال مسموعًا، يحاول أن يلتفت ليرى، فيحسّ بأنَّ رقبته قد قُدَّت من حجر.

الوزيرة ترقص فرحًا. اقتربت من مدبّرة المنزل وعانقتها. سأتَّصل به غدًا ليأتي وأطلب منه أن يبقى نهارًا آخر. سنحتفل بهذا. سأخبره بأنّي أحبُّه وأنَّ لا حياة لي من دونه. سأطلب منه أن نتزوَّج ونكون عائلة سعيدة مع الطفل القادم. حين يعود ابني من دراسته، سأعلّمه أن يحبّ جابرًا، وسأعلّم جابرًا أن يحبّه. صحيح أنّي أكبره ببضع سنوات (تبتسم هنا خجلًا)، لكنّي أحبُّه، وهذا هو الأهم. وحين يأخذني بين ذراعيه الدافئتين في المساء، سأخبره بأنّي حامل.

تلك الجملة التي علقت على شفتيها، ولم أمنحها حتَّى الوقت الكافي لتكمّلها: سأخبرك بشيء يا حبيبي، إنّي حامل.

أمسك رسغها. النبض معدوم. لقد ماتت. لو أنَّ الحياة تمنحنا فُرصًا إضافيّة، لو أنَّنا نستطيع العودة إلى ما قبل اللَّحظة الآنية، كأشرطة الكاسيت وألعاب الفيديو. لو أنّي أستطيع العودة إلى ما قبل الجملة. يا آلهة الكون، قتلت امرأة بريئة تحبني. قتلت امرأة أحبُّها.

ارتمى على جسدها الممدَّد يبكي. ما زال جسدها دافئًا، يحتاج إلى بعض الوقت حتَّى تمرّ فيه برودة الموت. هدوء غريب يجتاح كيانه. هدوء من أدرك أنَّ النهاية قريبة فاستسلم.

جلس على الكرسيّ أمام الضوء الأحمر. جسدهُ كان يحجب الضوء عن جزء من جسدها السَّاكن. كلّ جسدها كان مغطًّى بالظلّ ما عدا قدميها. يفكّر في أنَّه ربَّما لم يقتلها. ربَّما يحلمُ الآن والحقيقة أنَّه في مكان آخر. يبتسمُ للفكرة، ويبكي.

انحنى عليها للمرَّة الأخيرة. غطَّى جسدها بملاءة السَّرير. وغادر.

حين مرّ بالبوَّابة لم ينتبه له أيٌّ من الحارسين. لم يلتفتا إليه وهو يستقلّ سيَّارته ويخرج. قاد سيَّارتهُ نحو الجبل. ترجَّل في طريق فرعي

وصعد حتّى وصل إلى القمّة.

يرى المدينة تدخل الفجر مطمئنة. يراها غريبة كأنّه لم يكن هنا لسنوات. يرى نفسه في ظلال أنوار الشوارع الصّفراء التي تتلاشى. وهو سيتلاشى كنور أصفر فَقَدَ بريقه؛ كنور أصفر فقد المتعة.

يفكّرُ في أنّه: إن كان اتّصل هاتفيًا بالوزيرة ليخبرها بخبر الرجال الثلاثة الذين يخطّطون لقتلها لردّ لها الدّين من دون أن يراها. وكان الآن في البلدة يحرس حقل الخضار.

«في تلك الحالة ستتغيّر حياتك كلُّها، وتأخذ مجرًى آخرَ، لكن فُرصك قد استُنفِذت. هناك الكثيرون ينتظرون»، يقول الرجل الكبير.

عاد إلى المدينة عند الفجر. وصل إلى مكتبه في الصّباح الباكر. دخلة ونادى السكرتير. لا أحد يأتي. خرج وناداه في وجهه. السكرتير يتصرّف كأنّ جابرًا غير موجود. ابتعد قليلًا ونادى الحاجب الذي كان يُعِدّ الشاي. يتصرّف الحاجب كأنّ جابرًا غير موجود.

الرجلان بالبدلتين السوداوين يقتربان منه. يهمس القصير: اتبعنا.

دائرة الأبد

أوّاه! أيُّها الحجيج

أيُّها الذين، لسبب

قد لا يكون بيِّنًا،

تمضون مهمومين.

دانتي ألغييري

عندما استيقظتُ هذا الصّباحَ هل كنتُ الشخصَ نفسَه، وإن لم أكن الشخصَ نفسه، فلأسأل، إذًا: مَن أنا حبًّا باللّه؟

لويس كارول

لم يكن ثمّة زمنٌ أو حياة أو موت، بل هذا فحسب، هذا الاكتمالُ الأبديُّ.

د. هـ. لورنستختفي الأضواء على المسرح العملاق، وتُسدَل السّتارة.

يشعر جابر بأنّه قد بات وحيدًا مرّة أخرى؛ وحيدًا للمرّة الألف؛ وحيدًا يواجه عالمًا يتماوج في كلّ لحظة؛ عالمًا تتداخل فيه الأماكن والأزمان وتفقد لونها.

الكرسيُّ قربه فارغٌ. لا أثر لأيّ شيء حيّ حولهُ. وحدها السّتارة التي تحجب خلفها خشبةَ مسرح عملاق، والهمسُ يأتي من خلفه واضحًا. ولا شيء آخر.

يريد أن ينظر خلفه ليرى، ولا يستطيع. يريد أن ينظر أين اختفى الرجل الكبير، ولا يستطيع. يحسّ بأنّ حوارًا ما قائم على مقربة منهُ؛ حوارًا سمعهُ ربّما، وشارك فيه؛ حوارًا يدري أنّه هناك في مكان ما في الصالة.

يحسّ بشيء في أعماقه يتحرّر ويسبحُ في فضاء المكان. يحسّ بأنّ جسده بدأ يفقد الوزن الفيزيائيّ المعرف، ويتحوّل تباعًا إلى ما يشبه الغمام الخفيف.

ما زال يجاهد لينظر خلفه، ولا يستطيع. في اللّحظة التي قرّر فيها النّظر خلفَه، وجد نفسه ينظر إلى الأعلى، فيرى ما لم يرَه حتّى اللّحظة.

المسرح لا سقف لهُ، بل يسبح في فراغ. المسرح صندوق مفتوح من الأعلى يحيط بالمكان، كأنّه المكان. النجوم والكواكب ومستعمرات الهيدروجين الزرقاء تملأ السّماء وهي قريبة جدًا. يشعر بها قريبةً، حتّى يتهيّأ لهُ في لحظة أنّه يستطيع لمسها فقط إن تطاول بيده قليلًا.

يمرّ الزّمنُ كثيفًا الآن؛ كثيفًا كبقعة زيت عملاقة، تسبحُ فيها أرواحٌ كثيرة. تسبح فيها أرواحٌ قديمة، وأمكنةٌ، وأحداث.

يشعرُ بأنّ المسرح غير ثابت على الأرض. المسرح، بكلّ ما فيه، يسبح في الفراغ الخارجيّ. المسرح يحتوي الفراغ، وهو الفراغ.

تمرّ الأحداث متسارعة جدًا، ثمّ تتباطأ ليراها. تمرّ كشريط سينمائيّ بالأبيض والأسود. بعضها يعرفهُ، وبعضها قرأ عنه، وبعضها لا يعلم عنه شيئًا. يحسّ بأنّ جميع من يمرّون أمامه هناك إنّما هم نسخة واحدة، تتقافز في الفراغ بدرجات لونيّة مختلفة. يرى وجهه في كلّ الوجوه، بألوان وأشكال عديدة.

تبرقُ السّماء، وتبدأ تميل إلى الحُمرة القانية. يشعر بما يشبه

المطر، لكنَّ القطرات ليست ماء، بل خيوط لامرئيّة تتساقط من الأعلى لتبقى معلّقة فوق المسرح العظيم. الخيوط لا تنتهي. يرى جابرْ الآن أنَّ الخيوط تحمل في نهاياتها قصاصات، بعضُها صورٌ ضوئيّة ملوَّنة، وبعضُها بالأبيض والأسود، والبعضُ رُسم رسمًا. لكنَّ الأكثر غرابة كان لوحات صغيرةً برسوم حروف غريبة، تتوسَّط الورقة؛ رموز وأشكال يحسّ بأنَّه رأى شبيهًا لها في مكان ما. الصُّور بحجم الصُّور في البطاقات الشَّخصيَّة. آلاف الصور، ملايين الصُّور، مليارات الصُّور تتساقط فوق المسرح وتبقى معلّقة في الفراغ لتشكّل تموُّجات تغطّي السّقف الغائب. تتبادل الصُّور مواقعها بصور جديدة. تختفي ثمَّ تعود، في دورة أزليَّة لا تنتهي.

بدأ يشعر بالخوف يتسلَّل إليه. يريد أن يخرج من المكان، لكنَّه يخشى الاستدارة والخروج من الباب الكبير؛ الباب الذي دخل منه. يخاف أن يرى مصدر تلك الأصوات الهامسة، ويتمنَّى أن يراها في الوقت عينه.

يبدأ بهبوط المدرَّجات مسرعًا حتَّى يصل إلى خشبة المسرح. يشعر بأنَّ الطريق لا ينتهي بين المقعد في منتصف الصالة والخشبة العملاقة.

يرفع السّتار قليلًا ويدخل خلفه. لا شيء خلف السّتار، اختفت الأماكن والأزمان والأشخاص عن الخشبة، وغدا فراغًا لا ينتهي؛ فراغًا يشبه الأرض المهجورة، الأرض اليباب. يقفز خلف السّتار في الفراغ ليجد نفسهُ ماشيًا في الطريق المؤدّية إلى المدينة؛ المدينة عينها التي كسرتهُ في حيوات ثلاث، حيوات ثلاث عاشها ربَّما، وربَّما لا. لا يستطيع أن يجزم، لكنَّه متأكّد من شيء واحد، وهو أنَّ روحه كانت هناك، تسبحُ في أقدار عديدة، تسبح في وجود هلاميّ يختلف كلّ لحظة.

يمشي ويفكّر في أنَّ هذا حُلمٌ وحياتَه حقيقة، أو هذه حقيقة والأخرى حلم. يفكّر في أنَّ وجوده فوق هذه الأرض ربَّما كان حُلمًا. ما الفرق بين الحُلم والحقيقة، مَن قسمهما هكذا. ما يُدرينا أنَّ الأحلام هي الحقيقة التي نبحث عنها منذ الأزل ولا نجدها. ما يدرينا أنَّه في لحظة ما، قد سُلبَت عقولُنا، وحُقنَت بهذا الذي نراه أمامنا؛ هذا الذي اسمه حياة: ولادة، فلاجدوى، فموت.

كانت خيوط الفجر الأولى تصارع الغيم لتصل. العتم ما زال كلّيًا لكنَّه في الشرق بدا أخفّ وطأة، حيث تلوَّنَ الغيمُ بلون برتقاليّ قاتم.

الصَّمت مُطلقَ الآن، وقبّة السَّماء كشفت عن ذاتها في مشهد غريب، لا نهاية زرقاء تنتهي في مكان بعيد، مكان تكون فيه القوانينُ والحياة والعقل مختلفةً. أو ربّما تكون غير موجودة أبدًا.

لا يدري جابر أين يذهب الآن. يحسّ بأنَّ يدًا بيضاء ستدفعهُ في الجهة التي عليه أن يتبعها. يتبعها أو يخالفها. ذاك السُّؤال بقي مُعلّقًا في فجر سيأتي قريبًا.

يرى رجلين قادمين نحوه. رعب جابر الآن كامل. يريد أن يركض، لكنَّه يشعر، كما نشعر في بعض أحلامنا حين نركض وتبقى أقدامنا لصيقة المكان.

يقترب الرجلان منه حتَّى تتَّضح ملامحهما في العتم الخفيف الذي يسبق هذا الفجر. يواجه جابر الآن ظلالَه في الحيوات الأخرى. جابرُ الذي تحوَّل إلى وحش وقتل الوزيرة، كان ما زال يرتدي بذلتهُ السَّوداء. شعره الذي عبثت به الريح كان متَّسخًا ومغبرًا. عيناه الذاهلتان، تنظران في خطّ الأفق كروح غائبة عن المشهد.

أمَّا جابر الآخر، ذاك الذي قتل المرأة الجميلة بعد أن صدمتها السَّيَّارة الرِّياضيَّة المسرعة، فكان يبتسمُ ببلاهة، وبيده لفافةُ تبغ، يبدو كأنَّ السّنين مرَّت عليه آلافًا.

اقترب الرجلان كثيرًا منه. يرى جابر نفسه في سنوات ربَّما ستأتي إن تابعت الأقدار والصُّدف مجراها. يرى نفسه في احتمالات لحيوات ربَّما تأتي.

اقترب أحدهما منه وهمس في أذنه بضع كلمات، خلال دقيقة أو دقيقتين ليس إلَّا. حين أنهى الرجل كلماتهِ ارتسمت على وجه جابر ابتسامةٌ غريبة؛ ابتسامةٌ أقرب إلى الرضا؛ ابتسامةٌ كتلك الابتسامة التي رآها على شفتَي أمّه الميّتة، وهي تعبر إلى الجهة الأخرى من الوجود.

يراهما الآن وقد غابا في المدى المنظور جهة الشرق. قرصُ الشمس، بخيوطه البرتقاليَّة الأولى، جعل وجودَهما، وهما يسيران في جهتين مختلفتين، أقربَ ما يكون إلى سراب. ووجوده في جهة ثالثة أقرب إلى السَّراب.